مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

قصة الوجود

دراسة قرآنية في فلسفة الموت والحياة
لعالمي الإنس والجن

اقرأ

المهندس عدنـــان الرفـــاعي

المهندس عدنان الرفاعي

قصة الوجود

.. عفواً أيها السادة ..

.. هذا الكتاب ..

.. للباحثين عن الحقيقة..

.. أولي الألباب في كلّ جيل ..

المهندس عدنان الرفاعي

كاتب ومفكّر إسلامي

مواليد : سورية - درعا - تل شهاب .. عام : ١٩٦١ م ..

من المؤلّفات:

"النظرية الأولى (المعجزة)

"النظرية الثانية (القدَر)

"النظرية الثالثة (الحق المطلق)

"النظرية الرابعة (الحكمة المطلقة)

"النظرية الخامسة (إحدى الكُبَر)

"النظرية السادسة (سلّم الخلاص)

"المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء)

"محطات في سبيل الحكمة

"الحق الذي لا يريدون

"قصة الوجود

"نقد نقد النظرية الإعجازية في القرآن الكريم

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

المقدِّمة

.. قصّةُ الوجودِ ، لا نُدركُ حقيقتَها ولا نملكُ يقينَها إلاّ بتدبّر كتابِ اللهِ تعالى المقروء (القرآن الكريم) ، وبالبحثِ في مادّةِ كتابِهِ المنشور (الكون) .. فما بين إدراكِنا لدلالاتِ القرآنِ الكريم ، وبين استقرائنا لما بين أيدينا من معرفةٍ لخواصِّ المادّة ، يُبحِرِ إدراكُنا لحقيقةِ الوجودِ وقصّته ..

ووجودُ عالميِّ الإنسِ والجنِّ ككائناتٍ مُكلّفةٍ – مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف طبيعة التكليف كما سنرى – له خصوصيّته التي تميّزه عن وجود باقي المخلوقات ، من حيث الوظيفة ، ومن حيث المآل .. وبالتالي فإن إدراكنا لحقيقة هذا الوجود ، يتعلّق بإدراكنا لحقيقة تكليفنا في هذا العالم ..

.. وإدراكُنا لحقيقةِ تكليفِنا يتعلّق بإدراكنا لحقيقة الدلالات والمعاني التي يحملها القرآنُ الكريم ، إدراكاً مجرّداً عن كُلِّ موروثٍ فكريٍّ يُناقض صريحَ آياتِ كتاب الله تعالى ..

ولذلك ... سنتعرّض في هذا البحث إلى قضايا فكريّة هامّة ، كوجود عالمي الإنس والجنِّ ، وفارقِ التكليف بينهما ، واستحالةِ رؤيةِ الله تعالى في الدنيا ، وحقيقة عالم البرزخ ، وكيف أنَّ الجنّة والنار – بحيثيّاتهما المادّيّة – لم تُخلقا بعد ، وحقيقة الشفاعة ، وحقيقة عدم خروج أهل النار من النار وأهل الجنّة من الجنّة ، وغير ذلك من المسائل الفكريّة التي بيّنها القرآن الكريم ، والتي تمّ تفسيرُ أكثرِها تفسيراً مقلوباً مُخالفاً لدلالات كتاب الله تعالى ، بسبب الاندفاع الفكريّ وراء العصبيّات المذهبيّة ، دون معايرةٍ حقيقيّةٍ على كتابِ اللهِ تعالى (القرآن الكريم) ..

.. إنّ الفلسفة الإسلاميّة الحقَّ التي يحملها كتابُ الله تعالى ، هي الأدلّة والبراهين التي تُوْلَد نتيجة تفاعل عقولنا وتصوّراتنا مع ذاتيّة النصّ القرآني ، بموضوعيّة لا تخرج عن ظاهر دلالاته ، دون أن نفرض على إدراكنا لهذه الدلالات أيَّ تصوّرٍ موروثٍ ، سواءٌ كان روايةً أو رأياً مُسبقاً ..

فالعلاقةُ بين الفِكر الإسلاميِّ السليم ، والنصِّ القرآني ، توازي تماماً العلاقةَ بين صورة الشيء وحقيقتِه .. وبمقدار ما نتجرّد في إدراكنا لدلالات النصّ القرآنيِّ متعقّلين حقيقة هذه الدلالات ، بمقدار ما نقترب من حقيقته ، ومن مُراد الله تعالى فيه ..

إنّ ثنائيّة القرآن الكريم والعقل ، في إدراك الفلسفة الإسلاميّة الحقّ ، عبر إدراك دلالات القرآن الكريم ، لا تُعطي نتائجَ على درجةٍ كبيرةٍ من الصحّةِ ، إلاّ إذا كانت (هذه الثنائيّة) الطرفَ الأوّلَ في ثنائيّةٍ أخرى ، طرفها الثاني هو التجرّد عن أيِّ موروثٍ فكريٍّ لا دلالة له في كتاب الله تعالى ، ولا يقبله العقل والمنطق ..

.. وإشكاليّة إدراك حقيقة الوجود بالنسبة لعالم الجنِّ ، تكمن في كون هذا العالم مخفيّاً عن أبصارنا .. ولذلك ذهب بعضُهم إلى إنكار وجود هذا العالم ، وذهب بعضُهم الآخر إلى هذا الإنكار عبر تأويل النصوص القرآنيّة التي ترد فيها الكلمات (الجنّ ، الجانّ ، الجنّة) تأويلاتٍ ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، وتتناقض فيما بينها تناقضاً يُدركه من يملك حدّاً أدنى من المنطق .. وسنرى — إن شاء الله تعالى — هذه الحقيقة في الفصل الثالث من هذا البحث ..

.. وذهب الكثير من المفسّرين ومن مؤطّري أساسيّات الفكر الإسلامي الموروث ، إلى الجزم بتحديد الكثير من المسائل الفكريّة ، وإلى ليِّ دلالات النصوص القرآنيّة المصوّرة لهذه المسائل ، لكي تمرَّ من أنفاقٍ فكريّةٍ مُقَولَبةٍ مسبقاً بقوالبَ مذهبيّةٍ مسبقةِ الصنع ..

.. لقد تمّ الجزم من قِبَل الكثيرين بأنّ عذاب القبر جسديٌّ حسّيٌّ ، وبأنّ الله تعالى شيءٌ ويسمّى باسم الشيء ، وبأنّ المعراج بالجسد ، وبأنّ الشفاعة — كما ورد في بعض

الروايات — تُسقط عقوبة الكبائر ، وبأنّ المُسلمين الذين يدخلون النار سيخرجون منها ، وَ ....

.. فسنرى — إن شاء الله تعالى — في هذا الكتاب ، أنّ هذه المسائل تمّ تأطيرها فكريّاً (وتفسيريّاً) بحيثيّةٍ تُناقض تماماً الدلالات التي يحملها القرآن الكريم ، وأنّ هذا التأطير كان — في الكثير من الحالات — من أجل مخالفة مذاهب فكريّة أخرى ، دون اعتبار القرآن الكريم معياراً للحقِّ والباطل ..

ومسألة تأويل الكلمات والعبارات القرآنيّة ، تأويلاً يُخرِج هذه الكلمات والعبارات من ساحة دلالات كتاب الله تعالى ، هي في النهاية خروجٌ على أحكامِ كتابِ اللهِ تعالى ، وتحريفٌ للكلم عن مواضعه .. فأوجه الدلالات والمعاني التي تحملها الكلمات والعبارات القرآنيّة ، والأعماقُ الباطنة لهذه الكلمات والعبارات ، لا تتعارض أبداً مع الدلالات والمعاني الظاهرة التي ندركها من ظاهر الصياغة اللغويّة للعبارات القرآنيّة .. وبالتالي فكلٌّ تأويلٍ يتعارض مع ظاهر ما تحمله الكلمات والعبارات القرآنيّة هو تأويلٌ ساقط ..

.. فالفارق بين التفسير الموضوعي المنهجي لكتاب الله تعالى ، وبين التأويل المحكوم لأهواءٍ مُسبقة الصنع ، يُوازي تماماً الفارق بين الموضوعيّة العلميّة ، وبين الذاتيّة الغارقة في مستنقعاتِ الأهواء ..

إنّ كلَّ أركان الإيمان غيبيّة .. فحتى نؤمن بالله تعالى لا يعني أنّه يجب أن نرى الله تعالى ، وكذلك حتى نؤمن بالملائكة .. وحتى نؤمن بالرسل عليهم السلام وبالكتب التي أُنزلت عليهم ، لا يعني أنّه يجب استحضار اليوم الآخر استحضاراً حسيّاً ، وأن نرى رؤية حسيّة ما هو مكتوب في اللوح المحفوظ ..

علينا أن نعلمَ أنّ وقوعَ أيّ مسألةٍ غيبيّةٍ في عالم الحسِّ ، يعني خروجَها من ساحة الغيب ، وبالتالي لم يعد لإيماننا بها أيّ معنىً ، لأنّه — حين ذلك — يستوي في تصديقها المؤمن والكافر ..

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ ﴾ [الأنعام : ١٥٨]

.. وكلامنا هذا لا يعني – كما يتوهّم الجاهلون – التسليمَ لكلِّ ما قيل من خرافاتٍ وأوهامٍ نُسجت حول عالم الجنِّ ، والتي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان .. ولا يعني التسليمَ الفكريّ لكلِّ موروثٍ تفسيريٍّ يُؤطِّر أيَّ مسألةٍ تأطيراً يُخالف دلالات كتاب الله تعالى لهذه المسألة ..

صحيحٌ أنّ أركان الإيمان غيبيّة – بالنسبة لحواسِّنا الماديّة في هذا العالم المادّيِّ – ولكنَّ العقلَ السليمَ يراها في كتاب الله تعالى ببصيرةٍ تفوق – من حيث البرهان – الرؤيةَ الحسيّةَ لما نراه في عالم المادّة والحسّ ..

نحن في عالم الدنيا لم ندخل عالم البرزخ بعد ، ولا الجنّة ولا النار .. ولا يُوجَدُ نصٌّ في كتاب الله تعالى يجعلنا نجزم – كما جزموا – أنّ الله تعالى شيءٌ ويسمّى باسم الشيء .. ولم نَقِفْ في الحساب حتى نجزم بحيثيّات الشفاعة كما تُوردها الروايات – كما سنرى – وروداً يُخالف صريحَ آيات كتاب الله تعالى .. إنّ ما نستطيع أن نجزمَ به هو البراهين والأدلّة التي نُدركها من كتاب الله تعالى ، والتي يجب أن تكونَ معياراً لأيِّ روايةٍ ، ولأيِّ تصوّرٍ يدور في أنفسنا ..

إنّنا ننطلق في بحثنا هذا – وفي أيِّ بحثٍ قرآنيٍّ – من المقدّمة القرآنيّة ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] ، مُعتقدين أنَّ القرآنَ الكريمَ كافٍ لدراسة هذه المسائل من بداياتها إلى نهاياتها ، وكافٍ لمعرفة دلالات الكلمات التي تصف هذه المسائل ، وبالتالي فأيُّ معنىً لأيِّ كلمة من الكلمات التي تصف هذه المسائل نجده في قواميس اللغة العربيّة (أو في الروايات) منافياً لدلالات هذه الكلمة في كليّةِ القرآن الكريم ، لا نعتبره مُراداً من الله تعالى ، ولا حُجّةً على كتاب الله تعالى ، لأنّه معنىً اصطلاحيٌّ من صنع البشر ، أو دُسَّ على رسول الله ﷺ ، الذي تُفسِّر سُنّتُهُ الشريفةُ كليّاتِ النصّ القرآنيّ ، فلا تُخالفها ، ولا تُلغيها ..

.. إنّ استخدامَ الكلمة القرآنيّة وتأويلَها وتلبيسَها للمسائل عبر الزمان من قِبَل البشر ، وتوثيقَ ذلك في بعض قواميس اللغة العربيّة ، وفي بعض الروايات ، لا يعني أبداً أنّ هذا الاستخدامَ حجّةٌ على ما يحمله القرآن الكريم من دلالاتٍ لهذه الكلمة ..

.. والعكس [*] هو الصحيح ، فالقرآن الكريم هو الحجّة على قواميس اللغة ، وعلى الروايات .. والقاموس الوحيد الذي يُحتجُّ به على ما تحمله المفردات القرآنيّة من دلالات ومعانٍ ، هو القرآن الكريم ذاته ، الذي نزّلَهُ اللهُ تعالى تبياناً لكلِّ شيءٍ .. فمن المؤكَّد أنّ جملة الأشياءِ التي نزل القرآن الكريم تبياناً لها ، تحتوي على كونه قاموساً لغويّاً لإدراك دلالاته ومعانيه ..

إنّ من أكبر الأكاذيب التي تُسيءُ إلى منهجِ اللهِ تعالى وإلى كتابه الكريم ، اختراع تعاريف لغويّة للمسائل تختلف عن التعاريف التي يحملها القرآن الكريم للمسائل ذاتِها .. فالتعريفُ اللغويُّ الحقُّ هو ما يُستنبطُ من دلالات صياغة القرآن الكريم ، لأنّ القرآن الكريم هو المعيارُ اللغويُّ للغتنا .. ولا يُوجدُ تعريفٌ اصطلاحيٌّ للمسائل التي يحملها القرآن الكريم ، خارج دلالات كتاب الله تعالى ، لأنّ المفرداتِ القرآنيّةَ فطريّةٌ مُوحاةٌ من الله تعالى ، علّمها لآدم عليه السلام قبل هبوطه من جنّة الاختبار [كما رأينا في

---

[*] **لقد رأينا في النظريّة الأُولى (المعجزة) أنّ كلمة الأميّين ومشتقّاتِها في القرآن الكريم ، تحمل دلالاتٍ ومعاني تختلف عن الدلالات والمعاني الواردة في قواميس اللغة ، وفي موروثاتنا التفسيريّة .. ورأينا في النظريّة الرابعة (الحكمة المطلقة) أنّ أحكام مسائل العبيد وملك اليمين في القرآن الكريم ، تختلف كثيراً عن الأحكام التي تمّ تأطيرها في الفقه وفي قواميس اللغة ، وأكّدنا ذلك في كتاب المعجزة الكُبرى : (حوار أكثر من جريء) ، عبر برهان عددي لا يعرف الكذب والخداع .. ورأينا في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) أنّ كلمة الأعراب في القرآن الكريم تحمل دلالاتٍ ومعاني تختلف عن الدلالات والمعاني الواردة في قواميس اللغة ، وفي الروايات التاريخيّة .. ورأينا في كتاب المعجزة الكُبرى (حوار أكثر من جريء) كيف أنّ مسألةَ الطلاق في كتاب الله تعالى ، ومسألة الكلالة ، وغيرهما الكثير ، تختلف أحكامُها المستنبطة من كتاب الله تعالى عن الأحكام الفقهيّة التي نتوارثها جيلاً عن جيل ..**

النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر)] ، وليست وضعيّة من صنع البشر .. فالقرآن الكريم هو المعيار اللغويُّ والشرعيُّ والفلسفيُّ والفقهيُّ والعقيديُّ لفِكرِ هذه الأمّة ..

ومن أكبر الأكاذيب التي تُسيء إلى منهج الله تعالى ، الزعمُ بأنّ تصوّرات مذهبٍ ما في جيلٍ ما ، هي كلُّ ما تحمله النصوصُ القرآنيّة من أدلّةٍ ومعانٍ بالنسبة للمسائل موضوع هذه التصوّرات ، بحيث يُحظر على الأجيال اللاحقة أيُّ تدبّرٍ خارج منظار هذه التصوّرات ..

لذلك نقول لمن يُخالفنا الرأيَ في المسائل المطروحة في هذا البحث ، ويتوهّم أنّ بحثنا هذا خروجٌ على أساسيّات العقيدة وثوابتِها .. هل وَضَعْتَ تصوّراتِك لهذه المسائل في ميزان القرآن الكريم ؟ ، وهل وضعتَ أدلّتَنا وبراهيننا في ميزان القرآن الكريم ؟ ، أم أنّك وضعتَ أدلّتَنا وبراهيننا – ومن قبلها القرآن الكريم – في ميزان تصوّراتك ؟ .. وبالتالي ما هي أساسيّات العقيدة عندك ، وما هي ثوابتها ؟ ، هل هي القرآن الكريم ، أم تصوّرات من تحسبهم آلهة يُحيطون بكتاب الله تعالى ؟ ..

وإنّ تلبيسَ الكلمات القرآنيّة العائدة إلى جذرٍ لغويٍّ واحدٍ ، معاني متناقضة ، حسب تصوّرات البشر المختلفة عَبْرَ الأزمنة ، والتي وُثِّقت في بعض قواميس اللغة ، باعتبار الكلمة القرآنيّة وضعيّة من صنع البشر ، هو في الحقيقة تجزئةُ الدلالات الواحدة في كتاب الله تعالى إلى دلالاتٍ متفرّقةٍ لا علاقة بينها ، بل ومتناقضة ، تبعاً لاختلاف تصوّرات البشر حول المسألة الواحدة ، عَبْرَ الزمان ..

.. وهذا لا يختلف عن مسألة الناسخ والمنسوخ المزعومة ، ففي الحالتين نحن أمام مسألةٍ تقودنا إلى الإيمان ببعض ما يحمله القرآن الكريم ، وإلى الكفر ببعض ما يحمله .. وهو ذاته ما عبَّر عنه القرآن الكريم في الصورتين القرآنيّتين التاليتين ، اللتين رأينا في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) أنّهما متكاملتان في مسألةٍ واحدة ، بدليل أنّ مجموع القيم العدديّة لحروفهما (وفق الأبجديّة القرآنيّة المكتشفة لأوّل مرّة في العالم في النظريّة الخامسة [إحدى الكُبَر]) من المضاعفات التامّة للعدد (١٩) ..

﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٍۚ ﴾ [البقرة : ٨٥] = ٢٣٩*

﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر : ٩١] = ١٤١

٣٨٠ = ١٤١ + ٢٣٩

٢٠ × ١٩ = ٣٨٠

﴿ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ ﴾ = ٧٠٩

﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩٢ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ = ٣٣٦

١٠٤٥ = ٣٣٦ + ٧٠٩

٥٥ × ١٩ = ١٠٤٥

.. فبمقدار ما يكون تفسيرُنا لأيِّ مسألةٍ قرآنيّةٍ قريباً من كونه رابطاً لهذه المسألة مع القرآن الكريم ككلٍّ ، بمقدار ما نقترب من تفسير هذه المسألة تفسيراً سليماً ..

* **الأرقام الواردة بعد إشارة (=) هي – كما رأينا في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) ، وفي كتاب : المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) – هي مجاميع القيم العدديّة لحروف النصوص القرآنيّة (الحروف المرسومة) ، حيث تمّ إعطاء كلِّ حرفٍ قيمة عدديّة ، تتعلّقُ بترتيب مجموع وروده في القرآن الكريم ، ابتداءً من الحرف الأكثر وروداً وهو حرف الألف ، الذي أُعطي القيمة العدديّة (١) ، وانتهاءً بالحرف الأقلّ وروداً وهو حرف الظاء ، الذي أُعطي القيمة العدديّة (٢٨) .. وتوصّلت إلى قانونين يحملهما القرآن الكريم في كلّ حرفٍ من حروفه .. القانون الأول هو انَّ العبارات القرآنيّة المتكاملة في المعنى والدلالات يكون مجموع القيم العدديّة لحروفها من المضاعفات التامّة للعدد (١٩) .. والقانون الثاني هو أنَّ العبارات القرآنيّة المتوازنة في المعنى والدلالات يكون مجموع القيم العدديّة لحروفها متساوياً تماماً ..**

والاختلافات الفكريّة بالنسبة لإدراك المسائل القرآنيّة ، تتقلّص كلما اقتربنا من البحث القرآنيّ في كليّة القرآن الكريم ، كمنهج وكمعيار ، فوق أيِّ تصوّرٍ وأيِّ موروثٍ (روايةً كان أم رأياً) ..

.. إنّ الذين يتّهمون متدبّري القرآن الكريم والمجتهدين الذين يُفعِّلون العقلَ في فهم القرآن الكريم ، بمرجِّحي العقلَ على النقل ، وبالقرآنيّين ، إنّما يُرجّحون الرواياتِ الموضوعة والأهواءَ المُقولبةَ مُسبقاً ، على النقل (القرآن الكريم) والعقلِ معاً .. فيريدون وضع التاريخ كبديلٍ عن منهجِ الله تعالى ..

والذين يفرضون تصوّراتِهم وأهواءَهم على دلالات كتاب الله تعالى ، بحجّة أنّ القرآن الكريم حمّالُ أوجه ، إنّما يسعون إلى وضع أهوائهم كبديلٍ عن منهج الله تعالى ... القرآن الكريم حمّال أوجهٍ غير منتهيةٍ من الدلالات الحقّ التي لا تتعارض مع صياغة نصّه ، وليس حمّال أوجهٍ من الأهواء التي ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ..

.. إنّ الذين يقودون العقلَ والمنطقَ والحقيقةَ إلى مذبحٍ فكريٍّ ، هم الذين يحسبون الوجودَ داخل إطار ما تُدركه حواسُّهم ، وهم الذين يجعلون من تصوّراتهم المحدودة ، ومن إدراكهم المقيّد ، حَكَمَاً لتقرير وجودِ المسائل ، وعدمِ وجودِها .. وهم ذاتهم الذين يحسبون أنّهم على حقٍّ لأنّ الجاهلين جاهلون .. فهم بدفعهم للعقل والمنطق والحقيقة إلى ساحة الجهل الفكري ، إنّما يختنقون – فِكراً – في أنفاق هذا الجهل ، دون أن يشعروا ..

فهل يدفعنا العقلُ والمنطقُ إلى تبنّي خرافاتٍ ، وإلى إنكار الحقائق ، بحجّة أنّ الذين نختلف معهم في الرأي قد تبنّوا خرافاتٍ وأوهاماً تناقض خرافاتِنا وأوهامَنا ؟! .. وهل نغمض أعيننا عن الحقِّ الذي نراه في كتاب الله تعالى وتصدّقه عقولنا ، ونأخذ بنقيضه ، لأنّ الذين نختلف معهم في الرأي يأخذون بهذا الحقّ ؟! .. وإذا كنّا نسير باتّجاه الحقيقة فهل يدفعنا تهوّر بعضهم على يمين الطريق إلى أن ندفعَ بأنفسنا وبفكرنا للتهوّر على يساره ؟!!! ..

.. فإدراكنا السليم لما يحمله القرآن الكريم من أدلّة ومعانٍ ، هو عبادةٌ وليس لهواً .. كما أنّ إدراكَنا السليمَ للكون الذي نعيش فيه هو علمٌ وليس جهلاً ..

إنّ الموروثات الفكريّة المخالفة لكتاب الله تعالى ، والتي تُرجّح الروايات والمقولات المذهبيّة على دلالات كتاب الله تعالى ، تترسّب – مع الزمن – في نفوسِ المسلمين ، لتكوّن منهم أفراداً متواكلين ، يُرجّحون العاطفةَ الهوجاء على العقل ، والقولَ على الفعل .. وتكوّن منهم أفراداً لا يتفاعلون مع الدنيا بالحيثيّة التي يُريدها الله تعالى منهم ، كخلفاء له في الأرض ..

.. ولنبدأ برسم صورة قصّة الوجود لعالمي الإنس والجنّ ، خطوةً خطوةً ، من كتاب الله تعالى ، عبر المنهج القرآني **﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ ﴾** [آل عمران : ٧] ، ومن منظارٍ علميٍّ منطقيٍّ .. فمن المقدّمات إلى النتائج لا نخرج عمّا يحمله القرآن الكريم من دلالاتٍ ومعانٍ ، وعمّا يحمله العلم والعقل والمنطق ، جاعلين دلالات القرآن الكريم معياراً لأيِّ موروثٍ تاريخيٍّ ، ولأيِّ تصوّرٍ عقليٍّ ..



مراتب الوجود

.. لا يُمكننا أن نفصلَ – في تصوّراتنا حول مسألة الوجود – فلسفةَ الوجود التي نحملها ، عن فلسفة المعرفة .. ففلسفة الوجود ثمرةٌ من ثمار فلسفة المعرفة ..

.. وإنّ الاقتصارَ على المذهب الحسّي المادّي ، في الانطلاق من مقدّمات فلسفتنا المعرفيّة ، نحو إدراك فلسفة الوجود – كما ذهب بعض الفلاسفة الماديّين – سيؤدّي بالضرورة إلى إنكار العقل المجرّد ، وإلى إنكار المعرفة العقليّة والفطرة الروحيّة خارج إطار المادّة ، وإلى إنكار تعلّق المعلول بالعلّة ..

.. فإدراكُنا للأشياء التي تقع تحت حواسِّنا يكون بالتجربة والبرهان ... والاتّجاه نحو العلّة الأولى التي تقف وراء المعلولات التي نحسّها ، ونحو إدراك البداية الأولى لوجودها ، يكون بإدراك ما يُخبرنا الله تعالى عنه ، عبر منهجٍ قرآنيٍّ نتفاعل معه من منظار الثوابت العلميّة ..

.. ونحن حينما اخترنا المنهج القرآني لدراسة مسائل هذا البحث ، إنّما اخترنا منهجاً نملك برهاناً رياضيّاً على صدق نزوله من عند الله تعالى خالقِ الوجود .. فقد رأينا في النظريّة الأولى (المعجزة) وفي النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) وفي النظريّة السادسة (سلّم الخلاص) وفي كتاب المعجزة الكُبرى (حوار أكثر من جريء) ، أدلّةً رياضيّةً يتساوى في إدراكها المؤمن والكافر ، والعربي وغير العربي ، تُثبت بشكلٍ لا لبس فيه أنّ القرآن الكريم كتابُ الله تعالى المطلق الذي يحوي كُلّ أسرار الكون وقوانينه ، وكتابُ الله تعالى الوحيد الذي لم يُحرّف فيه حرفٌ واحد ..

.. وفي تصوّرنا للوجود المخلوق علينا أن نُميّز – قرآنيّاً وفلسفيّاً – بين حالتي الوجود التاليتين :

[١] – عالم الوجود المخلوق المحسوس الذي نستطيعُ إخضاعَهُ لحواسّنا .. وهـو خاضعٌ للمكان والزمان .. وجميع الجزئيّات الماديّة تنتمي إلى هذا العالم ..

.. وهذا العالم المحسوس مكوّنٌ من ذرّاتٍ ماديّة .. وهذه الذرّات مكوّنة من طاقـة تدور بسرعةٍ هائلةٍ جداً داخل جسم الذرّة ، ممّا يُعطي الذرّة حيثيّاتها المكانيّة الزمانيّة ..

.. والقوَّة الأولى التي دوّرت وما زالت تُدوِّر الطاقة داخل جسم الذرّة ، هي حتمـاً من خارج الذرّة ، وبالتالي من خارج عالم الجزئيّات (عالم المادّة والمكان والزمـان) .. فلو كانت هذه القوّة من ذات الذرّة لتخامدت مع الزمن ، ولانتهت المادّة إلى الـزوال .. بل كيف تُعطي الذرّةُ حيثيّاتِ وجودِها من ذاتها ، وذاتها (وكلّ ذوات عالم المادّة والمكان والزمان) محتاجةٌ أصلاً في وجودها لهذه الحيثيّات ؟ ..

.. فإذا كانت الذرّة بحاجةٍ إلى تدوير الطاقة المُودعة فيها حتى تخرج إلى عالم المـادّة والمكان والزمان ، فلا بُدّ من وجود من دوّر هذه الطاقة في البداية ، حتى خرجت هـذه الذرّة إلى عالم الوجود المحسوس .. بل لا بدّ من وجود من أوجد هذه الطاقة أصلاً ؟ ..

.. إذاً المادّة بجزئيّاتها المختلفة والتي تُشكِّل قوام العالم المحسوس ، بحاجة في كلِّ لحظةٍ إلى من يُعطيها حيثيّات وجودها في عالم المادّة والمكان والزمان ، عن طريق تدوير الطاقـة المُودعة فيها ، داخل إطار المكان الذي تحتجزه ذرّات هذه المادّة ..

.. وبالتالي فالمادّة تتّجه في كلِّ لحظةٍ نحو الزوال لولا إعطاؤها حيثيّات وجودهـا .. وبالتالي فالله تعالى يُمسك المادّة في كُلِّ لحظةٍ من الزوال عن طريـق إعطائهـا حيثيّـات وجودها ..... هذه الحقيقة العلميّة ، نراها واضحةً جليّةً في الآية الكريمة التالية ..

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر : ٤١]

وهكذا .. فمادّة السماوات والأرض بحاجةٍ – في كلّ لحظة – إلى أمْرِ الله تعالى ، كي تقومَ في عالم الوجود المكاني الزماني المحسوس ..

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ﴾ [الروم : ٢٥]

.. فورود الكلمة القرآنيّة ﴿ تَقُومَ ﴾ بصيغة المضارع ، دليلٌ على حاجة السماء والأرض المستمرّة إلى أمرِ الله تعالى ، كي تقومَ مادّةُ الكون في عالم الوجود المحسوس ..

وأجسادنا المادّيّة التي تتكوّن في النهاية من عناصر الأرض عن طريق الغذاء ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴾ [نوح : ١٧] .. تنتمي إلى جزئيّات هذا العالم المادّي المحسوس ، وإحساسُ أنفسنا بالزمان والمكان لا يكون إلاّ حينما تدخل هذه الأنفس أجسادَنا الماديّة ..... وحينما تخرج أنفسُنا من أجسادِنا المادّيّة – أثناء النوم وحين الموت – فإنّنا لا نحسّ بالزمان ، ولا بالمكان ..

[٢] – عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، والذي يخضع للزمان والمكان فقط حينما يُؤطَّر بجزئيّات المادّة في عالم الحسّ ، كأنفسنا التي تسكن أجسادَنا .. فهذه الأنفس المجرّدة ، قبل حلولها في أجسادنا تكون منتميةً إلى عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ، وبعد حلولِها في أجسادنا تُصبح محكومةً لقوانين المكان والزمان التي يفرضها الجسدُ عليها ..

وعالم الجنّ ككائناتٍ ناريّة مخلوقة من الطاقة (النار) ، ينتمي – بالنسبة لحواسّنا – إلى عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴾ [الرحمن : ١٥] .. وكذلك الملائكة تنتمي إلى عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، فلا تُرى إلاّ إذا تمثّلت بالصور الماديّة لعالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، على الرغم من أنّ وجودها تعلّق بالخلق ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] ..

.. وعلى الرغم من أنّ عناصر عالم الوجود غير المحسوس ، ليست محسوسةً ، وتكون متحرّرةً من قيد المكان والزمان حينما تكون خارج أسر الجزئيّات الماديّة ، إلاّ أنّها تنتمي إلى عالم الخلق (شأنها بذلك شأن مكوِّنات عالم الوجود المحسوس) ، ولا تنتمي إلى عالم الأمر ، الذي ينتمي إليه الروح والقرآن الكريم ..

.. ويمكن تلخيص الفارق بين موجودات عالم الأمر ، وبين موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، بالنقاط التالية :

[أ] – موجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) تتعلّق بصفات الله تعالى ، فلا تحمل أيَّ صفةٍ سلبيّة (نقيض إيجابيّة) ، وكلّ صفاتها إيجابيّة مرتبطة بصفات الله تعالى .. بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، منها من يحمل صفاتٍ إيجابيّةً دائمةً كالملائكة ، ومنها من يحمل صفاتٍ إيجابيّة وسلبيّة ، كالأنفس البشريّة ، وكموجودات عالم الجنّ ..

[ب] – موجودات عالم الأمر لا يُمكن أن تخضعَ للزمان والمكان .. بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، تخضع للزمان والمكان حينما تُؤطَّر بالجزئيّات الماديّة لهذا العالم المحسوس ، كالنفس الإنسانيّة حينما تكون داخل الجسد ، فتحسّ بالزمان والمكان نتيجة وجودها في هذا الوعاء المادّي (الجسد) ..

[ج] – موجودات عالم الأمر لا يُطلق عليها اسم الشيء ، شأنها بذلك شأن الذات الإلهيّة ، بينما موجودات عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، تخضع لصفات الأشياء ، حينما تُؤطَّر بالجزئيّات الماديّة لهذا العالم المحسوس ..

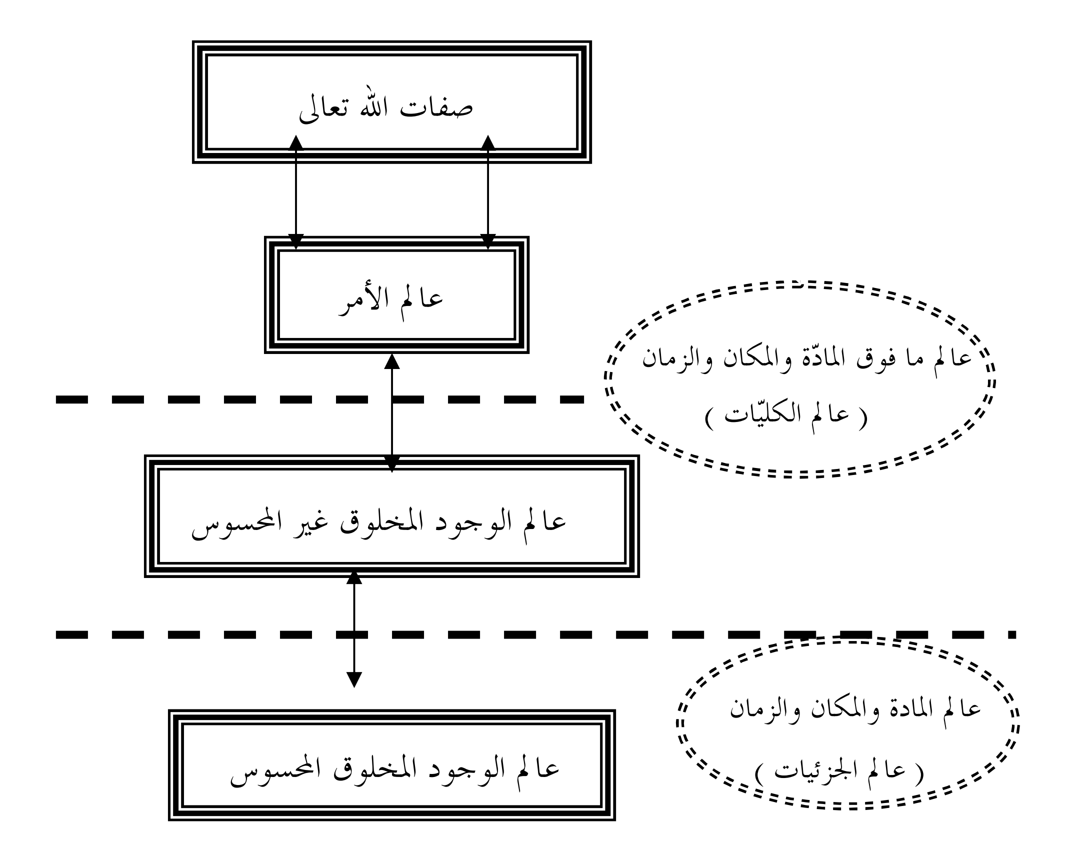
ويمكن تلخيص التشابه بين موجودات عالم الخلق غير المحسوس حينما تكون خارج إطار الجزئيّات المادّيّة ، وبين موجودات عالم الأمر ، بالنقطتين التاليتين :

[أ] – كلاهما غير خاضع للزمان والمكان ..

[ب] – كلاهما لا يتفاعل مع مسألتين متناقضتين في الوقت ذاته ..

.. إذاً هناك عالم الخَلْق المُكَوَّن من جزءٍ محسوس وجزءٍ غير محسوس ، وهناك عالم الأمر المتمايز تماماً عن عالم الخَلْق .. وقد بيّن اللهُ تعالى – في كتابه الكريم – هذين العالمين المتمايزين وعودتهما إليه جلّ وعلا ..

﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤]



.. ولمّا كان عالم الخلق هو عالم الأشياء (عـــالم الجزئيّـــات) ، وســـاحةً لتفاعـــل الموجودات غير المحسوسة مع الجزئيّات الماديّة ، ومع قوانين المكان والزمـــان ، ومُـــؤطَّراً بإطار المادّة والمكان والزمان ، فإنّ موجوداتِه تُسمّى باسم الشيء ..

.. ولمّا كان وجودُ الله تعالى فوق وجود الأشياء ، فإنّ الله تعالى لا يُســـمّى باســـم الشيء ، وكذلك موجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) ..

.. وقول الكثيرين بأنّ الله تعالى شيءٌ ، استشهاداً بالصورة القرآنيّة التالية ، هو قولٌ غيرُ سليم .. فهذه الصورة القرآنيّة ليست شاهداً على قولهم ، كما يتوهّمون ..

﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾ [الأنعام : ١٩]

.. لقد قالوا .. العبارة القرآنيّة **﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾** هي جوابٌ للسؤال **﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ ﴾** ، وبذلك أوّلوا العبارة **﴿ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾** بأنّ معناها (وهو شهيدٌ بيني

وبينكم) .. فقد فصلوا العبارة ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ﴾ عـــن العبـــارة ﴿ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾ .. فالمبتدأ وخبره ﴿ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ ﴾ وضعوا بينهما حاجزاً ، فوضعوا – من جيوبهم – للمبتدأ خبراً بتقدير (قل اللهُ شيءٌ) ، ووضعوا – من جيوبهم – للخبر مبتدأً بتقـــدير (وهـــو شهيدٌ بيني وبينكم) ..

.. نقول .. الصورة القرآنيّة ﴿ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾ كلامٌ مستقلٌّ تامٌّ مكتملٌ بنفسه ، المبتدأ فيه هو كلمة ﴿ ٱللَّهُۖ ﴾ ، وخبره ﴿ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾ ..

.. وقولهم إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ ﴾ ، لا بدّ لها من جـــوابٍ مرسومٍ (غير مقدَّر) في كتاب الله تعالى ، وأنّ جوابها هو العبارة ﴿ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ ﴾ .. هذا القول ، لا دليل عليه .. فالجواب الذي يريدونه مُستقلٌّ عن العبـــارة الثانية ، ويُقدَّر تقديراً .. وإن كانوا يستغربون تقدير الجواب ، نقول لهم أيـــن الجـــواب المرسوم في القرآن الكريم للصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [يس : ٤٥]

.. وما دفَعَنا إلى تقدير جواب العبارة الأولى ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ ﴾ ، هو قوله تعالى ﴿ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد : ١٦] .. فلو كان الله تعالى شيئاً ، ويُسمَّى باسم الشيء ، كما يزعمون ، لكان جلّ وعلا خالقاً لذاته ، وبالتالي لكان سبحانه وتعالى مخلوقاً ، وهذا محال ..

.. وأمّا قولهم بأنّ العبارة : ﴿ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ ، كلامٌ عامٌّ دَخَلَه التخصيص ، بمعنى أنّ الله تعالى خلق كلّ الأشياء ما عدا شيئاً واحداً هو ذاته ، واستشهادهم – على ذلك – بوصف الهدهد لملكة سبأ في العبارة القرآنيّة ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النمل : ٢٣] .. وكذلك بقول

سليمان عليه السلام ﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ١٦] .. وكذلك بقول الله تعالى عن ذي القرنين ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٤] .. قولهم هذا يتنافى تماماً مع عظمة الصياغة القرآنيّة ، التي تصف المسائل وصفاً مطلقاً ، ولا يتّكئ على أيِّ دليلٍ في حيثيّات الصياغة اللغويّة للعبارات القرآنيّة التي يستشهدون بها ..

.. وسنرى إن شاء الله تعالى – في الفصل الثاني – كيف أنّهم أعرضوا عن كلمة ﴿ مِن ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ التي رأيناها في الصور القرآنيّة السابقة ، وسنرى أنَّ هذه العبارة ﴿ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ تعني وَضْعَ الله تعالى بين أيدي هؤلاء الذين أوتوا من كلِّ شيءٍ ، مفاتيحَ الوصول إلى حقائق كلِّ الأشياء ، وكيف أنّهم تفاضلوا في استعمال هذه المفاتيح ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ في الصورة القرآنيّة التالية التي استشهدوا بها أيضاً ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٢٤ – ٢٥] ، هي ضمن العبارة ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ التي تصف الريح المعنيّة في هذه الصورة القرآنيّة ، أي أنّ هذه الريح إذا أمرها الله تعالى بتدمير أيّ شيءٍ فإنّها تدمّره ، وبالتالي إذا لم يأمرها لا تدمّره ..

.. وهكذا فالعبارة القرآنيّة التالية لها مباشرةً ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ تُبيّن لنا أنّ الله تعالى أمر هذه الريح بتدمير كلّ ما يتعلّق بهؤلاء ، إلاّ مساكنهم .. ولا يُمكن القول بأنّ الله تعالى أمر هذه الريح بتدمير كلّ شيءٍ يحيط بهؤلاء حتى مساكنهم ..

.. فالعبارة القرآنيّة ﴿ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ لم تشمل المساكن ، وقولهم بأنّها تشمل المساكن تُناسبه الصيغة التالية : (دمّرت كلّ شيءٍ بأمر ربّها فأصبحوا لا يُرى إلاّ مساكنُهُم) .. بينما ورود عبارة التدمير بصيغة المضارع ، يُبيّن لنا صفة هذه الريح ، ولا يعني الأمرَ الإلهيّ الخاصّ بتدمير هؤلاء ..

.. أمّا في قولهم عن العبارة القرآنيّة ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، بأنّ ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ في هذه العبارة كلامٌ عامٌّ دَخَلَه التخصيص ، فإنّنا نقول .. حينما يقول الله تعالى ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، فهذا يعني كلَّ شيءٍ .. ولو كانت العبارة القرآنيّة ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ تعني – كما ذهبوا – كلَّ شيءٍ باستثناء الذات الإلهيّة كشيءٍ من هذه الأشياء ، لتعارض ذلك مع كون الذات الإلهيّة أعظمَ وأكبرَ وأسمى من كلِّ الأشياء ..

.. التخصيص الذي يدّعونه في هذه العبارة – وفي كلّ عبارة شبيهة – يعني أنّ لفظ الكلِّ يُطلق على الأكثريّة الهامّة ، باستثناء الأقليّة لعدم أهميّتها ، ولأنّها – مقارنة مع الأكثريّة – نادرة ، ولأنّ وجودها وعدمه شبه سيّان في المسألة التي تتعلّق بها الكليّة التي أدخلنا عليها التخصيص ..

.. وهنا نسألهم السؤال التالي : إن كان الله تعالى شيئاً ويسمّى باسم الشيء كما تزعمون ، فهل الله تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً تنطبق عليه شروط التخصيص هذه ؟! .. لو كان الله تعالى شيئاً ويسمّى باسم الشيء لكان وجوده – بين جملة الأشياء – أعظم وأكمل وأشرف من كلِّ الأشياء ، وبالتالي لا يمكن لعقلٍ سليمٍ أن يتصوّرَ بأنّ الله تعالى يُطلِق لفظ الكلّ على الأشياء ، مستثنياً الذات الأعظم والأشرف من كلِّ هذه الأشياء ..

.. لذلك حينما يقول الله تعالى ﴿ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ، فإنّه يعني كلّ ذاتٍ تنتمي إلى عالم الخلق ، ضمن إطار المادّة والمكان والزمان (سواءٌ كانت محسوسة أو غير محسوسة) .. وبالتالي فالله تعالى لا يدخل تحت هذه الكليّة لأنّه لا يُسمّى بالشيء ، وأعظم من أن يكون محكوماً لإطار المادّة والمكان والزمان ، ومن أن يكون قابلاً لحكم هذا الإطار ..

.. وكذلك الأمر بالنسبة لموجودات عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) ، فإنّها لا تندرج تحت كليّة الأشياء الواردة في العبارة القرآنيّة ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ ..

.. وفي استشهادهم بالصورة القرآنيّة ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] ، على أنّ الله تعالى شيءٌ ، بعد أن أوّلوا الوجهَ بأنّه الوجود والحقيقة ، حيث قالوا .. المرادُ بهذه الصورة : كلُّ شيءٍ هالكٌ إلاّ هو .. نقول .. هذا التأويل غير سليم ، والتوجّه في – كتاب الله تعالى – يعني تسديد القصد نحو الغاية التي يتمّ التوجّه إليها ..

﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ﴾[الأنعام: ٧٩]

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ [النحل : ٧٦]

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ ﴾ [القصص : ٢٢]

.. ولذلك فالوجه هو المسلك الذي يتمّ عَبْرَهُ تسديد القصد نحو الغاية التي يتمّ التوجّه إليها عبر هذا المسلك (الوجه) ..

﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة : ١٤٨]

.. هذا المعنى للوجه نستشفّه من الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ [الروم : ٣٩]

.. فالمقصود بوجه الله تعالى هنا هو قصد الله تعالى والغاية من عبادته جلّ وعلا ..

.. هذا المعنى المجرّد للجذر (و ، ج ، هـ) لا يتغيّر حتى حينما ترتبط كلمة متفرّعة عنه بمسألة حسّيّة .. فوجه الإنسان (كمادّة وحسّ) هو آليّة اتّجاهه نحو الأشياء ، لأنّه يحوي حواسّ البصر والسمع والذوق والشمّ ، إضافة لحاسّة اللمس التي يشترك فيها مع باقي الجسم .. فالإنسان – كنفس وجسد – يتوجّه إلى الأشياء في هذا العالم المادّي ، عبر آليّات الحسّ التي يحويها الوجه المعروف ..

.. وهكذا نرى أنّ الصورة القرآنيّة ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ تعني أنّ الذوات المادّيّة التي تنتمي إلى عالم الخلق (عالم الأشياء) ، والتي أوجدها الله تعالى

وسخّرها بين أيدينا لامتحاننا في هذه الدنيا ، هي زائلة فانية ، ولا يبقى إلاّ قصد الله تعالى من إيجادها ، والغاية التي سخّر الله تعالى هذه الأشياء إليها ..

.. وإذا نظرنا إلى هذه الصورة القرآنيّة مع سياق القول المحيط بها .. ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٨٨] ، فإنّنا سنرى أنّ الله تعالى يقول : لا تُشرك مع الله تعالى إلهاً آخر ، فلا إله إلاّ الله تعالى ، وكلُّ شيءٍ ممّا تُشرك به مع الله تعالى ، وممّا لم تشرك به ، سيهلك ، ولا يبقى إلاّ قصد الله تعالى من امتحانك في وجود هذه الأشياء وتسخيرها بين يديك ، والحكم في النهاية لله تعالى ، وإليه سترجع المخلوقات ..

وهناك صورةٌ قرآنيّةٌ أُخرى تُلقي الضوءَ على هذه المسألة ..

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ – ٢٧]

ففي العبارة القرآنيّة ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ نرى أنّ الله تعالى يقول ﴿ رَبِّكَ ﴾ ، ولم يقل (ويبقى وجه الربّ) ، وبالتالي نرى أنّ الخطابَ يخصّ ما أعطاه الربُّ عزّ وجلّ لكلِّ فردٍ من خصوصيّة لامتحانه ، وهذا الذي أعطاه إيّاه سيفنى ويزول ، ولا يبقى منه إلاّ ما تمّ تسديده من القصد والهدف باتّجاه ربّ هذا المُمتَحَن ..

وهكذا نرى أنّ الله تعالى منزّهٌ عن الشيئيّة ، وعن خواصّ عالم الأشياء (عالم الخلق) ، سواءٌ الجانب المحسوس أم غير المحسوس ، لأنّ كلّ موجودات عالم الخلق والتشيّؤ محكومةٌ لقوانين عالم المادّة والمكان والزمان ، أو قابلة لأن تكون محكومةً لهذه القوانين كما رأينا .. هذه الحقيقة نراها واضحةً جليةً في الصورة القرآنيّة التالية

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١]

.. إنّنا نرى أنّ كاف التشبيه تزيد في بيان ابتعاد الذات الإلهيّة عن الشيئيّة .. فلو قال الله تعالى (ليس مثله شيء) دون كاف التشبيه ، لربّما يتسرّب إلى الذهن أنّ الله تعالى

شيءٌ ولكن يختلف عن باقي الأشياء .. بينما بوجود كاف التشبيه نرى بياناً يفيد أنّ الله تعالى لا يُوجَد في عالم الأشياء مثله ، ولا مثل مثله ﴿ كَمِثۡلِهِۦ ﴾ ..

.. لذلك نرى كيف أنّ الله تعالى يُورد في كتابه العزيز كلمة ﴿ كَمَثَلِ ﴾ في المقارنة بين آدم وعيسى عليهما السلام ..

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩]

إنّ خلق عيسى عليه السلام يشبه خلق آدم عليه السلام ، ولكن ليس مثله تماماً ، وإنّما كمثله .. صحيحٌ أنّ كليهما وُلد دون أب ، ومباشرة من تراب دون مراحل الخلق المعروفة أثناء الحمل ، ولكنّ عيسى عليه السلام وُلد من أمٍّ ((ليس بمفهوم الولادة الناتجة من اجتماع النطفة مع البويضة كباقي نساء الأرض ، وإنّما بمفهوم الحمل لساعات محدودة)) ، بينما آدم عليه السلام لم يوُلدْ من أمٍّ ، بمعنى لم يُحْمَل في رحم أنثى ..

.. فكاف التشبيه حينما دخلت على كلمة مثل ﴿ كَمَثَلِ ﴾ ، نراها تُخرِج المماثلة من ساحةٍ واحدةٍ إلى ساحتين بينهما اختلاف ... وهكذا نرى أن نفيَ المماثلة المقرونة بكاف التشبيه في العبارة القرآنيّة ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ ، تُخرج المماثلة من أيِّ ساحةٍ كانت ..

فاجتماعُ كاف التشبيه مع كلمة مثل ﴿ كَمِثۡلِهِۦ ﴾ ، يعني أنّ التشبيه هو بمثل المثل ، وبالتالي فالتشبيه ينتقل من المماثلة في الذات إلى المماثلة في بعض الصفات المعنيّة من منظار هذا التشبيه ..

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ ﴾ [البقرة : ٢٦١]

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾

[العنكبوت : ٤١]

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد : ٢٠]

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة : ٥]

إذاً قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ ، يعني أنّ الله تعالى ليس كالأشياء ، وليست صفاته كصفات الأشياء ، فسمعه وبصره وكلُّ صفاته ليست كما هي عند الأشياء ..

.. ولنعد إلى النفس الإنسانيّة كذاتٍ تنتمي إلى عالم الوجود المخلوق غير المحسوس ، والتي تكون — حين وجودها خارج الجسد — غير خاضعةٍ لقوانين المكان والزمان ..

.. لقد بيّن القرآن الكريم أنّه حين الموت وفي المنام ، تكون الأنفس البشريّة خارج أجسادها المادّيّة ، لأنّ الله تعالى يكون قد توفّاها ، وبالتالي استرجعها فأخرجها من العالم المحسوس المحكوم لقوانين المكان والزمان ، إلى عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان ..

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر : ٤٢]

.. واضحٌ في هذه الآية الكريمة أنّ النفس البشريّة يتوفّاها الله تعالى في منامها ، وحين موتها ، فيسترجعها من عالم المادّة والمكان والزمان الذي تُسجن فيه في قفص الجسد ، إلى عالم ما فوق المادّة والمكان والزمان الذي أتت منه قبل حلولها في الجسد .. وواضحٌ في هذه الآية أنّ النفس التي لم تمتْ يُرسلها الله تعالى في جسدها حين اليقظة ، وفي هذا بيانٌ

صريحٌ أنّ النفسَ هي الوعي والذات ، وهي الكيان المُمتَحَن في هذه الدنيا ، عبر سكنها في الجسد الحيِّ ..

فأصل الإنسان هو النفس المجرّدة عن عالم المادّة والمكان والزمان ، والتي تدخل عالم المادّة والمكان والزمان ، وتخضع لقوانينه عبر الجسد المادّي الحيِّ .. ولذلك فالخطاب القرآني الموجّه للإنسان ، هو خطابٌ موجّه – في الأصل – إلى النفس ، فالإنسانُ نفسٌ تُمتحنُ في وعاء الجسد ..

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ﴾ [الأنعام : ٦٠]

إنّنا نرى أنّ الخطابَ موجّهٌ إلى النفس الساكنة في الجسد .. فكلمة ﴿ يَتَوَفَّىٰكُم ﴾ هي – كما نرى – خطابٌ للإنسان كنفسٍ مجرّدةٍ عن الجسد .. والصورة القرآنيّة التالية تُشير إلى هذه الحقيقة ..

﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ ...... ﴾ [الأنعام : ٩٣]

فالنفس الإنسانيّة هي الذات المُمتحنة في هذه الدنيا ، وهي التي ستُحاسَب في الآخرة

﴿ ۞ يَوۡمَ تَأۡتِى كُلُّ نَفۡسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا ﴾ [النحل : ١١١]

وقد بيّنا في النظريّة الثانية (القدر) أنّ الإنسان المُمتَحَن في الحياة الدنيا ، مكوَّنٌ من عنصرين هما النفس والجسد ..

الإنسان = نفس + جسد

.. إنّ النفس البشريّة هي التي تحسّ بالألم واللذّة ، وبوّاباتها إلى هذه الأحاسيس في عالم المادّة والمكان والزمان هي عناصر الجسد الحيّ .. وحينما تُغادر الجسدَ ، فإنّ

لأحاسيسها بوّاباتٍ أُخرى غير هذه البوّابات الماديّة ، لأنّها تكون قد انتقلت إلى عالمٍ آخر غير مادّي ..

فأثناء أحلامنا في النوم نحسّ باللذّة والألم ، على الرغم من أنّ الجسد لم يتعرّض لأيِّ مؤثّرٍ مادّيٍّ يؤدّي إلى تلك الأحاسيس .. وحين خضوعنا للتخدير الجراحي ، لا نحسّ بالألم على الرغم من تعرّض أجسادنا للعمل الجراحي ، وسبب ذلك أنّ أنفسنا كانت أثناء التخدير خارجَ أجسادنا ، وحين عودتها إلى هذه الأجساد بعد زوال تأثير مادّة التخدير ، يبدأ إحساس أنفسنا بالألم ..

.. إنّ ما نُريد قولَه هو أنّ النفسَ في المنام ترى دون آليّة العين الضوئيّة ، وتسمع دون آليّة الأذن السمعيّة ، وَ .... ، وما نريد قولَه أيضاً أنّ تعرّض الآليّات الماديّة لأحاسيسنا (أعضاء جسدنا) للعمليّات الجراحيّة أثناء للتخدير ، لا يُرافقه ألمٌ ، لأنَّ أنفسَنا التي تحسّ بالألم تكون خارجَ أجسادِنا .. وكلُّ ذلك أدلّةٌ عقليّةٌ على أنّ النفسَ جوهرٌ غير مادّي ، وتتفاعل مع عالم المادّة والحسِّ عبر الجسد الحيِّ الذي تسكنه ..

.. وممّا يؤكّد أنّ النفس مجرّدةٌ عن المادّة ، هو أنّنا أثناء النوم لا نحسّ بالزمان ولا بالمكان ..

.. إنّ الجسدَ الحيَّ بحياته ونبضه وحركة مكوّناته الداخليّة ، ليس أكثر من وعاءٍ للنفس ، وآليّةٍ ماديّةٍ لأحاسيسها في الدنيا .. والجسد يعمل — عبر الحركات الإراديّة — بأمر هذه النفس ، ويستجيب لشهواتها ورغباتها .. بالمقابل فإنّ النفسَ عندما تحلُّ في الجسد تُصبح محكومةً لإطار المادّة والمكان والزمان الذي ينتمي إليه الجسد .. فالعلاقة بين النفس والجسد تشبه — إلى درجةٍ ما — العلاقة بين السائل والوعاء الذي يحوي هذا السائل ، ففي حين أنّ السائل هو الذي يُعطي الوعاءَ قيمته الوظيفيّة ، فإنّ الوعاء يفرض على السائل شكلَه وتكوينَه داخل هذا الوعاء ..

.. ونحن لا ننكر — أبداً — العلاقة بين النفس والجسد ، فأثناء النوم تعود النفس إلى الجسد عند عتبة محدّدة من التأثير على هذا الجسد .. والتخدير الجراحي الذي يؤدّي إلى إخراج النفس من الجسد ، هو مادّة نضعها في هذا الجسد ..

.. ولكنّ هذا لا يُلغي الانفصال التامّ بين النفس والجسد ، اللذين ينتميان إلى عالمين متمايزين ، لكلٍّ منهما خصوصيّته الخاصّة به ، هما عالم ما فوق المادّة والمكان والزمـــان ، وعالم المادّة والمكان والزمان ..

.. هذه الزوجيّة بين النفس والجسد نراها تتجلّى في إدراكنا للأمـــور والأشـــياء في حياتنا ، عبر زوجين مختلفين من الإدراك ..

[١] – هناك مسائل نتصوّرها ككليّاتٍ مجرّدةٍ ، دون أن نستطيع تصوّر نقيضها ، ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال .. فعقلنا الذي يتصوّر الاثنين (كرقمٍ مجرّدٍ عن أيّ جزئيّـــة مادّيّة) أكبرَ من الواحد ، لا يمكنه تصوّر نقيض ذلك وهو أنّ الواحد أكبر من الاثـــنين ، وذلك في ساحة الكليّات المجرّدة عن الجزئيّات المادّيّة ..

.. هذا التصوّر يتبع – في النهاية – للنفس المجرّدة عن عالم الجزئيّات .. ولا يمكننـــا تصوّر هاتين المسألتين المتناقضتين إلاّ إذا أنزلناهما إلى عالم الجزئيّات (عالم المادّة والمكـــان والزمان) .. فالتفّاحة الكبيرة أكبر من تفّاحتين صغيرتين ..

.. ومن هذه الساحة (ساحة الكليّات المجرّدة عن الجزئيّات المادّيّة) التي تنتمي إليها النفس المجرّدة ، تنبع الإرادة التي يملكها الإنسان .. وقد رأينا في النظريّة الثانية (القَـــدَر) كيف أنّ تعلّق الإرادة(*) بالنفس المجرّدة عن عالم المادّة والمكان والزمـــان ، يتجلّـــى في كتاب الله تعالى عبر عدم تعلّق مسألتين متناقضتين بإرادةٍ واحدة ..

.. فلمّا كان اليُسرُ نقيضَ العسر ، فإنّنا نرى عدمَ عطفهما علـــى إرادة واحـــدة ، وبالتالي نرى تكرار كلمة **﴿ يُرِيدُ ﴾** في قولِه تعالى :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]

وكذلك الأمر بين الحرج والتطهير :

(*) كنّا قد عرّفنا الإرادة في النظريّة الثانية (القَدَر) بأنّها : القصد والهدف والغاية ، وأنّها دون الأخذ بالأسباب ، وتتحوّل إلى مشيئة بعد تحقيق الهدف المُراد من خلال التفاعل مع الأسباب المادّيّة ..

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦]

.. وكذلك الأمر بين السوء والرحمة :

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ [الأحزاب : ١٧]

.. أمّا إذا كانت المسألتان غير متناقضتين ، فمن الممكن عطفهما على إرادةٍ واحدة .. فالتبيان والهداية مسألتان ليستا متناقضتين .. بل متكاملتين ، ولذلك يُمكن تعلّقهما بإرادة واحدة :

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء : ٢٦]

.. وكذلك الأمر بين التطهير وإتمام النعمة :

﴿ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : ٦]

.. وكذلك الأمر بين إيقاع العداوة والبغضاء وبين الصدِّ عن ذكر الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١]

.. وهكذا .. فالعقل المجرّد والإرادة ، يتبعان للنفس المجرّدة عن الجسد وعن عالم الجزئيّات المتناقضة ..

[٢] – الجزئيّات المادّيّة نستطيع تصوّرَها وتصوّرَ نقيضِها في الوقت ذاته .. فتصوّرنا أنّ انخفاض درجة الحرارة يؤدّي إلى تقلّص أقطار الجسم ، لا يمنع من تصوّرنا نقيض ذلك ، وهو أنّ انخفاض درجة الحرارة يؤدّي إلى تمدّد أقطار الجسم ، فنحن نعلم أنّ الماء في الدرجة (+٤) مئويّة ، تبدأ أقطار جسمه بالتمدّد مع انخفاض درجة الحرارة ..

هذا التصوّرُ الذي يحمل المتناقضات في الوقت ذاته ، يتبع في النهاية إلى تفاعل النفس المجرّدة (بعد حلولها في الجسد المادّيِّ الذي ينتمي إلى عالم المتناقضات) مع عالم الجزئيّات الذي يحوي المتناقضات ، وهو ذاته التصوّر الذي أنزلناه من ساحة الكليّات المجرّدة إلى ساحة الجزئيّات المتناقضة ، حينما تصوّرنا التفّاحة الكبيرة أكبر من تفّاحتين صغيرتين ، بعد عجز تصوّرنا العقلي المجرّد في ساحة الكليّات عن تصوّر الواحد أكبر من الاثنين ..

وساحةُ الجزئيّات المتناقضة هذه هي – كما رأينا في النظريّة الثانية (القدر) – ذاتها ساحة المشيئة .. فقد رأينا كيف أنّه – في القرآن الكريم – من الممكن ارتباط المشيئة الواحدة بمسألتين متناقضتين ..

.. فبسطُ الرزق هو نقيض التضييق فيه ، وعلى الرغم من ذلك نرى تعلّق هاتين المسألتين المتناقضتين بمشيئة واحدة :

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ ﴾ [الرعد : ٢٦]

.. وكذلك الأمر في مسألتي المحو والإثبات :

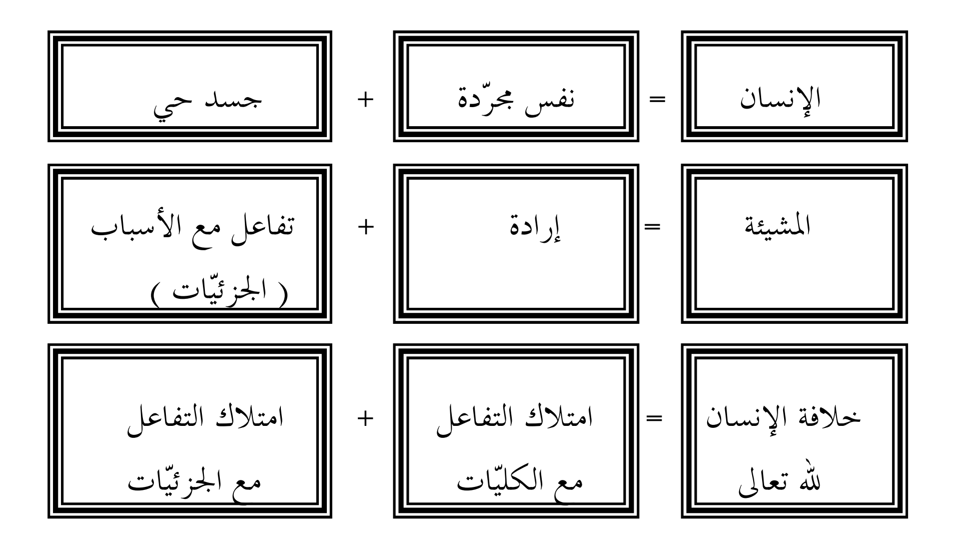
﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [الرعد : ٣٩]

.. وكذلك الأمر في مسألتي التقدّم والتأخّر :

﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدّثّر : ٣٧]

.. ولذلك عرّفنا المشيئة بأنّها : تفاعل الإرادة النابعة من النفس المجرّدة ((والتي تنتمي إلى ساحة الكليّات المجرّدة عن الجزئيّات المتناقضة)) مع الأسباب (الجزئيّات المتناقضة) في عالم المادّة والمكان والزمان (عالم الجزئيّات) .. وبالتالي فحمل المشيئة للمتناقضات في الوقت ذاته ، يتبع لعالم الأسباب (عالم الجزئيّات) الذي هو ساحة تفاعل هذه المشيئة ..

.. وهكذا نرى التوازي التامَّ بين المعادلات التالية ..



.. فتفاعلنا — في الحياة الدنيا — مع أيِّ مسألةٍ ، يكون إرادةً بإدراك الكليّة المجرّدة المرتبطة بهذه المسألة ، عبر تصوّر الهدف والقصد والغاية تجاه هذه المسألة .. ويكون مشيئةً بالعمل من خلال الجزئيّات المادّيّة (الأسباب) لتحقيق هذه الكليّة في عالم المادّة والمكان والزمان ..

.. والإنسان — في حياته الدنيا — يملك إرادةً مستقلّةً خاصّةً به ، تنبع — كما رأينا في النظريّة الثانية (القَدَر) — من نفسه المجرّدة عن عالم المادّة والمكان والزمان .. وهذه الإرادة قد تختلف عمّا يريده الله تعالى ، فقد يريد شيئاً — أو أمراً — لا يريده الله تعالى ..

﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [الأنفال : ٦٧]

.. ولكن .. هذه الإرادة المستقلّة الخاصّة بذات الإنسان ، سواءٌ التي توافق ما يريده الله تعالى ، أم التي تخالف ما يريده الله تعالى .. هل يستطيع الإنسان تنفيذها في عالم المشيئة عبر تفاعل إرادته مع الجزئيّات (الأسباب) دون أن تكونَ هذه الأسباب مسخّرةً بين يديه ؟ .. بالطبع لا يستطيع إلاّ بتسخير الجزئيّات المادّيّة (الأسباب) بين يديه ..

.. ولمّا كانت هذه الجزئيّات المادّيّة مخلوقةً لله تعالى ، وهي بحاجةٍ — كما رأينا — في كلِّ لحظةٍ لله تعالى حتى يعطيها حيثيّات وجودها في هذا العالم الحسّي لكي تقومَ فيه ، ولمّا كانت هذه الجزئيّات (الأسباب) مسخّرةً من الله تعالى لتحقيق مرادنا ، فإنّ مشيئتنا لا

تخرج – أبداً – عن إطار مشيئة الله تعالى ، فلولا الجزئيّات الماديّة المسخّرة بين أيدينا ، ما استطعنا تجسيد إرادتنا إلى مشيئة في عالم الجزئيّات (عالم المادّة والمكان والزمان) الـــذي نُمتحَن فيه ..

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الإنسان : ٣٠]

﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٩]

.. والقرآن الكريم يُشير إلى عنصري الإنسان (النفس ، الجسد) ، وذلك حســب السياق القرآني الذي يصف هذا الإنسان .. ففي بعض المواقع يُلقي القرآن الكريم الضــوءَ على خلق الإنسان النفس ، وفي مواضع أُخرى يُلقي الضوءَ على الإنسان الجسد ..

.. إنّ مسألة خلق الإنسان النفس ، قبل خلق الجسد ، نراها بشكلٍ جليٍّ في الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ [الأعراف : ١١]

.. الخطاب – كما نرى – يصف البشريّة جمعاء ، فأفراد البشريّة جمعاء يخاطبهم الله تعالى مبيّناً لهم أنّه خلقهم كأنفس **﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾** .. بعد ذلك تمّ إعطاء هذه الأنفس صورها الخاصّة بها **﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾** .. بعد ذلك أتى الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام **﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾** .. وهو الأمر الذي سبق خلق الجسد الماديّ لآدم **﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾** [الحجر : ٢٨ – ٢٩]

.. لقد ذهب الكثيرون إلى أنّ العبارة القرآنيّة **﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ﴾** تعني آدم عليه السلام لوحده (كجسد) ، وكذلك العبارة **﴿ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾** .. نقـــول : إنّ خلـــق

جسد آدم عليه السلام تمّ – كما يؤكّد القرآن الكريم – بعد الأمر الإلهي بالسجود لآدم ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ .. بينما نرى أنّ هاتين العبارتين تصوّران مرحلتين تمّتا قبل الأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ ، وهذا يُناقض تماماً ما يذهبون إليه ... هذا بالإضافة إلى أنّ العبارة القرآنيّة ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ﴾ ترد – كما نرى – بصيغة الجمع (لتشمل البشريّة جمعاء) ، وأنّ العبارة القرآنيّة ﴿ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾ خاصّة بآدم عليه السلام وحده ..

.. وهكذا فالإنسانُ – كنفس – موجودٌ في عالم الكليّات ، وذلك قبل ولادته في عالم الجزئيّات (عالم المادّة والمكان والزمان) .. وبعد موته تعود نفسه إلى عالمها ، ويبقى جسده المادّي في هذا العالم ليتحلّل إلى جزئيّاته ، ويعود إلى التراب ..

.. وأشار القرآن الكريم إلى الإنسان النفس ، كذاتٍ مجرّدةٍ عن علائق الجسد ، وعن عالم الجزئيّات ..

﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ ۚ سَأُو۟رِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾ [الأنبياء : ٣٧]

﴿ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ [المعارج : ١٩- ٢١]

.. فعجلة الإنسان ، واستعجاله لمعرفة الغيب ، وهلعه ، وجزعه من الشرّ .. كلّ ذلك صفاتٌ سلبيّةٌ ، تتبع للنفس المجرّدة عن الجسد المادّي ..

.. وأشار القرآن الكريم إلى الإنسان الجسد ، المُمتَحَن في عالم الدنيا ، في العديد من آياته الكريمة ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ [الأنعام : ٢]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦]

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ٤]

﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ [نوح : ١٧]

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ٢]

.. إذاً علينا – حينما نقرأ القرآن الكريم – أن نُميِّزَ في المُراد الإلهي بين الإنسان النفس ، وبين الإنسان الجسد ، تمييزاً معياره القرآن الكريم ، حتى لا تختلط علينا المسائل ، وحتى نُدرك مُراد الله تعالى في كتابه الكريم إدراكاً سليماً .. وهذا يُوازي تمييزنا بين الإرادة والمشيئة ، ففي حين أنّ الإرادة ترتبط بالإنسان النفس ، فإنّ المشيئة ترتبط بالإنسان (نفس + جسد) ..

.. وهذه الزوجيّة (نفس مجرّدة + جسد حي) لا تُوجد إلاّ في الإنسان .. فالحيوانات تملك أجساداً حيّةً وغريزةً فَطَرَها اللهُ تعالى عليها ، ولكنّها لا تملك نفساً مجرّدةً ، وبالتالي لا تملك إرادةً ولا عقلاً ، وبالتالي تتفاعل مع الجزئيّات فقط ، دون أن تتفاعل مع الكليّات .. فتفاعلها مع الجزئيّات من أكلٍ وتمتّعٍ ، لا تستطيع أن تنطلق منه نحو إدراك الكليّات الكامنة وراء هذه الجزئيّات ..

.. وقد بيّن القرآنُ الكريمُ بشكلٍ جليٍّ أنّ النفسَ خاصّةٌ – من بين المخلوقات – بالإنسان .. ففي قولِه تعالى : **﴿ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾** [المائدة : ٣٢] .. لو كانت الذبابةُ نفساً ، لكان حُكمُ من يقتُلُها كحكم من يقتل الناس جميعاً .. فقولُه تعالى **﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا ﴾** ، يشملُ أيَّ نفسٍ ، وقولُه تعالى : **﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾** ، يُؤكّدُ أنّ النفسَ خاصّةٌ بالإنسان ، وبالتالي فمن يقتل إنساناً فكأنّما قتل الناس جميعاً ..

.. وقولُه تعالى ﴿ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [يوسف : ٥٣] .. يُؤكّدُ حقيقةَ ما نذهبُ إليه ، فالحيوان تحكمه الغريزة ، ولا يُوجد عنده أمرٌ بالسوء ولا بغير السوء ..

وقولُه تعالى ﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾ [ق : ٢١] ، يؤكّد – أيضاً – صحّةَ ما نذهبُ إليه ، فالحيوانات لا تجيءُ يوم القيامة مع كلٍّ منها سائقٌ وشهيد ..

أمّا بالنسبة لعالم الجنّ ، فكائناته مخلوقةٌ من النار كما يؤكّد القرآن الكريم ..

﴿ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٧]

﴿ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴾ [الرحمن : ١٥]

وصفات الجانّ تتبع لصفات النار ، كما أنّ صفات الإنسان (الجسد) تتبع لصفات الطين والتراب .. فالسرعة عند الجانّ عاليةٌ تُقارن بسرعة الضوء ، وماهيّة الخلق عند الجانّ تتحمّل هذه السرعة ، لأنّ الجانَّ مخلوقٌ من النار .. بينما السرعة عند الإنسان هي ضمن حدود ما يتحمّله جسمه ، فلا يستطيع الإنسان الانطلاقَ في الفضاء بسرعاتٍ عاليةٍ (مقارنةً مع سرعة الضوء ومع السرعة التي يتحرّك بها الجانّ) ، لأنّ جسم الإنسان – حينئذٍ – يقترب من التحوّل إلى طاقة ، وبالتالي تتغيّر صفات الجسم تغيّراً لا يتحمّله الإنسان ..

.. وعالم الجانّ عالمٌ مستقلٌّ لا يمكننا أن نقارنَه بعالم الإنسان ، لا من حيث ماهيّة الخلق ، ولا من حيث الصفات ، ولا من حيث طبيعة التكليف (كما سنرى في الفصل الثاني) .. وما بين العالَمَين تُوجد مقابلةٌ في التسميات القرآنيّة ، ففي حين أنّ الكلمات (الإنسان ، الإنس ، الناس) تصف عالم الإنس ، فإنّ الكلمات (الجانّ ، الجنّ ، الجِنّة) تصف عالم الجنّ ..

.. واستقلاليّة الخلق بين عالمي الإنس والجنّ ، ليست فقط في ماهيّة الخلق وفي الصفات وفي طبيعة التكليف ، إنّما تتعدّى إلى الترتيب في زمنِ الخلق .. فالجانّ مخلوقٌ من النار قبل الإنسان الذي خُلِق فيما بعد ..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٦ – ٢٧]

.. وهذا الاستقلال في الخلق ليس فقط في الدنيا ، إنّما سيستمرّ في الآخرة ، فالجانُّ سيبقى جانّاً ، والإنسُ سيبقى إنساً ..

﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت : ٢٩]

﴿ فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : ٥٦]

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : ٧٤]

.. ولّما كان جسمُ الإنسان مكوَّناً في النهاية من ذرّاتٍ ، ولّما كانت الذرّة عبارةً عن طاقةٍ مُختزلةٍ في حيّز المكان الذي تشغله الذرّة ، فإنّ تحرير الطاقة من ذرّات جسم الإنسان يعني تحويلَ هذا الجسم من حالة الوقود إلى حالة الطاقة (النار) .. بينما في عالم الجنّ نرى أنّ ماهيّة الخلق هي أصلاً من النار ، وبالتالي لا يمكن اعتبار الجانّ وقوداً ، لأنّه – أصلاً – طاقةٌ من النار .. هذه الحقيقة يصوّرها القرآن الكريم في الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ ﴾ [البقرة : ٢٤]

﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦]

.. فلو أتى النصُّ القرآنيُّ على الشكل (وَقودُها الجنّ والناس والحجـــارة) ، لكـــان الجانُّ مخلوقاً من ماهيّة الوقود الذي يتحوّل إلى طاقة (نار) ، ولتنافى ذلك مـــع الآيـــاتِ الكريمة التي تؤكِّد أنّ الجانّ مخلوقٌ من النار ..

.. وما بين عالمي الإنس والجنِّ ، كعالمين مستقلّين في الخلـــق والصـــفات وطبيعـــة التكليف ، يبرز مفهوم الشيطان الذي يتعلّق بهذين العالمين على حدٍّ سواء .. فمـــا هـــو الشيطان ؟ .. وما علاقته بعالمي الإنس والجنّ ؟ ..

.. إنّ الملائكة ككائناتٍ نورانيّة لها وجودها وعالمها المستقلّ ، هي كائناتٌ لا تعصي الله تعالى أبداً .. أمّا الملائكة كصفةٍ تعني الانصياعَ الكاملَ لأمرِ الله تعالى وعدمَ عصيانه ، فتقابلها صفة الشيطان التي تعني التمرّدَ على أمر الله تعالى ، وعصيانَه ..

.. وصفةُ الشيطان هذه تمثّلها مئة بالمئة إبليس ، الفرد الذي ينتمي إلى عالم الجـــنّ ، والذي كان قبل تمثّله لهذه الصفة متّصفاً بصفة الملائكة .. فعصيان الله تعالى في حضـــرته ومن موقع صفة الملائكة ، يعني تمثّل صفة الشيطان تمثّلاً كاملاً ..

.. لا شكّ أنّ إبليسَ فردٌ من أفراد عالم الجنّ ، ولكنّه حتى تلك اللحظة التي أمرَ اللهُ تعالى بها الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ، كان يتّصف بصفة الملائكة ، لأنّه لم يعصِ اللهَ تعالى أبداً قبل ذلك ، بدليل أنّ الله تعالى استثناه من الملائكة ..

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف : ٥٠]

.. فقوله تعالى **﴿ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾** يؤكِّد أنّ إبليسَ كان قبل هذه المعصية ليس فاسقاً عن أمر ربّه ، وبالتالي منصاعاً لأمر الله تعالى ، وبالتالي متّصفاً بصـــفة الملائكـــة .. وبعد معصيته هذه اتّصف بصفة الشيطان ، التي تناقض تماماً صفة الملائكة ..

.. وتمثّل إبليس لصفة الشيطان تمثّلاً كاملاً — بعد معصيته — مسألةٌ نراهـــا نتيجـــةً طبيعيّةً ، وذلك وفق منظارين ..

المنظار الأوّل : إبليس ينتمي إلى عالم الجنّ (عالم الماهيّة الناريّة) .. وفي عالمه هذا لا تُوجد – كما تُوجد عند عالم الإنس – الزوجيّة بين ماهيّتي النفس والجسد ، وبالتالي فالمشيئة التي يمتلكها الإنسان والتي تمكّنه من التفاعل مع الجزئيّات ، عبر تسخير الله تعالى للأسباب بين يديه لتحقيق مُراد نفسه ، غيرُ موجودة عند عالم الجن .. فما هو موجود في ذوات كائنات عالم الجنّ هو الإرادة التي لا تتحوّل – في الحياة الدنيا – إلى مشيئة .. فكائنات عالم الجنّ تملك قدرةً على التفاعل مع الكليّات ، دون التفاعل مع الجزئيّات ..

.. وعظمة البيان الإلهي تُبيِّن هذه الحقيقة بشكلٍ جليٍّ .. فلا يُوجد نصٌّ قرآنيٌّ يُبيّن أنّ عالم الجنّ والشيطان (الذي تمثّل صفته إبليس تمثّلاً كاملاً) يملك مشيئةً .. في حين يُبيّن لنا القرآن الكريم أنّ للشيطان إرادة ..

﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠]

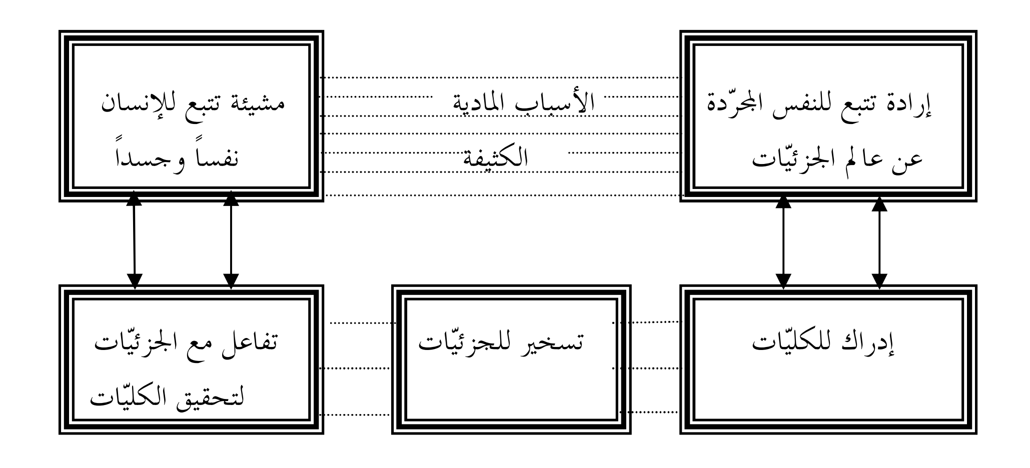
﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة : ٩١]

.. فصفةُ عالم المتناقضات (عالم الجزئيّات) الذي ينتمي إليه الجسد ، والذي تستخدمه النفس البشريّة في تحقيق إرادها الواحدة بأسباب متناقضة ، هذه الصفة (التي تختلف عن صفة عالم النار الذي ينتمي إليه الجانّ) هي سبب جعل تحقيق إرادة الإنسان (في عالم الأسباب) أقرب إلى المتناقضات في الوقت ذاته ، مقارنةً مع تحقيق إرادة الجانّ ..

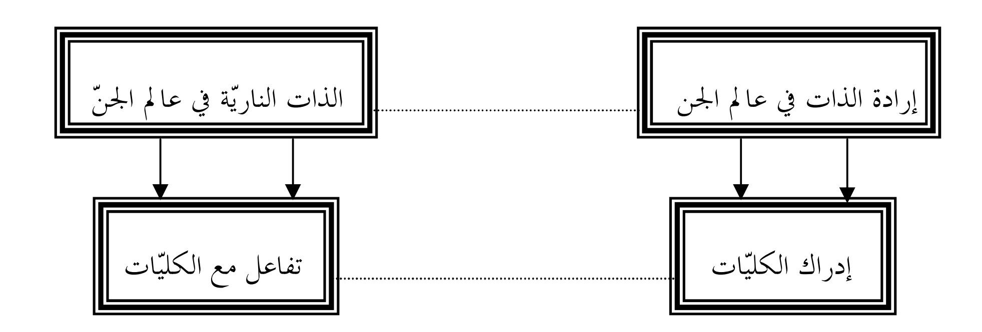
.. وهذا الاختلاف بين صفة عالم النار بالنسبة للجانّ ، وبين صفة عالم التراب (عالم الجزئيّات المتناقضة) بالنسبة للجسد الحاوي للنفس البشريّة ، يقتضي مسألةً أُخرى تُوصِل إلى النتيجة السابقة ذاها .. فالنفس البشريّة ذاتٌ مجرّدةٌ عن الزمان والمكان ، تخضع – حين مزاوجتها مع الجسد – لقانون الزمان والمكان الثقيل كثيراً (مقارنةً مع عالم النار) ، وبالتالي فإمكانيّة التراجع عن الخطأ ، أو الدخول في الخطأ ، مسألةٌ فرصتها في الظهور أكبر بكثير ممّا هي في عالم الجانّ ..

بينما في عالم الجانّ ، لا ازدواجيّة من عالمين مختلفين — كما هو الحال في ازدواجيّة النفس والجسد عند الإنسان — وماهيّة الخلق أكثر شفافيّة ، وأكثر بعداً عن التحرّك بين المتناقضات ، حيث لا مشيئة أصلاً ، وبالتالي أكثر بعداً عن التراجع في تمثّل الخطأ والصّح .. فالفرد من عالم الجنّ فرصته في التراجع عن الخطأ والعكس ، أقلّ ممّا هي عند الإنسان ، وغوصُه في جانبي الخير والشرِّ هو بمسافةٍ أوسع ممّا هي عند الإنسان ..

.. وهذه الماهيّة الأكثر شفافيّة التي تميّز خلق الجنّ (مقارنةً مع خلق الإنسان) ، تقتضي شفافيّةً أكبر ومسافةً أقلّ ما بين المقدّمات والنتائج .. فالمعصية في عالم الجنّ تُعطي في جانب الشرّ تمثّلاً لصفة الشيطان أكبر ممّا هو في عالمٍ أقلّ شفافيّة كعالمنا ، لأنّ المُراد كقيمةٍ معنويّةٍ — سواءٌ للذات من عالم الجنّ أم للنفس البشريّة المجرّدة — أقرب بكثير إلى الماهيّة الناريّة ، مقارنةً مع الماهيّة الترابيّة ..



(في عالم الإنس)



(في عالم الجن)

.. هذه الحقيقة في المقارنة بين عالمي الإنس والجنّ ، نراها واضحةً تماماً في رحلة إبليس من صفة الملائكة إلى صفة الشيطان .. فإبليس في عالم الكليّات والذي كان يتّصف بصفة الملائكة ، كان أقرب ما يكون إلى معرفة حقيقة المعصية ، وبالتالي نقلته معصيته لله تعالى من صفة الملائكة إلى صفة الشيطان نقلةً واحدةً ، بل وإلى تمثّل صفة الشيطان تمثّلاً كاملاً لا رجعة فيه ، بدليل طرده نهائيّاً من رحمة الله تعالى ..

.. من هنا نرى أنّ فارق التكليف بين عالمي الإنس والجنّ ، يتبع لفارق الخلق بين العالمين ، وللازدواجيّة بين النفس والجسد التي يتّصف بها الإنسان ، وغير الموجودة عند الجان ..

.. وهذا الفارق في ماهيّة الخلق بين عالمي الإنس والجنّ ، أشار إليه القرآن الكريم ..

﴿ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ [النمل : ١٠]

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ ﴾ [القصص : ٣١]

.. فاهتزاز عصا موسى عليه السلام بحيثيّة أدّت به إلى أن يُولّي مُدبراً و لم يُعقّب ، شبهه الله تعالى بالماهيّة الناريّة لعالم الجنّ ، من زاوية رؤيتنا لمحاولة تشكّلها المادّي في عالمنا .. فالجانُّ لا يستطيع أن يتخلّى عن طبيعته الناريّة ، وإن حاول التشكّل في عالمنا الكثيف ماديّاً ..

.. ومسألة عدم التخلّي عن ماهيّة الخلق ، نراها في معيارٍ آخر ، هو تشكّل الملائكة (ككائنات نورانيّة) في عالمنا المادّيِّ .. فالملائكة لها ماهيّتها الخاصّة بها ، ولا تفقد ماهيّتها حتى وإن تشكّلت بصور عالمنا المادّي ..

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ۝٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود : ٦٩ - ٧٠]

ففي قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ ﴾ ، نرى إدراك إبراهيمَ عليه السلام لتمايز ماهيّة خلْقِ ضيوفه (الملائكة) ، عن ماهيّة خلقِ غيرهم من ضيوفه البشر ..

.. ويبيّنُ اللهُ تعالى هذا الفارق بين الماهيّتين من خلال اختلاف صيغة مخاطبة السلام المتبادلة ما بين الملائكة (ضيوف إبراهيم عليه السلام) وما بين إبراهيم عليه السلام : ﴿

قَالُواْ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ ﴾ .. فهم قالوا : ﴿ **سَلَـٰمًا ۖ** ﴾ ، وهو قال : ﴿ **سَلَـٰمٌ ۖ** ﴾ .. وهنا تكمنُ عظمةُ الصياغة القرآنيّة التي تُصوّرُ الأحداث كما هي تماماً ، تصويراً مُطلقاً يتعلّقُ بعظمةِ القائل سبحانه وتعالى ..

.. فإبراهيم عليه السلام ردّ عليهم قائلاً ﴿ **سَلَـٰمٌ ۖ** ﴾ ، بمعنى : سلامٌ عليكم ، أو : أمري سلامٌ .. أي أنّه عليه السلام نطق هذه الكلمة ﴿ **سَلَـٰمٌ ۖ** ﴾ بحرفيّتها كما هي تماماً .. بينما هم حينما خاطبوه بتحيّة السلام ، لم يخاطبوه بنطق هذه الحروف ذاتها ، فقد خاطبوه بماهيّة تُعطيه السلام والطمأنينة والهدوء .. فقوله تعالى الذي يصف صيغةَ مخاطبتهم ﴿ **قَالُواْ سَلَـٰمًا ۖ** ﴾ ، يحملُ معنى : أنّهم أعطوه الطمأنينة والأمان بما يحمل له السلام ..

وهذه المسألة وردت أيضاً في قولِه تعالى :

﴿ **إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ** ﴾ [الذريات : ٢٥]

.. وخاطبه ضيوفه من الملائكة بهذه الطريقة مرّة أُخرى :

﴿ **إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ** ﴾ [الحجر : ٥٢]

وقد بيّن الله تعالى مسألة تمايز الماهيّة بين عالم الخلق والعوالم الأخرى ، حينما صوّر لنا إرسال جبريل عليه السلام (الروح الأمين) إلى مريم عليها السلام ..

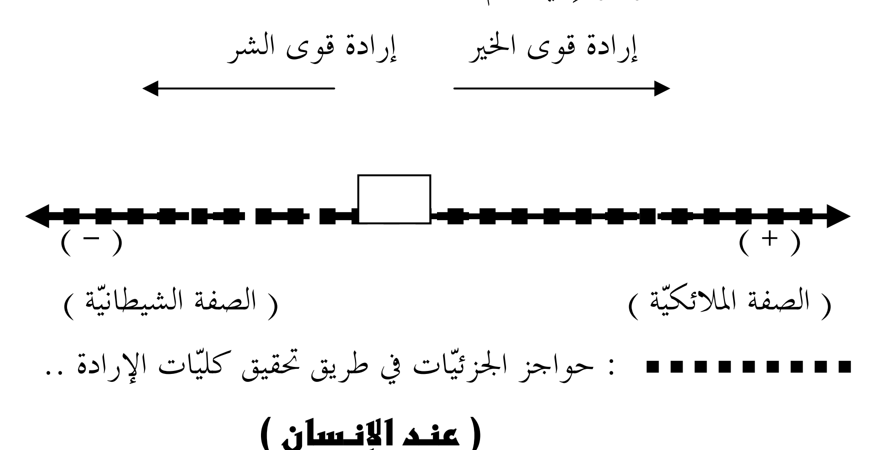
﴿ **فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴾ [مريم : ١٧]

.. فالتمثّل هنا كان بشريّاً تامّاً : ﴿ **فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴾ ، وليس كتشكّل الملائكة بالصور البشريّة حينما أتت إبراهيم عليه السلام وأوجس منهم خيفةً كما رأينا .. فكلمة : ﴿ **فَتَمَثَّل** ﴾ ، تعني الاقترابَ من الصورة البشريّة ، ولا تعني أبداً التحوّل إلى الماهيّة البشريّة ..

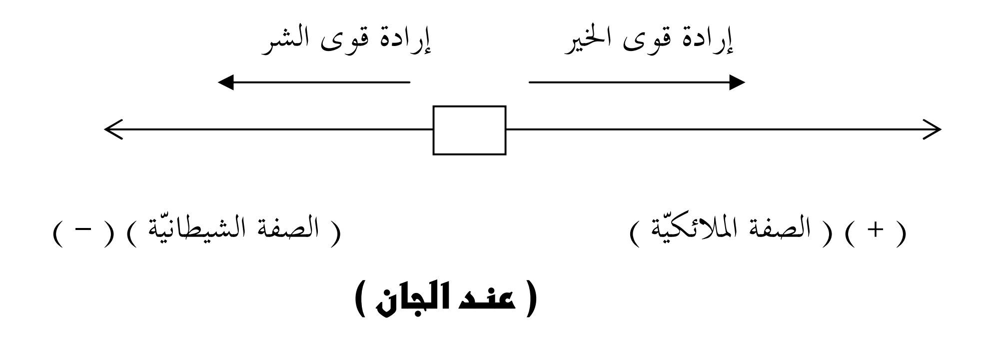
.. والسَّامريُّ بفتنته التي قام بها في بني إسرائيل ، إنّما بَصُرَ ما لم يُبصرْهُ غيرُه ، فالقبضةُ التي قَبَضَها من أثرِ الرسول كماهيّة تنتمي للعوالم الأُخرى ، لها مُعجزتُها وماهيّتها المتميّزة عن ماهيّة عالم الخلق المحسوس الذي يعيشُه من فُتنوا بفتنته ..

﴿ قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٞ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمۡ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ .... قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ يَبۡصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضۡتُ قَبۡضَةٗ مِّنۡ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذۡتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ لِي نَفۡسِي ﴾ [طـه : ٨٧ – ٩٦]

.. وهكذا فالانتقال من مرتبة من مراتب الوجود إلى مرتبةٍ أُخرى ، يُؤدّي إلى تغيّر ماهيّة النواميس التي تنضبط وفقها مكوّنات كلّ مرتبة من هذه المراتب .. فبالانتقال من الماهيّة الترابيّة الكثيفة عند الإنسان إلى الماهيّة الناريّة الأكثر شفافيّة عند الجانّ ، يتمّ الابتعاد عن قانون الزمان والمكان الكثيف (عالم الجزئيّات) ، ممّا يؤدّي إلى اتّساعٍ أكبر بين رأسي محور الخير والشرّ .. وإنّ عدم امتلاك المشيئة – بالنسبة لعالم الجان – يُقلّل كثيراً من فرملة قوى الشرّ والخير في ذلك العالم ، لأنّ الجزئيّاتِ كحواجز تُعيق – نسبيّاً – تحقيقَ المُراد ، غيرُ موجودةٍ في عالم الجانّ ..



(عند الإنسان)



(عند الجان)

.. هذا الاتّساع ما بين نهايتي محور قوى الخير والشرّ بالنسبة لعالم الجنّ مقارنةً مع عالم الإنس ، للإرادة ذاتها ، نتيجة شفافيّة ماهيّة عالم الجنّ بالنسبة لعالم الإنس ، ونتيجة عدم وجود حواجز الجزئيّات أمام تحقيق المُراد كما هو عند عالم الإنس .. نراه اتّساعاً كاملاً بالنسبة لعالم الملائكة (الأكثر شفافيّة من عالم الجن) ، وفي الجانب الإيجابي فقط ، لأنّ الملائكة لا تملك إرادة شريرة ..

(الصفات الملائكية)

(+) •

المنظار الثاني : تمثُّلُ إبليس تمثّلاً كاملاً لصفة الشيطان ، نراه من منظارٍ آخر هو طرده طرداً نهائيّاً من رحمة الله تعالى ، وتوعّده بإغواء البشريّة إلى يوم الدين ، واستحالة أيّ احتمالٍ لتوبته وعودته إلى الحقّ ..

﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ﴾ [الأعراف : ١٨]

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص : ٨٥]

وفي الوقت ذاته نرى أنّ إمكانيّة التوبة (في عالم الإنس) مفتوحةٌ حتى أمام أكثر الناس معصية ، فحتى فرعون أعلن تراجعه في اللحظة الأخيرة ، ولكنّها اللحظة التي لا

تنفع فيها التوبة ، وهي ذاتها اللحظة قبيل ترك النفس البشريّة للجسد المادّي الذي تُمتَحَن خلاله في حياتها الدنيا ..

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩٠ – ٩١]

.. ووجود إبليس الذي يتمثّل صفة الشيطان ، في هذه الدنيا ، حيث تركه الله تعالى إلى يوم البعث ، هو من أجل امتحان الله تعالى للبشر ، عبر تفاعلهم مع غواية إبليس ، ومع محاولته إبعادهم عن صراط الله تعالى المستقيم ، وليس من أجل امتحانه هو ، فمصيره محسومٌ ، وليس كمصير أفراد عالمي الإنس والجنّ المرتبط بعملهم والتزامهم بمنهج الله تعالى ..

.. من هنا نستشفّ حقيقة التناظر بين ورود كلمة الشيطان في القرآن الكريم ، وبين ورود كلمة الملائكة فيه ، حيث ترد كلُّ كلمةٍ منهما (٦٨) مرّة .. فتمثُّل إبليس تمثّلاً كاملاً لصفة الشيطان ، وتأخيره إلى يوم القيامة ، تقابله تماماً – من زاوية الخير والشرّ – الملائكة ككائناتٍ نورانيّة لا تعصي الله تعالى أبداً ..

.. أمّا الصفة الشيطانيّة (كلمة الشيطان ومشتقّاتها) فتقابلها تماماً الصفة الملائكيّة (كلمة الملائكة ومشتقّاتها) .. ولذلك نرى أنّ كلمة الشيطان ومشتقّاتها ترد في كتاب الله تعالى (٨٨) مرّة ، وأنّ كلمة الملائكة ومشتقّاتها ترد أيضاً (٨٨) مرّة ..

.. وكلمة إبليس هي اسم الذات لهذا الفرد ، بدليل أنّ الله تعالى حينما خاطبه بأداة النداء خاطبه بهذا الاسم بالذات ..

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٣٢]

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ [ص : ٧٥]

وهكذا .. فصفة الشيطان هي صفةٌ معنويّةٌ (غير ماديّة) ، والنفس البشريّة – كما رأينا – مجرّدةٌ عن المادّة أيضاً .. ولذلك فعظمة البيان الإلهي تبيّن لنا أنّ مسألتي التسويل

والوسوسة – كمسألتين معنويّتين غير ماديّتين – لا ترتبطان إلاّ بالشيطان وبالنفس البشريّة ، فكلاهما (الشيطان والنفس البشريّة) لا ينتميان إلى عالم المادّة الكثيف الذي تنتمي إليه أجسادُنا .. وها هي جميع مشتقّات هاتين المسألتين في القرآن الكريم ..

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأعراف : ٢٠]

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف : ١٨]

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ﴾ [يوسف : ٨٣]

﴿ وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴾ [طـه : ٩٦]

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [طـه : ١٢٠]

﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٥]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق : ١٦]

﴿ ..... مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤ – ٦]

.. وهكذا نرى – كما رأينا في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) – أنّ الوجودَ في الكون (مخلوق وغير مخلوق) يتكوّن من المراتب التالية :

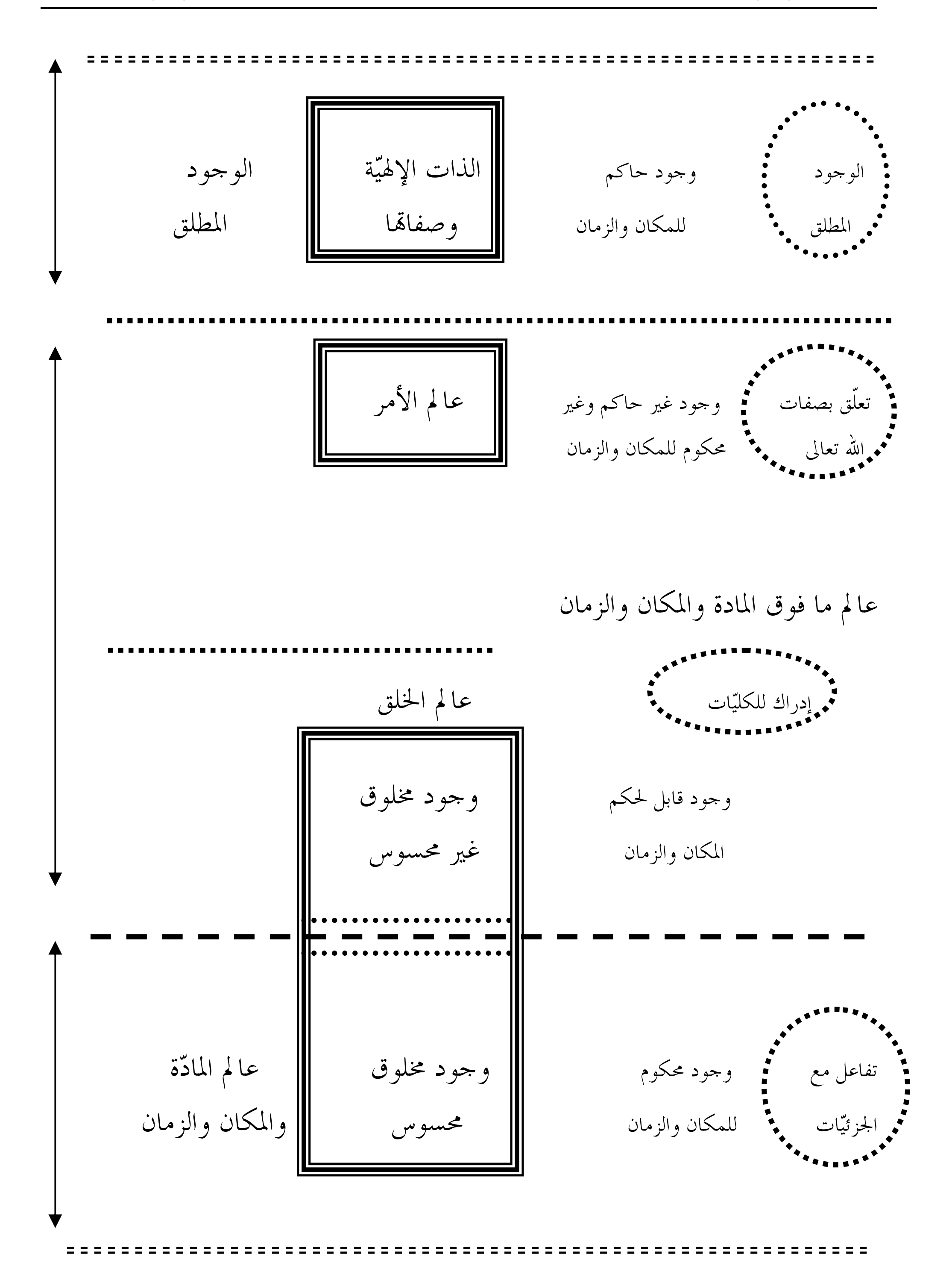
[١] – الذات الإلهيّة وصفاتها : وهو وجودٌ مطلقٌ غيرُ محكومٍ للمكان والزمان ، وحاكمٌ للزمان والمكان ..

[٢] – عالم الأمر (كالروح والقرآن الكريم) : وهو وجودٌ غيرُ محكومٍ للمكان والزمان ، وفي الوقت ذاته ليس حاكماً للمكان والزمان ..

[٣] – عالم الخلق : وينقسم إلى قسمين :

أ – وجود مخلوق غير محسوس (كالنفس البشريّة) ، وعلى الرغم من أنّه متحرّرٌ من المكان والزمان ، إلاّ أنّه يخضع للمكان والزمان حينما يُؤطَّر بجزئيّات المادّة في عالم المـــادّة والمكان والزمان ..

ب – وجود مخلوق محسوس ، وهو وجود محكـــوم لقـــوانين المكـــان والزمـــان ، كأجسادنا الماديّة ..


الوجود المطلق
وجود حاكم للمكان والزمان
الذات الإلهيّة وصفاتها
الوجود المطلق
تعلّق بصفات الله تعالى
وجود غير حاكم وغير محكوم للمكان والزمان
عالم الأمر
عالم ما فوق المادة والمكان والزمان
إدراك للكليّات
عالم الخلق
وجود قابل لحكم المكان والزمان
وجود مخلوق غير محسوس
تفاعل مع الجزئيّات
وجود محكوم للمكان والزمان
وجود مخلوق محسوس
عالم المادّة والمكان والزمان

.. بعد هذا التبيان لمراتب الوجود ، لا بُدّ من الوقوف عند مسألةِ ما يُسمّى بالمجاز (في القرآن الكريم) ، وهو ما أطلقوا عليه : استخدام الألفاظ في غير المعنى الذي وُضِعَت له ..

.. لقد خُلِقَ مفهوم المجاز — هذا — من قِبَلِ بعض المفسّرين نتيجةَ إسقاط تصوّرات جزئيّات عالم الوجود المخلوق المحسوس على غيره من العوالم الأُخرى في الوجود .. فبدلاً من اعتبار المعنى المُجرّد للكلمة القرآنيّة (من منظار علم الله تعالى لحقيقة ما تصفه وتسمّيه هذه الكلمة) معياراً وأساساً تُسقَط عليه المعاني الحسيّة التي نُدركُها .. بدلاً من ذلك ، تمّ — في مسألة المجاز — اعتبار ما نُدركُهُ من صُوَر العالم الحسّي المخلوق معياراً لغيره من العوالم الأُخرى ..

.. نحنُ البشرَ حينما نُولَدُ — في هذا العالم المخلوق المحسوس — نخرجُ من بطون أمهاتنا لا نعلمُ شيئاً عن جزئيّات هذا العالم ..

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾ [النحل : ٧٨]

.. إنّنا نرى أنّ اللهَ تعالى يقول : **﴿ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾** وأنّه لا يقول (لا تعلمون أمراً) ، فالذي لا نعلمه هو صفات جزئيّات عالم الحسّ والتشيّؤ هذا .. بينما الفطرة النقيّة والروح الذي ينتمي إلى عالم الأمر ، نفخهُ الله تعالى فينا منذ ولادتنا ..

.. وحينما نُريدُ تسميةَ الأشياء التي حولنا في هذا العالم (عالم الحسّ والتشيُّؤ) فإنّ تسميتنا تبتعدُ عن التسمية الحقّ للأشياء بمقدارِ نقص علمنا في عاملين اثنين :

- علمنا في إدراك حقيقة هذه الأشياء إدراكاً كاملاً ..
- قدرتنا اللغويّة على صياغة ما علمناه صياغةً كاملة ..

.. ولذلك تبتعدُ تسميتنا للشيء عن التسمية الحقّ التي تصفُ حقيقةَ هذا الشيء وصفاً مُطلقاً ، بمقدار نقص علمنا بهذين العاملين الاثنين ..

.. وهكذا .. فالألفاظُ الوضعيّةُ (التي نُسمّيها بأنفسنا) ، نستخدمُها إمّا على الحقيقة ، حينما نستعملُها في المعنى الذي وُضِعَت له ، وذلك في تعبيرِنا عن موجوداتِ

عالمِ الخلق ، حيثُ تمّت صياغةُ تلكَ الألفاظِ من تفاعلِ نفوسِنا مع عالمِه .. وإمّا على المجاز حينما نستخدمُها في غيرِ ما وُضِعَتْ له ، وذلك في تعبيرِنا عن معانٍ ودلالاتٍ معنويّةٍ لا تنتمي إلى موجوداتِ عالمِ الخلق ..

.. فحينما نقولُ لإنسانٍ : يَدُكَ طويلةٌ .. فإنّنا نعني على الحقيقةِ طولَ يدِهِ الحسيّةِ .. ونعني على المجازِ قوّةَ سيطرتِهِ على الأمورِ ، وسهولةَ وصولِه إلى مُرادِه .. فحقيقةُ اليدِ بالنسبةِ لنا في عالمِ الخلقِ ، هي اليدُ المعروفةُ من دمٍ ولحمٍ وعظم .. بينما قُدرةُ الإنسان على تناوُلِهِ للأمورِ مسألةٌ نتصوّرُها بأذهاننا ، ولا نستطيعُ أن نُجسِّدَها بشيءٍ من أشياءِ عالمِ الخلق .. فالمجازُ هو الاستعمالُ المعنويُّ لهذه الكلمةِ ، والحقيقةُ هي استعمالُها في التعبيرِ عن الحيثيّات الماديّة التي تنتمي إلى عالمِ الخلقِ الذي فيه تمّت صياغةُ لفظةِ اليد ..

.. وهكذا .. لا يمكنُ لألفاظٍ وضعيّةٍ أنْ تَتَّسِعَ — على الحقيقةِ — لدلالاتٍ أكثرَ من سعةِ علمِ واضِعِها ، وذلك في تسميةِ كائناتِ عالمِ الخلق .. ولا يُمكنُها أبداً تصِفَ موجوداتِ عالمِ الأمر ، إلاّ على سبيلِ المجازِ ، ومن منظارِ علمِ واضعِ تلك الألفاظ ..

.. وقد أشارَ القرآنُ الكريمُ إلى مسألةِ تسميةِ البشرِ للأشياءِ بأسماءٍ ما أنزلَ اللهُ تعالى بها من سلطان ، فكانت هذه الأسماءُ بعيدةً كلَّ البعدِ عن حقيقةِ الأشياءِ المُسمّاة ..

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢٣]

.. وإضافةً إلى أنّ تسميتَنا للأمورِ والأشياءِ ناقصةٌ عن التسميةِ الحق ، بسببِ علمِنا الناقصِ عن العلمِ الكاملِ بحقيقةِ هذه الأشياء ، فإنّ هذه التسميةَ ذاتُ خصوصيّةٍ فرديّةٍ وقوميّة ، فقد تختلفُ تسميةُ الشيءِ ذاتِه من فردٍ لآخر ، ومن أمّةٍ لأُخرى ، حسبَ المناظيرِ المختلفةِ التي تنظرُ منها الأممُ وأفرادُها إلى هذا الشيء ، وحسبَ درجاتِ علمِهم بماهيّتِهِ عبرَ الأزمنة ، وحسبَ قُدُرَاتِهم المختلفةِ على الصياغة ..

.. ولّما كانت حقيقةُ الأمورِ والأشياءِ ، فوقَ الرؤى المختلفةِ التي تنظرُ منها المخلوقاتُ إلى هذه الأمورِ والأشياء ، ولّما كانتْ حقيقةُ الأمورِ والأشياءِ لا يعلمُها أحدٌ

كعِلمِ خالقِها جلّ وعلا ، ولا يستطيعُ أحدٌ غير اللهِ تعالى ترجمةَ هذا العلـــمِ المطلـــقِ إلى صياغةٍ مطلقةٍ تُصوّر تصويراً مُطلقاً حقيقة هذه الأمورِ والأشياء ، فإنَّ التسميةَ الحقَّ والتي تصفُ وصفاً مطلقاً حقيقةَ المُسمّى لا تكون إلاّ منَ اللهِ تعالى ، فارتباطُ الذواتِ المســـمّاةِ من اللهِ تعالى بأسمائِها ، يماثلُ تماماً ارتباطَ المادّةِ بصورتِها ..

فحتى تكونَ المُفرداتُ القرآنيّةُ تِبياناً لكلِّ شيءٍ ، وكاملةً ومطابقةً مطابقةً تامّةً للمعنى ، لا بُدَّ أن يكونَ صائغُها ، فوقَ عالمي الخلقِ والأمرِ ، على حدٍّ سواء ..

.. فلمّا كانت الكلمةُ المقولةُ الوعاءَ الذي يحوي المعنى ، فإنَّ التسميةَ المُطلقةَ تقتضي عِلماً مُطلقاً في المعنى (الكلام) ، وعِلماً مُطلقاً في الوعاءِ المَصوغِ لاحتواءِ المعنى (القول) .. وأيُّ ابتعادٍ عن المطلقِ في المعنى (الكلام) أو في الوعاء (القول) ، تَفْقِدُ التســـميةُ مُطلقَها ..

ولّما كان القرآنُ الكريمُ تِبياناً لكلِّ شيء ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ** ﴾ [النحل : ٨٩] ، فهذا يقتضي أن مفاتيحَ مُسمّياتِ الأسماءِ كلِّها في هذا الكون تحمِلُها المفرداتُ القرآنيّة .. ولّما كان آدمُ عليه السلام في عالمِ ما وراء المادة والمكان والزمان قبل حُلولِ نفسِهِ في جسدِه ، قد علّمهُ اللهُ تعالى الأسماءَ كلّها (كما سنرى إن شاء الله تعالى) ، فهذا يقتضي أن تكونَ المفرداتُ القرآنيّةُ علّمها اللهُ تعالى لآدمَ عليه السلام وهبطَ بِها إلى الأرض ..

.. وماهيّةُ القرآنِ الكريمِ كونه الوحيد – من بين الكتب السماويّة – قولَ الله تعالى ، وكونَه يتعلّقُ مباشرةً بصفاتِ اللهِ تعالى ، وكونَهُ يحملُ مفاتيحَ أسرارِ الكون ، وكونَـــهُ معجزةً مستمرّةً حتى قيامِ الساعةِ ، وكونَهُ منهجَ هدايةٍ للبشريّةِ جمعاء ، وكونَـــهُ يحمـــلُ عُمقَ التأويلِ الذي لا يعلمُهُ إلاّ اللهُ تعالى ... وكونَهُ ينفردُ – من بين الكتب السماويّة – بالتتزيل(*) من عندِ اللهِ تعالى ، في حين يشتركُ مع الكتبِ السماويةِ الأخرى بالإنزالِ من

(*) – **بيّنتُ هذه المسائل بشكلٍ مُفصّل في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) ، وفي النظريّة السادسة (سُلّم الخلاص) ، وفي كتاب : المُعجزة الكُبرى (حوار أكثر من جريء) ..**

عندِ اللهِ تعالى .. كلُّ ذلك يقتضي أن تكونَ كلماتُهُ فطريّةً مُوحاةً من الله تعالى ، علّمهـا لآدمَ عليه السلام قبل حُلولِ نفسِهِ في جسده ، في العالمِ الذي لا يحـوي المتناقضـات ، والذي ينتمي إليه القرآنُ الكريم ..

.. فتنزيلُ القرآنِ الكريمِ (من الفعل نَزَّلَ) من عندِ اللهِ تعالى ، هو انتقالُهُ إلى عالَمِنا دونَ أيِّ تغييرٍ وارتسامٍ بمادّةِ هذا العالم ، وبالتالي فمفرداتُهُ هي ذاتُها نَزَلَتْ من السـماء ، وَجُمَلُهُ هي ذاتُها نزلتْ من السماء ، فالقرآنُ الكريمُ ليس معانيَ من اللهِ تعـالى صـاغَتْها المخلوقاتُ بقالبٍ لُغويٍّ كالكتبِ السماويّةِ السابقة ، إنّما هو معانٍ من الله تعالى صاغها الله تعالى بقالبٍ لغويٍّ ..

.. وكلُّ ذلك يُبيّنُهُ لنا القرآنُ الكريم ، من خلال تفرُّدِ القرآنِ الكريمِ عن غيرِهِ مـن الكتبِ الأخرى بكونه قولَ الله تعالى ، أي صياغةً لُغويّةً من عندِ الله تعـالى .. وبتفـرُّدِهِ أيضاً عن غيرِهِ من الكتبِ السماويّةِ بكونِهِ تنزيلَ اللهِ تعالى ، أي نزولاً كما هو تماماً دونَ أيِ تغييرٍ أو تبديل ، فهو كلامُ اللهِ تعالى ، وأنزلَهُ الله تعالى ، شأنُهُ بذلك شـأنُ الكتـبِ السماويّةِ الأخرى ، ولكنَّهُ — أيضاً — قولُ اللهِ تعالى وتنزيلُهُ ، أي تنزيلُ الصياغةِ ذاتِهـا دون أيِّ تغييرٍ أو تبديل ..

.. ولذلك فكلُّ المفرداتِ القرآنيّةِ تصفُ الأمورَ والأشياءَ — على الحقيقةِ — وصـفاً مُطلقاً ، وما نتوهَّمُهُ من مجازٍ لبعضِ مُفرداتِه ناتجٌ عن كونِ تصوّراتِنا لا تخرجُ عن إطـارِ الصورِ الحسيّةِ التي اكتسبناها من عالمِ الخلق (عالم المادّة والمكان والزمان) ، وعن كونِنا جاهلينَ لحقيقةِ الأمورِ في ما وراء عالمِ الخلقِ الذي نعيشُ فيه ..

.. فحينما نقرأُ قولَ الله تعالى .. **﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾** [الإسراء : ٢٩] .. نَحْسَبُ أنَّ كلمةَ **﴿ يَدَكَ ﴾** في هذه الآيةِ الكريمةِ قد اُستخدِمَتْ على سبيلِ المجاز .. فالمعنى الحقيقيُّ لليدِ لا نستطيعُ تصوُّرَهُ إلاّ لليدِ الحسيّةِ المعروفة ، ولذلك نُسقِطُ تصوّراتِنا الحسيّةَ هذه على المعنى الحقيقيِّ لهذهِ الكلمةِ فنزعُمُ أنّها اُستخدِمَت على المجاز ..

.. لكنْ .. إذا أدركنا أنَّ أنفُسَنا جَوهرٌ معنويٌّ موجودٌ قبلَ خلقِ أجسادِنا ، وقبلَ حُلولِ هذه الأنفسِ في تلكَ الأجساد .. وإذا أدركنا أنَّ هذه الأنفُسَ لها صُوَرُها الخاصَّةُ بها قبلَ خلقِ أجسادِنا ، حيثُ يقولُ تعالى ..﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ** ﴾ [الأعراف : ١١] .. وإذا أدركنا أنَّ هذه الأجسادَ الحاملةَ لأنفُسِنا مُجرَّدُ أوعيةٍ مادّيّةٍ لارتسامِ صُوَرِ أنفسِنا في عالمِ المادّةِ والمكانِ والزمان (كما سنرى إن شاء الله تعالى في الفصل القادم) .. حين ذلك .. ندركُ أنَّ قَوْلَهُ تعالى ﴿ **وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ** ﴾ ، هو أمرٌ إلهيٌّ يُصوِّرُ تصويراً مُطلقاً على الحقيقةِ وليس على المجاز ، ما يُريدُهُ اللهُ تعالى لِحركةِ النفسِ المُجرَّدةِ في توجيهِها لما يقعُ تحت سيطرتِها ، كي تبتعدَ عن البُخلِ والإسراف .. فأداةُ القوّةِ والسيطرةِ للنفسِ هي يدُ هذه النفس ، والتي تتجسَّدُ في عالمِ المادّةِ والحسِّ بيدٍ حسّيّةٍ هي اليدُ التي نعرفُها .. فلمّا كان السياقُ القرآنيُّ يتعلّقُ بقيمٍ معنويّةٍ تتأرجحُ بين البخلِ والإسراف ، وتتعلّقُ بجوهرِ نفسِ الإنسانِ ، فلا بُدَّ أنْ تتعلَّقَ دلالاتُ كلمةِ ﴿ **يَدَكَ** ﴾ في هذه الآيةِ الكريمة بالنفسِ المجرّدةِ ، وليس بارتسامِها المادّي في الجسد ..

.. وقد وردَ هذا المعنى الحقيقيُّ لليدِ في قولِهِ تعالى ..

﴿ **وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ** ﴾ [ص : ٤٥ – ٤٧]

ولكن حينما يكونُ السياقُ القرآنيُّ متعلّقاً بمسائلَ من عالمِ الخلق ، فإنَّ هذه الكلمةَ تصفُ على الحقيقةِ أيضاً اليدَ الماديّةَ التي هي عضوٌ من الجسدِ ، حيث الجسدُ صورةُ ارتسامِ وعاءِ النفسِ في عالمِ المادّةِ والمكانِ والزمان .. ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ**

إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ ﴾ [المائدة : ٦] .. فالمعنى المُجرَّدُ لكلمةِ اليدِ هو ذاتُهُ ، ولكنَّ الذي يتغيّرُ هُوُ استخدامُها في العوالِمِ المختلفة ، فالاختلافُ يعودُ إلى تمايزِ تلكَ العوالِمِ عن بعضِها .. ولذلك فهذه الكلمةُ تحملُ دلالاتٍ للمَعْنَيَين ، المُجرَّد والحسّي ، بآنٍ واحد .. يقولُ تعالى .. **﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾** [الفتح : ٢٤]

.. وهكذا .. فعدمُ إدراكِ حقيقةِ فطريّةِ المُفردةِ القرآنيّةِ ، وبأنّها من صياغةِ اللهِ تعالى ، لتحملَ معنىً مُجرّداً لهُ ارتساماتُهُ في العوالِمِ المُختلفةِ ، وعدمُ إعادةِ المعنى والدلالات التي تحملُها الكلمةُ القرآنيّةُ إلى حقيقةِ العالَمِ الذي تنتمي إليه المسألةُ التي تصفُها وتسمّيها المفردةُ القرآنيّةُ ..كلُّ ذلك أدّى إلى أوهامِ التجسيدِ عندَ بعضِهم ، وإلى أوهامِ المجازِ عندَ بعضِهم الآخر ..

.. فحينما نقرأُ قولَ الله تعالى .. **﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾** [طـه : ٥] .. علينا أنْ نعلمَ أنَّ الاستواءَ هنا يُحمَلُ على فاعلِه ، وهو اللهُ تعالى ، الذي هو فوقَ عالمي الخلقِ والأمرِ على حدٍّ سواء .. **﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾** [الأعراف : ٥٤] .. وأيُّ تصورٍ لهذا الاستواءِ بمعاييرِ عالَمِنا الماديِّ الحسيِّ ، هو تجسيدٌ لله تعالى ، ومحاولةٌ لفرضِ معاييرِ عالَمِنا الماديِّ على الذات الإلهيّة ..

فالفارقُ بين استواءِ اللهِ تعالى على العرش ، وبين استواءِ سفينةِ نوحٍ – على سبيل المثال – يُوازي تماماً الفارقَ بين الذاتِ الإلهيّة وبين مادةِ سفينةِ نوح .. **﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾** [هود : ٤٤] .. مع العلمِ أنّ المعنى المُجرّدَ لكلمةِ **﴿ ٱسْتَوَىٰ ﴾** ، هو ذاتُهُ ، ولكنَّ الذي يتغيّرُ في دلالاتِ هذه الكلمةِ القرآنيّةِ هو الذاتُ التي تصفُها ، والعالَمُ الذي تنتمي إليه هذه الذات ، أي استخدامُ هذه الكلمةِ في الجملةِ القرآنيّة ..

وكذلك الأمرُ بالنسبةِ لكلمةِ ﴿ ٱلۡعَرۡشِ ﴾ ، فالمعنى المُجَرَّدُ لهذه الكلمةِ هو ذاتُهُ ، ولكنَّ الفارقَ بين العرشِ الذي استوى اللهُ تعالى عليه من جهةٍ ، وبين العرشِ الذي رفعَ يوسفُ عليه السلام أبويه عليه ..﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، وعرشِ ملكةِ سبأ .. ﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٨] .. هذا الفارقُ هو ذاتُهُ الفارقُ بين اللهِ تعالى من جهةٍ ، وبين يوسُفَ وملكةِ سبأٍ والعالمِ الذي ينتميان إليه من جهةٍ أُخرى ..

.. وضرورة إدراك مرتبة الوجود للموصوف بالكلمة القرآنيّة ، وحقيقةِ المعنى المُجرّد الذي تحملُه هذه الكلمة في السياق القرآني المُحيط ، يتجلّى في إدراكنا للمعنى المُجرّد الذي تحملُه كلمة ﴿ لَتَمُرُّونَ ﴾ في النصّ القرآني التالي ..

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذۡ نَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٣ – ١٣٨]

.. والتفسير التاريخي الموروث ، بأنّ دلالات الآيتين الكريمتين ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ ، تتعلّقُ بسياقٍ تاريخيٍّ مُحدّدٍ بإطار الزمان والمكان ، ويخصّ أشخاصاً مُحدّدين ، كانوا – في الماضي أثناء فترة الرسالة – يمرّون مروراً مكانيّاً من المنطقة التي كان فيها قومُ لوط .. هذا التفسير ، يُناقضُ صياغة هاتين الآيتين المُوجّهة لكلّ البشر في كُلِّ زمانٍ ومكان .. فقولُهُ تعالى ﴿ وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ ﴾ ، خطابٌ لكلِّ البشريّة دون استثناء ، في كلِّ زمانٍ ومكان .. وقولـه تعالى ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ هو – أيضاً – خطابٌ من الله تعالى للبشريّة جمعاء ..

.. دلالاتُ هاتين الآيتين ندركهما في إطار التصوير الإلهيّ لنوازع النفس البشريّة (التي تنتمي إلى عالم الخلق غير المحسوس) ، بمرورِها النفسيِّ على إمكانيّة فعل حيثيّات الفاحشة التي فعلها قوم لوط ..

.. بمعنى : أنَّ الله تعالى يُنبّه النفسَ البشريّة ويُحذّرها في بداية الصباح والليل ، حيث الوقت الغالب لِلِّقاءِ بين الرجل والمرأة ، من أن تفعل فعل الفاحشة التي فعلها قوم لوطٍ عليه السلام ..

.. فالنتيجة التي وصل إليها قوم لوطٍ بفعلتهم هذه ، بيّنها الله تعالى لنا في كتابه الكريم ، وبالتالي ففي اللقاء بين الرجل والمرأة ، حيث إمكانية المرور من فعل هذه الفاحشة ممكنة ، عند هذا الحدّ من إمكانيّة الانزلاق بفعل فاحشة قوم لوط ، يُحذّرنا اللهُ تعالى ، بأنّ غضبَ الله تعالى الذي أنزله على قوم لوط ، ومصيرَهُم في الآخرة ، لا يختلف عنه مع من يفعل فعلتهم التي فعلوها ..

.. فاللهُ تعالى يقول للبشريّة جمعاء من خلال هاتين الآيتين : إيّاكم من الانزلاق في فعل فاحشةِ قوم لوط ، فمصيرُهم – في الدنيا والآخرة – بيّنتُه لكم في القرآن الكريم ، ويدركُهُ كلّ عاقل ، وناموسي لا يتغيّر ولا يتبدّل ، فمن يفعل هذه الفاحشة مصيرُه لا يختلف عن مصير قوم لوط ، وعليكم أن تعقلوا هذه الحقيقة ..

.. وهكذا فالكلمةُ القرآنيّةُ بحقيقتِها المُجَرَّدةِ عن العالمِ الذي ينتمي إليه الموصوفُ بها ، دلالاتُها ثابتةٌ مُطلقةٌ مُتعلّقةٌ بعلمِ الله تعالى المُطلقِ المحيطِ بحقيقةِ الموصوفِ .. ودلالاتُها في كُلِّ عالمٍ من عوالمِ الوجودِ تصفُ وصفاً مُطلقاً حقيقةَ إدراكنا لارتسامِ صفاتِ الموصوفِ بها في ذلك العالم .. وكلُّ ذلك ضمنَ صياغةٍ قرآنيّةٍ تحملُ من الدلالاتِ والمعاني ما يُناسبُ إدراكَ الأجيالِ المتلاحقةِ حتى قيامِ الساعة ..

.. ولنقف عند تفسير الآية الكريمة التالية لنرى كيف أنَّ عدم الوقوف على حرفيّة الصياغة القرآنيّة وفرض التصوُّرات المُسبقة الصنع على دلالات النصوص القرآنيّة ، يُوصل إلى فهمٍ مُشوَّهٍ لدلالات كتاب الله تعالى ..

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء : ١٥٧]

.. في العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ﴾ داخل هذه الآية الكريمة ، نرى أنَّ الضمير في كلمة ﴿ قَتَلُوهُ ﴾ يعود إلى ﴿ ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ ﴾ ، وكذلك الأمر بالنسبة للضمير في كلمة ﴿ صَلَبُوهُ ﴾ .. فالكلمتان [[﴿ قَتَلُوهُ ﴾ ،، ﴿ صَلَبُوهُ ﴾]] صيغتهما متماثلة ، فعل ماضي بصيغة المبني للمعلوم ، والضمير فيهما لا يعود إلاّ إلى عيسى عليه السلام ..

.. ولكن إلى ماذا يعود الضمير المتعلّق بكلمة ﴿ شُبِّهَ ﴾ ؟ ..

كلمة ﴿ شُبِّهَ ﴾ نراها بصيغة الفعل الماضي المبني للمجهول ، وإعادة الضمير إلى عيسى عليه السلام ، بمعنى أنَّ شبه عيسى أوقعه الله تعالى على إنسانٍ آخر ليُصلَب بدلاً من عيسى عليه السلام ، أمرٌ غير ممكن ، لأنَّ عيسى عليه السلام (وفق هذا التصوّر) مشبّهٌ به ، وليس بمشبّه ..

فالله تعالى لم يقل (ولكن شبَّه اللهُ به لهم) ، إنّما يقول ﴿ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ﴾ .. إذاً الروايات الملفّقة والمتناقضة فيما بينها ، من أنَّ الله تعالى أوقع شبه عيسى عليه السلام على إنسانٍ آخر ، تنقضها الصياغة اللغويّة لهذه العبارة القرآنيّة ..

ولا يمكن إعادة الضمير المستتر في كلمة ﴿ شُبِّهَ ﴾ إلى أيِّ إنسان آخر ، كالذي زُعم أنَّه صُلب بدلاً من عيسى عليه السلام ، لأنَّ هذا الآخر المفترض لم يجر له ذكر في السياق السابق ، ولا حتّى في اللاحق ..

أمَّا محاولات تخريج ذلك كالقول بأنَّ الضمير المستتر مُسند إلى الجار والمجرور ﴿ لَهُمْ ۚ ﴾ ، بمعنى ولكن وقع لهم الشبه ، أو كالقول بأنَّ الضمير مُسند إلى ضمير المقتول ، في

العبارة ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ** ﴾ ، تصوّراً بأنَّه يدلّ على أنَّه وقع القتل على غيره ، فصار ذلك الغير مذكوراً بهذا الطريق ، فحسن إسناد ﴿ **شُبِّهَ** ﴾ إليه .. هذه التخريجات لا تُسعفها الصياغة اللغويّة لهذه العبارة القرآنيّة ، وهي نتيجة فرض تصوّر مُسبَق الصنع على دلالات هذا النص الكريم ..

وهذه القصّة التاريخيّة الملفّقة ، بأنَّ الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على إنسانٍ آخر ليُصلَب بدلاً منه ، يتبيّن فسادها من أمرين :

.. الروايات في هذا الأمر متناقضة فيما بينها تناقضاً جلياً ، ولمعرفة هذه الحقيقة لننظر في النصّ التالي الذي أنقله بحرفيّته من تفسير الفخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ، للإمام محمد الرازي فخر الدين ، طباعة دار الفكر ، الطبعة الأولى (٢٠٠٥) م ، وذلك في تفسير هذه الآية الكريمة :

[[....... اختلفت مذاهب العلماء في هذا الموضع وذكروا وجوهاً :

الأوّل : قال كثيرٌ من المتكلّمين : إنَّ اليهود لمّا قصدوا قتله رفعه الله تعالى إلى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامّهم ، فأخذوا إنساناً وقتلوه ولبسوا على الناس أنّه المسيح ، والناس ما كانوا يعرفون المسيح إلاَّ بالاسم ، لأنَّه كان قليل المخالطة للناس ، وبهذا الطريق زال السؤال . لا يقال : إنَّ النصارى ينقلون عن أسلافهم أنَّهم شاهدوه مقتولاً ، لأنّا نقول : إنَّ تواتر النصارى ينتهي إلى أقوام قليلين لا يبعد اتّفاقهم على الكذب .

والطريق الثاني : أنَّه تعالى ألقى شبهه على إنسان آخر ثمّ فيه وجوه :

الأوّل : أنّ اليهود لمّا علموا أنّه حاضر في البيت الفلاني مع أصحابه أمر يهوذا رأس اليهود رجلاً من أصحابه يقال له طيطايوس أن يدخل على عيسى عليه السلام ويخرجه ليقتله ، فلمّا دخل عليه أخرج الله عيسى عليه السلام من سقف البيت وألقى على ذلك الرجل شبه عيسى فظنّوه هو فصلبوه وقتلوه .

الثاني : وكّلوا بعيسى رجلاً يحرسه وصعد عيسى عليه السلام في الجبل ورفع إلى السماء ، وألقى الله شبهه على ذلك الرقيب فقتلوه وهو يقول لست بعيسى .

الثالث : أنَّ اليهود لمّا همّوا بأخذه وكان مع عيسى عشرة من أصحابه فقال لهم : من يشتري الجنّة بأن يلقى عليه شبهي ؟ فقال واحد منهم : أنا ، فألقى الله شبه عيسى عليه فأخرج وقتل ، ورفع الله عيسى عليه السلام .

الرابع : كان رجل يدّعي أنَّه من أصحاب عيسى عليه السلام ، وكان منافقاً فذهب إلى اليهود ودلَّهم عليه ، فلمّا دخل مع اليهود لأخذه ألقى الله تعالى شبهه عليه فقتل وصلب . وهذه الوجوه متعارضة متدافعة والله أعلم بحقائق الأمور .]] ..

.. القول بأنَّ الله تعالى ألقى شبه عيسى عليه السلام على إنسانٍ آخر ليصلب بدلاً منه ، دون أيِّ ذكرٍ لذلك في كتاب الله تعالى ، وبناءً على روايات متناقضة مناقضة لكتاب الله تعالى ولسننه الكونيّة التي لا تتبدّل ولا تتغيّر ، يفتح باب السفسطة ، ويُعطي حيثيّات الشك بما يراه الإنسان .. وكلُّ ذلك يتعارض مع منهج الله تعالى الذي لا يأتيه الشك لا من قريب ولا من بعيد ..

.. إذاً .. الضمير المستتر في كلمة ﴿ **شُبِّهَ** ﴾ يعود إلى الصلب والقتل ، بمعنى شُبّه الصلب والقتل لهم .. ولكن كيف يكون ذلك ؟ .. للإجابة على هذا السؤال لا بدّ من معرفة معنى الصلب في كتاب الله تعالى ..

.. دلالاتُ الفعل الثلاثي (صَلَبَ) تعني وَضْعَ الإنسانِ وتثبيتَه على أداةٍ ثابتةٍ حتى ينتقلَ إلى الحياةِ الأُخرى من على هذه الأداة .. أي هي الخروجُ من الحياة الدنيا إلى الحياةِ الأُخرى من خلالِ الوجودِ على أداةٍ ثابتةٍ صلبة ..

.. من هنا .. فالصليبُ : هُوَ الأداةُ الثابتةُ التي يخرجُ من خلالِها المصلوبُ إلى الحيـــاةِ الأخرى ..

.. وفي هذا الإطارِ من المعنى تُفهم دلالاتُ مشـــتقّات الجـــذر (ص ، ل ، ب) في الآيات التالية :

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴾ [النساء : ١٥٧]

﴿ يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : ٤١]

.. والصُّلْبُ : هُوَ الخطُّ الثابتُ الحاملُ للصفات المتوارثة من آدمَ عليه السلام إلى الأجداد إلى الآباء إلى الأبناء ، والذي من خلالِهِ يخرجُ الإنسانُ إلى عالم الدنيا ، الذي هُو العالم الآخر بالنسبةِ لمرحلة ما قبل خروج الإنسان إلى الدنيا ..

.. ففي قولِه تعالى : ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴾ [الطارق : ٥ – ١٠] .. نرى أنَّ الآيةَ الكريمةَ : ﴿ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ ، تعني : يخرجُ من بينِ الخطِّ الثابت للصفات الوراثيّة الذي هُوَ ﴿ ٱلصُّلْبِ ﴾ والممتدُّ من آدمَ عليه السلام إليه ، وبين الصفاتِ المختلفةِ المكتسبةِ والطفرات الطارئة التي يحملُها الإنسان خارجَ محورِ ﴿ ٱلصُّلْبِ ﴾ الذي خرج إلى الدنيا من خلالِه ، وبالتالي تُوصَفُ هذه الصفات بـــ ﴿ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴾ ، أي بالضعف والتفتّت وعدم الثبات ، وذلك مقارنةً مع الصفات التي يحملها الإنسانُ من محور الصُّلْبِ الذي خرج من خلاله إلى الدنيا ..

.. وهكذا .. فالصُّلْبُ هو الخطُّ الثابتُ الممتدُ من آدمَ عليه السلام إلى الإنسان ، حيثُ يخرجُ المولودُ من خلالِه إلى حياةٍ أُخرى (الحياة الدنيا) ، تماماً كما أنَّ الصليبَ أداةٌ ثابتةٌ يخرجُ من خلالِها المصلوبُ عليه من الحياة الدنيا إلى الحياةِ الأُخرى ..

.. ولما كان لكلِّ إنسانٍ صُلْبُهُ الذي يخرجُ منه أولادُه إلى الدنيا ، فإنَّ لمختلف البشرِ أصلابَهم التي تلتقي جميعُها عند آدمَ عليه السلام ، والتي يخرجُ منها أولادُهم ..

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ ﴾ [النساء : ٢٣]

.. وفي حين أنَّ دلالات جذر الفعل الثلاثي (صَلَبَ) تعني الموتَ على الصليب دون تأثيرٍ خارجي ، بمعنى : أنَّ الصليبَ كان البدايةَ لِلخروجِ من الدنيا ، فمن على الصليب يبدأُ المصلوبُ خروجَه من الدنيا نحو الآخرة ، لا قبل ذلك ، دون أيِّ مؤثِّرٍ خارجيٍّ مُفتَعَل .. في الوقتِ ذاتِه ، نرى أنَّ دلالات الفعل الرباعي (صَلَّبَ) ، تعني ابتداءَ مُقدِّمات الخروج من الدنيا قبل الوضعِ على الصليب من خلال التعذيب وفعل مُقدّمات القتل ، ثمَّ يأتي الصليبُ ليكونَ النهايةَ للمصلوب ، حيث يخرج المصلوب من الدنيا من خلالِ هذا الصليب نتيجةَ أفعال التعذيب التي تعرّضَ لها قبل الصلب ، إضافةً لوضعِه على الصليب .. يقولُ تعالى واصفاً قولَ فرعون للسحرة :

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٤]

.. فالكلمة القرآنيّة : ﴿ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ تعني الوضعَ على الصليب بعد قطع الأيدي والأرجل من خلاف ، فالموتُ على الصليب – في هذه الحالة – هو بسبب قطعِ الأيدي والأرجل من خلاف ومن ثمّ بسببِ الترك على الصليب حتى الموت .. والآيتان الكريمتان التاليتان تُؤكِّدان هذه الحقيقة :

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ٧١]

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٩]

وفي الآية (٧١) في سورة طه نرى العبارة القرآنيّة ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ وذلك بورود كلمة ﴿ فِى ﴾ وليس كلمة (على) ، ولا يمكن لكلمة ﴿ فِى ﴾ أن تكون بمعنى كلمة (على) ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الصلب لا يعني مجرَّد الوضع على الصليب إنّما يعني الموت من على الصليب ، فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ تعني الموت صلباً ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ ﴾ وذلك من خلال كونهم محاطين في جذوع النخل ﴿ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ ..

وفي ذات السياق نفهم كلمةَ ﴿ يُصَلَّبُوٓاْ ﴾ في قولِه تعالى :

﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣]

.. وهكذا ففي حين تحمل دلالات الفعل الثلاثي (صَلَبَ) معنى كونِ الصليبِ بدايةَ خروجِ المصلوب إلى الحياة الآخرة ، فإنَّ دلالات الفعل الرباعي (صَلَّبَ) تحمل معنى كونِ الصليبِ نهايةَ خروجِ المصلوب إلى الحياة الآخرة ، لأنَّ مُقدّمات موتِ المصلوب كانت من خلال التعذيب وفعل كلِّ ما يُودِّي إلى الموت قبل الوضع على الصليب ..

وحاصل الأمر أنَّ الصلب يعني الموت على الصليب ، ولا يعني مجرَّد الوضع على الصليب ، فالوضع على الصليب والنزول عنه دون الموت عليه ، لا يعني صلباً ولا بأيٍّ شكلٍ من الأشكال ..

.. إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ تنفـي عـن عيسى عليه السلام القتل ، وتنفي عنه الصلب ، وتؤكّد تشبيه الصلب والقتـل لهـم .. فكيف يكون ذلك ؟ ..

.. مشتقّات الجذر (ش ، ب ، هـ) في كتاب الله تعالى تعني رؤية ظاهرٍ مخالفٍ لباطن المرئي وحقيقته ، وعدم إدراك حقيقة المسألة ، واختلاط الأمر بالنسبة لها ، مع أنَّ لها وجهاً ظاهراً .. فالصورة القرآنيّة : ﴿ **قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا** ﴾ [البقرة : ٧٠] ، تعني أنَّ الأمر قد اختلط عليهم فلم يعودوا يدركوا حقيقة البقرة المطلوبة ، مع أنَّ البقر ظاهرٌ أمامهم .. والصورة القرآنيّة : ﴿ **كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا** ﴾ [البقرة : ٢٥] ، تعني أنَّ ظاهر ذلك الرزق متماثلٌ مع أنَّ حقيقةَ طعمه مختلفة ، أي يرون ظاهراً مختلفاً عن الباطن الذي اعتقدوه ..

وكذلك الأمر بالنسبة للصورة القرآنيّة : ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ [النساء : ١٥٧] ، فهي تعني أنَّ الصلب والقتل شُبّه لهم ، بمعنى أنّهم رأوا ظاهراً يُوهم بالصلب ، مع أنَّ حقيقة الأمر وباطنه غير ذلك ..

ولما كان هذا الشبه ليس من فعلهم ، وهو توهّم اعتقدوه ، كـان الفعـل ﴿ **شُبِّهَ** ﴾ بصيغة المبني للمجهول ... إذاً عيسى عليه السلام تمَّ وضعه على الصليب ، واعتقدوا أنّـه فارق الحياة من على الصليب ، بمعنى اعتقدوا أنّه صلب وقُتل ، وهذا ما شُبّه لهم ، ولكنَّ الحقيقة أنّه أنزل من على الصليب حيّاً لم يفارق الحياة ، وبالتالي لم يُصلب و لم يُقتَل ..

إذاً ظاهر هذه المسألة (الوضع على الصليب والاعتقاد بأنّه فارق الحياة من عليه) ، يخالف باطنها وحقيقتها (عدم الموت على الصليب والنزول عنه حيّاً) ، مع العلم أنَّ الصلب كما بيّنا لا يعني مجرّد الوضع على الصليب ، إنّما يعني الموت من على الصليب .. وهذه هو عين ما تنطق به العبارة القرآنيّة ﴿ **وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ** ﴾ ..

وتكملة الآية الكريمة ذاتها تؤكّد هذه الحقيقة ..

﴿ **وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا** ﴾

.. وهكذا نرى كيف أنَّ الإعراض عن الصياغة الحرفيّة للنصِّ القرآني مع فرض الروايات وأقوال السابقين على النصِّ القرآني ، لا يزيدنا إلاَّ ابتعاداً عن حقيقة دلالات كتاب الله تعالى ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

وجودنا وحقيقة التكليف

.. ما الحكمة من وجودنا في عالم الدنيا ؟ .. وهل لنا من اختيارٍ في مجيئنا إلى هذه الدنيا ؟ .. وما الفارق بين وجودنا ووجود باقي المخلوقات ؟ .. هذه الأسئلة موجودةٌ في كلِّ نفسٍ ، وأجوبتها تختلف حسب درجة إدراك النفس لآيات كتاب الله تعالى ، ولذاتها كذاتٍ مجرّدةٍ عن هذا العالم المادّي المحسوس ، وللحقائق العلميّة حول صفات المادّة التي ينتمي إلى عالَمِها جسدُنا ..

.. لقد بيّن لنا القرآن الكريم أنّنا (كأنفسٍ مجرّدةٍ عن هذا العالم المادّي) موجودون قبل سجود الملائكة لآدم عليه السلام (آدم النفس والجسد) ، وأنّ وجودنا – آنذاك – وجودٌ عاقلٌ ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢ – ٧٣]

هذه الصورة القرآنيّة تبيّن لنا أنّ الله تعالى عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال – عرضاً غيرَ إجباريٍّ – بغية حملها .. ودليلنا على أنّ هذا العرضَ – غير الإجباري – بغية حمل الأمانة ، هُو قولُه تعالى **﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾** .. فما هي هذه الأمانة ؟ ..

.. لا شكّ أنّ الأمانة تعني التكليف في الائتمان على شيءٍ ، فمن يُؤتَمَن على شيءٍ لا بُدّ أن يُوضَع هذا الشيء بين يديه ، وأن يملك القدرة على إنكار الأمانة ، وعلى تأديتها ، في الوقت ذاته ..

.. وقوله تعالى ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَـٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ ، يبيّن لنا مسألتين في الوقت ذاته :

١ — أنّ الإنسانَ هو الوحيد الذي تصدّى لحمل هذه الأمانة ..

٢ — أنّ الإنسانَ كان باختياره لحمل هذه الأمانة ظالماً لنفسه ، وجاهلاً بحقيقةِ نفسه وبما يترتّب عليه من حمل هذه الأمانة .. بينما المخلوقات الأُخرى لم تكن جاهلةً بذلك جهلَ الإنسان .. فماذا نستنتج من ذلك ؟ ..

.. علينا أن نعودَ إلى مرحلة عرض الأمانة ، ونقارنَ بين الإنسان النفس (قبل حلول هذه النفس في جسده) من جهة ، وبين الكائنات الأُخرى من جهة أُخرى .. تلك الكائنات التي لم تظلم ذاتها ، ولم تكن جاهلةً بعواقب حمل هذه الأمانة ، كما هو الحال عند الإنسان ..

.. المخلوقات التي كانت موجودةً — آنذاك — يُمكننا تصنيفها — من زاوية إدراكها للكليّات والجزئيّات — على النحو التالي :

[١] — كائنات غير مدركة لا للكليّات ولا للجزئيّات ، كالجماد ، ولذلك لا تملك إرادة ولا مشيئة ..

[٢] — كائنات مدركة فقط للجزئيّات ، وغير مدركة للكليّات ، كالبهائم ، فتتفاعل مع الجزئيّات من طعامٍ وما تمليه عليها غريزتها ، دون النظر في الكليّات التي تنتج عن التفكّر فيما وراء هذه الجزئيّات .. ولذلك لا تملك إرادة ولا مشيئة ، فالمشيئة على الرغم من أنّها تفاعلٌ مع الجزئيّات ، إلاّ أنّها مسبوقة بإرادة توجّهها داخل إطار هذا التفاعل ، والبهائم تفتقد هذه الإرادة ..

[٣] – كائنات تدرك الكليّات إدراكاً حقّاً ، دون أن تُدرك الجزئيّات .. كالملائكة التي تعبد الله تعالى ولا تعصيه أبداً ، دون أن تُدرك الجزئيّات من صفاتٍ للأشياء .. وقد بيّن لنا القرآن الكريم مسألة عدم إدراك الملائكة للجزئيّات ، حينما صوّر لنا عرض الله تعالى للأشياء على الملائكة ، وطلب منهم أن ينبئوه بأسمائها ، وكيف أنّ الملائكة عجزت عن ذلك ، لأنّها لا تُدرك الجزئيّات ..

ولّما كان إدراك الملائكة للكليّات إدراكاً حقّاً ، ولا تعصي الله تعالى أبداً ، ولا تفعل إلاّ ما يأمرها الله تعالى به ، فإنّ إرادتها متضمّنةٌ ضمن إرادة الله تعالى ، ولا تخرج أبداً عن إرادة الله تعالى ..

[٤] – كائنات تتفاعل مع الكليّات تفاعلاً يتأرجح بين الخير والشرّ ، وتطَّلعُ اطّلاعاً على الجزئيّات ، فتعرف صفاتها دون أن تدركها ، ودون أن تعيشَ في ساحة هذه الجزئيّات ، كعالم الجنّ المخلوق من النار ، ولذلك تملك هذه الكائنات إرادة دون أن تملك مشيئة ..

صحيحٌ أنّ النارَ ليست كالمادّة الثقيلة التي تتكوّن منها أجسادُنا ، لكنّها في النهاية طاقة ، ويُوجَد فيها من صفات المادّة ما يجعل الجانّ مطّلعاً على صفات المادّة ، ولكن دون أن يستقرَّ في عالمها ، ودون أن يُدركَ – إدراك يقين – الجزئيّات المادّيّة التي نُدركها نحن في عالم الدنيا ..

[٥] – كائنات تتفاعل مع الكليّات دون أيّ علمٍ أو إدراكٍ أو اطّلاعٍ على الجزئيّات ، وهي الأنفس الإنسانيّة المجرّدة عن المادّة ..

.. من هنا نرى أنّ إدراك النفوس البشريّة (التي اختارت حمل الأمانة) للكليّات (إدراكاً ليس كاملاً كإدراك الملائكة) ، دون إدراكها للجزئيّات التي سيتمّ الامتحان في ساحتها ، والذي انطلقت منه في اختيارها لحمل الأمانة ، هو الجهل الذي وصفه الله تعالى للإنسان (النفس) الذي اختار حمل الأمانة ، وهو ما جرّ الإنسانُ به الظلمَ على نفسه ، حينما أخطأ بتقديره واعتقد أنّ امتلاكه القدرة على إدراك الجزئيّات والتفاعل معها ، سيؤدّي – حتماً – إلى ما يريده الله تعالى ..

.. فالأمانة المعروضة هي أنّه إذا تمّ امتلاك القدرة على إدراك الجزئيّات والتفاعل معها بإرادةٍ مستقلّةٍ ، أن يقومَ المؤتَمَنُ بدفعها باتّجاه ما يريده الله تعالى ، وأن ينطلقَ من هذه الجزئيّات إلى كليّاتٍ لا تخرج عن منهج الله تعالى .. أي إذا سُخِّرَت المشيئة بين يدي المُمتَحَن ألاّ يعمل بها إلاّ وفق مُراد الله تعالى ..

.. وممّا يؤكّد ذلك أنّ الله تعالى – وبعد أن اختار الإنسانُ (النفس) حملَ الأمانة – أخذَ العهدَ والميثاق من جميع الأنفس البشريّة ، بأنّه سيُترل البشرَ إلى عالم المشيئة (عالم الجزئيّات) ، ليمتحنهم عبر أجسادٍ مادّيّةٍ ، يتوالدون بها من ظهور بعضهم بعضاً ، وأنّ غرقهم في هذا العالم المادّي ، وفي التفاعل مع الجزئيّات ، يجب ألاّ يجعلهم في غفلةٍ عن الأمانة التي تمّ تعهّدُهُم بحملها ..

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢ – ١٧٤]

.. الله تعالى يقول **﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾** ، ولم يقل (وإذ أخذ ربّك من آدم من ظهره ذريّته) .. فالظهورُ ظهورُ بني آدم دون استثناء .. وسواءٌ كانت كلمة **﴿ ظُهُورِهِمْ ﴾** تعني – كما هو معروف – أصلابهم ، أم كانت تعني الظهور الجسدي المادّي في الحياة الدنيا .. فالمعنى لا يتعارض ، بل يتكامل في تفسير هذه الصورة القرآنيّة ..

.. إذاً الامتحان في حمل الأمانة التي اختار الإنسانُ (النفس) حملها ، يقتضي نزول النفس البشريّة في جسدٍ مادّيٍّ ، لإدراك الجزئيّات ، حتى يكون الإنسانُ وصيّاً على تفاعله مع الأسباب ، وليملك المشيئة ..

.. ونزول النفس البشريّة المجرّدة إلى عالم الجزئيّات من أجل امتحانها ، هــو في الحقيقة جَعْلُ الإنسان خليفةً لله تعالى على عالم المادّة والأسباب (عالم الجزئيّات) .. فقد أخبر الله تعالى الملائكة بأنّه سيجعل له خليفةً في الأرض على جزئيّات هذا العالم المادّيِّ المحسوس ..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٠ – ٣٤]

.. إنّ الخليفة من يخلف غيره ، ويأخذ القوامة على موضوع الخلافة .. والبشر كانوا حتى تلك اللحظة أنفساً مجرّدةً عن عالم المادّة ، وبالتالي ليسوا خلفاءَ على عالم الجزئيّات .. فقوله تعالى للملائكة ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ يدلّ علــى أنّ الخلافة – حتى تلك اللحظة – لم تبدأ بعد ..

وفي تعلّق هذه المسألة بصفة الربوبيّة ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ ﴾ ، حيث كلمة ﴿ رَبُّكَ ﴾ واضحة جليّة في ذلك .. في هذا التعلّق بيانٌ أنَّ موضوع الخلافة هو في ساحة الأسباب (المادّة والمكان والزمان) ..

.. إذاً موضوع الخلافة هو ذاته موضوع حمل الأمانة التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال ، وهو امتلاك القدرة على تسخير الأسباب ودفعها باتّجاه المُراد ..

.. وقوله تعالى ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** ﴾ ، يعني خلافة الإنسان (نفس + جسد) لله تعالى في الأرض .. فامتلاك الجزئيّات ، والعقل الذي يربط بين هذه الجزئيّات وبين الكليّات (امتلاك الإرادة والمشيئة معاً) ، لم يُعطَ لمخلوقٍ غير الإنسان ، هذا إضافة إلى أنّه لا يُوجَدُ أيُّ ذِكْرٍ لأيّ مخلوقٍ يخلفُهُ الإنسان في سياق هذا النصّ ، ولذلك .. لا يُبرَّر لبعضهم توهّمه بأنّ هذه العبارة القرآنيّة تعني خلافة الإنسان لمخلوقٍ آخر ..

وقوله تعالى ﴿ **قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ** ﴾ دليلٌ آخر على أنّ موضوع الخلافة التي سيعطيها الله تعالى للإنسان (نفس + جسد) ، هو هذه الأسباب المسخّرة بين أيدينا .. فسواءٌ الفساد أم سفك الدماء ، هما مسألتان ماديّتان ساحتهما هذا العالم الماديّ المحسوس ، فليس من المعقول أن يُفسِدَ الإنسانُ ويَسفكَ الدماء خارج إطار ساحة المادّة والمكان والزمان ..

.. ومرتبة الوجود التي تمّ فيها الحوار بين الله تعالى وبين الملائكة ﴿ **أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ** ﴾ هي – كما رأينا في النظريّة الثانية (القدر) – خارج إطار المادّة والمكان والزمان ، وفي هذه الحالة لا غطاء للزمن ، لأنّ الزمنَ وليدُ المادّة وحركتها .. ولذلك رأت الملائكة ما يحصل الآن من فسادٍ ومن سفكٍ للدماء ، نتيجة رفع الله تعالى عنها غطاء الزمن المستقبل ، فقالت على سبيل الاستفسار لا الاحتجاج ﴿ **أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ** ﴾ ..

وفي هذه المرتبة من الوجود حيث الأنفس البشريّة مجرّدة عن عالم المادّة والمكان والزمان ، فإنّ آدم (النفس) لم يكن يعلم من صفات عالم الجزئيّات (موضوع

خلافة الإنسان لله تعالى) شيئاً ، وكذلك الملائكة التي تدرك الكليّات ولا تدرك الجزئيّات .. وكذلك كلُّ المخلوقات ، لأنّ امتلاكَ العقل لإدراك الجزئيّات والانطلاق من هذا الإدراك نحو الكليّات ، خاصٌّ – من بين المخلوقات – بالإنسان (نفس + جسد) ، وهذا هو عطاء الله تعالى لمن سيجعله خليفة له في الأرض ..

.. ولذلك هيّأ الله تعالى آدم النفس (قبل حلول هذه النفس في الجسد) لهذه الخلافة .. فعلّمه صفات الأشياء وخواصّها وميّزاتها ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا** ﴾ .. وحينما يقول الله تعالى ﴿ **ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا** ﴾ ، فهذا يعني الأسماءَ كلّها ..

.. ولمّا كان هذا التعليم في عالم الأنفس المجرّدة ، ما فوق عالم المادّة والمكان والزمان ، فإنّه بإلهامٍ من الله تعالى دون أيِّ زمنٍ .. فبلازمن تعلّم آدم (النفس) صفات كلّ الأشياء وخواصّها (مسمّياتها) .. ومن هنا ورث العقل البشري إمكانيّة تعلّم خواصّ المادّة والتفاعل معها ، وإمكانيّة تسخيرها وفق مُراد النفس البشريّة ..

وقد رأينا في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) كيف أنّ الأسماء التي علّمها الله تعالى لآدم عليه السلام في هذه المرتبة من الوجود ، هي ذاتها المفردات القرآنيّة ، التي يقع تحت ما تصفه وتسمّيه كلُّ شيءٍ في هذا الكون ، وذلك من منظار الوصف الحقّ الذي يعلمه الله تعالى ، حيث برهنّا – عبر برهانٍ رياضيٍّ – أنّ واحدة المعنى في القرآن الكريم هي الحرف وليس الكلمة ، وهذا ما كان ليكون إلاّ إذا كانت المفردة القرآنيّة فطريّة موحاة من الله تعالى ..

.. وعلى الرغم من إلهام الله تعالى لآدم عليه السلام بتعليمه هذه الأسماء ، فإنّ آدم في هذه المرحلة لم يكن نبيّاً ولا رسولاً ، فهو – آنذاك – آدم النفس المجرّدة ، خارج إطار حمل أمانة التكليف المعروضة ..

.. وقوله تعالى ﴿ **ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ** ﴾ يبيّن لنا أنّ الله تعالى عرض على الملائكة الأشياء (أصحاب الأسماء) التي علّم أسماءَها لآدم عليه السلام .. وفي هذا دليلٌ آخر على أنّ موضوعَ خلافة

الإنسان لله تعالى هو القوامة على هذه الأشياء ، بغية تسخيرها ودفعها باتّجاه مُــراد الحقّ .. وفي هذا دليلٌ آخر – أيضاً – على أنّ الله تعالى رفع غطاء الزمن المستقبل ، فرأت الملائكة الأشياء التي ستكون حتى قيام الساعة ، والتي منها أعمــالُ الفســاد وسفك الدماء ، التي استفسرت عنها الملائكة ، حيث قالت ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ** ﴾ ..

.. وقوله تعــالى ﴿ **قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ** ﴾ ، يبيّن لنا عجز الملائكة عن إدراك الجزئيّات (موضوع الخلافة وموضوع حمل الأمانة) ، وبالتالي يبيّن لنا عدم قدرة الملائكة على إدراك صفات الأشياء ، وأنّ علم الملائكة وإدراكها هو للكليّات ، وبتعليم مباشر من الله تعالى ..

وقوله تعــالى ﴿ **قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** ﴾ يؤكّد لنا – من جديد – أنّ امتلاك معرفة صفات الأشياء ، والتفاعل مع الجزئيّــات للانطلاق منها – عقلاً – نحو الكليّات ، هو موضوع الخلافة التي أعلمها الله تعــالى للملائكة ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ** ﴾ ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ تبيّن لنا كشفَ غطاء غيب الزمن المستقبل أمام الملائكة ، حينمــا رأت أصــحابَ المسمّيات التي علّمها الله تعالى لآدم عليــه الســلام ﴿ **وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ** ﴾ ، فما سيكون من أشياءٍ ، ومن تفاعلٍ للبشر مــع هــذه الأشياء ، هو غيبٌ لا يعلمه إلاّ الله تعالى ، ولو لم يرفع الله تعالى عن الملائكة غطــاء غيب الزمن المستقبل ، لما رأت ذلك ..

ودليلٌ آخر على أنّ أمانة التكليف التي عُرِضَت وحملها الإنسان (وكذلك خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض) ، هي امتلاك القدرة على التفاعل مع الأسباب (الجزئيّات) ، أنّ الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام بعد تسويته جسداً كاملاً حيّاً (نفس + جسد) ، وبعد نفخ الصلة والقربى من الله تعالى (الروح) فيه ، وليس قبل ذلك ..

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩]

.. فَحَمْلُ الأمانة المعروضة أدّى إلى الخلافة ، والخلافة والامتحان في حمل الأمانة بدأا بعد هبوط النفس البشريّة إلى عالم المادّة ، وبعد الدخول في الجسد ..

.. والأمر الإلهي للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام ، والذي هو أمرٌ لهم بالسجود بعد نفخ الروح فيه (في آدم) ، كان قبل معصية آدم عليه السلام .. وبالتالي قبل خطيئته التي هبط بها وخرج بها من الجنّة ..

فأوّلُ امتحانٍ لخليفة الله تعالى في الأرض ، اُختير له آدم عليه السلام ، في جنّة الاختبار .. وَنَهْيُ الله تعالى لآدم عليه السلام ولزوجه بعدم الأكل من الشجرة التي حدّدها لهما ، هو في الحقيقة امتحانٌ في ساحة المادّة والأسباب (عالم الجزئيّات) ..

والقول بأنَّ الله تعالى جعل الإنسانَ خليفةً له في عالم الأسباب عبر عطاء الربوبيّة له ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾ بتمكينه من السيطرة على الأسباب المحيطة به ، وجعله قوّاماً عليها ، ودفعها باتّجاه مراده ، هذا القول لا يعني أبداً غياب قيّوميّة الله تعالى في الأرض .. أبداً .. فما أعطاه الله تعالى للإنسان في إطار هذه الخلافة هو التصرّف بالأسباب المحيطة بالإنسان تصرّفاً مستقلاً وفق ما يريده الإنسان ، بمعنى الاستفادة من النواميس الماديّة والتصرّف بها ودفعها باتّجاه مراد الإنسان ، وهذا ما لم يعطه الله تعالى لأيِّ مخلوقٍ آخر ، كما بيّنا ..

وهذه الكلمة ﴿ خَلِيفَةً ﴾ ، وردت مرّة أُخرى في كتاب الله تعالى لتصفَ ما أعطاه الله تعالى لداود عليه السلام من صلاحيّة في التصرّف للحكم بين الناس .. ﴿

يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص : ٢٦] .. فقولُه تعالى ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ يصف مسألةً يتميّزُ بها داود عن غيره من البشر ، وهذا ينفي أن تكون كلمة ﴿ خَلِيفَةً ﴾ في هذه العبارة القرآنيّة تعني خلافة الذريّة ، فكلُّ البشر (وليس داود لوحده) يخلفون بعضهم فوق هذه الأرض ..

إذاً .. كلمة ﴿ خَلِيفَةٗ ﴾ في قولِه تعالى ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ لا يمكن الجزم بأنَّها لا تعني إلاّ خلافة الإنسان لنفسه ، بمعنى أجيال يخلف بعضها بعضاً .. فهذه الكلمة ﴿ خَلِيفَةٗ ﴾ تأتي في مرّتي ورودها في القرآن الكريم بصيغة المفرد ، وضمن سياقٍ قرآنيٍّ يصوّر خصوصيّةً لم تكن سابقاً قبل الخلافة المعنيّة ، فخطاب الله تعالى للملائكة ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ ، وخطاب الله تعالى لداود عليه السلام ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ، هما خطابان خاصّان ليسا موجّهين إلى البشريّة جمعاء أو إلى أقوامٍ منها ، وهما خطابان يصوِّران لنا عطاءً من الله تعالى للتصرّف بما يعود التصرّف به إلى الله تعالى ، ولكن دون يُلغي ذلك قيّوميّة الله تعالى .. فكلمة ﴿ خَلِيفَةٗ ﴾ مُشتقّةٌ من الجذر اللغوي (خ ، ل ، ف) ، وفي ذلك بيانٌ أنَّ هذه الخلافة هي خَلْفَ قيّوميّة الله تعالى في هذه الأرض ، وليست على حسابها ..

وفي هذه النقطة علينا أن نميّز بين دلالات كلمة ﴿ خَلِيفَةٗ ﴾ من جهة ، تلك الكلمة التي لا ترد في كتاب الله تعالى إلاّ في هذين الموضعين ، وبين دلالات كلمتي [﴿ خَلَٰٓئِف ﴾ ، ﴿ خُلَفَآء ﴾] ، من جهةٍ أُخرى ، واللتين تردان في كتاب الله تعالى

بصيغة الجمع ضمن سياقٍ قرآنيٍّ موجّهة للبشريّة ولأقوامٍ منها ، لِيصوِّرَ خلافة الأجيال لبعضها بعضاً ، وذلك عبر دلالاتٍ صريحة ، تختلف تماماً عن الدلالات المحيطة بكلمتي ﴿ خَلِيفَةً ﴾ في النصيّن القرآنيّين الحاملين لها ..

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٩]

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٤]

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٤]

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس : ٧٣]

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢]

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر : ٣٩]

.. ولو فرضنا – جدلاً – أنَّ كلمة ﴿ خَلِيفَةً ﴾ في قولـه تعـالى ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ تعني خلافة الإنسان للإنسـان ، فلماذا – إذاً – قالت الملائكة ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ مقارنة ذلك بتسبيحها لله تعالى وتقديسها له ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ ؟ .. ولماذا علّم الله تعالى آدمَ الأسماءَ كلَّها وعجزت الملائكة عن الإنباء بهذه الأسمـاء ؟ .. ولماذا أُمرت الملائكة بالسجود لآدم عليه السلام بعد نفخ الـروح فيـه ؟ .. ولمـاذا اُختُصَّ الإنسانُ من بين جميع المخلوقات في هذا الكون بالإرادة والمشيئة معاً ؟ .. كلّ ذلك يدلّ على أنَّ الإنسان أُعطي صلاحيّة التصرّف بالأسباب والقدرة على دفعهـا باتّجاه مراده ، ضمن عطاءٍ خاصٍّ يميّزه عن غيره من المخلوقات ، هو عطاء الربوبيّـة الذي جُعل الإنسان فيه خليفةً لله تعالى في هذه الأرض ..

.. والجنّة التي اُختبر فيها آدم وزوجه ، ليست جنّـة الثـواب الـتي يدخلـها الصالحون في الآخرة ، وذلك للأسباب التالية :

١ – آدم عليه السلام في جنّة الاختبار هذه ، لحقه الغرور بقول إبليس (الشيطان) : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ [طـه : ١٢٠] .. وبالتالي لا خلد في هذه الجنّة .. بينما جنّة الآخرة هي جنّة الخلد كما يؤكّد القرآن الكريم ..

٢ – جنّة الخلد في الآخرة من دخلها لا يخرج منها ، كما يؤكِّد القرآن الكريم : ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٤٨] .. بينما جنّة اختبار آدم عليه السلام وزوجه ، تمّ خروج آدم وزوجه منها ..

٣ – جنّة الثواب في الآخرة لا يتمّ الدخول إليها إلاّ كجزاءٍ لعملٍ قام به الداخل إليها ، كما يؤكّد القرآن الكريم : ﴿ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [

النحل : ٣٢] .. ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٢] .. بينما نرى أنّ آدم عليه السلام وزوجه دخلا جنّة الاختبار قبل قيامهما بأيّ عمل ..

٤ – سنرى – إن شاء الله تعالى – في الفصل الرابع ، أنّ جنّة الآخـــرة ، لم تُخلق بعد ، خلقاً ماديّاً حسيّاً ، وهذا ينفي أن تكونَ جنّة الاختبار (التي دخلها آدم عليه السلام وزوجه) هي ذاتها جنّة الآخرة ..

.. ودليلٌ آخر على أنّ ساحةَ الخلافة وساحةَ الأمانة المعروضة ، هي ساحة المادّة والأسباب ، أنّ هبوطَ آدم وزوجه من جنّة الاختبار ، هو هبوطٌ في الهيئة والخلقة (في ماهيّة الجانب الجسدي) .. فآدم وزوجه قبل الأكل من الشجرة التي نهاهما الله تعالى عنها ، كانا لا تبدو لهما سوءاتهما ، وبدت لهما سوءاتهما بعد الأكل من تلك الشجرة ﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ [الأعراف : ٢٢] .. فساحة الاختبار (الجنّة التي اُمتحن فيها آدم وزوجه) ماديّة ، وعنصر الامتحان (الشجرة) ماديٌّ ، والنتيجة (الهبوط في ماهيّة الخلق وصفات الجسد) ماديّة ..

.. فنتيجة لمعصية آدم عليه السلام وزوجه في جنّةِ الاختبار ، حيث ذاقا الشجرة التي نهاهما ربّهما عنها .. نتيجة لذلك ، تغيّرت الماهيّة الجسديّة لهما ، فبدت لهما سوءاتهما ..

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾ [الأعراف : ٢٢]

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طـــه : ١٢١]

.. وفي العبارة القرآنيّة ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ ﴾ ، نرى أنَّ كلمة ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا ﴾ هي من الجذر اللغوي (د ، ل ، و) ، وليس من الجذر (د ، ل ، ل) ، وهذا

يُؤكِّدُ صحّةَ ما نذهبُ إليه في وصفِ ماهيّةِ الهبوط الذي تمّ لآدمَ عليه السلام وزوجِه .. فالدلالات المجرّدة للجذر اللغوي (د ، ل ، و) في القرآن الكريم تحملُ معنى الهبوط ، سواءٌ كان ذلك في الجانب المادّي أم المعنوي :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٨]

﴿ وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ ۖ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف : ١٩]

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ٨ – ١٠]

.. فبواسطة الغرور **﴿ بِغُرُورٍ ۚ ﴾** ، هبط الشيطانُ بآدم عليه السلام وزوجه إلى المعصية **﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ ﴾** ، وبالتالي ذاقا الشجرة وهبطا كقيمة جسديّة .. هذا ما نقرؤه من كَوْنِ كلمة **﴿ فَدَلَّىٰهُمَا ﴾** المتفرّعة من الجذر اللغوي (د ، ل ، و) ، في الآية الكريمة : **﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ ﴾** [الأعراف : ٢٢]

.. وهكذا .. لو لم يعص آدمُ عليه السلام وزوجُه أمرَ الله تعالى ، لما تغيّرت الماهيّة الجسديّة له ولزوجه ، ولما هبطت عن قيمتها التي كانت عليها ، بمعنى لما بدت لهما سوءاتهما ..

.. ولمعرفة معنى هبوط القيمة الجسديّة لآدم وزوجه – نتيجة هذه المعصية – وبالتالي لمعرفة معنى الهبوط الجسدي لبني آدم في حياتهم الدنيا ، لنقارن بين إنسانٍ لا يغتسل ولا يقلّم أظافره ولا يحلق شعرة ولا يقوم بأيّ نوعٍ من أنواع النظافة .. لنقارنه مع حيوانٍ ما ((لا يقوم بطبيعة الحال بكلّ هذه الأعمال لأنّ ماهيّة جسده

ليست بحاجة إلى كلّ ذلك)) .. سنجد في هذه المقارنة أنّ جسدَ الإنسان أكثرُ هبوطاً من غيره ..

.. إذاً هذا الجسد الإنساني الهابط (حيث الأمراض التي تصيب الجسد الإنساني أضعاف الأمراض التي تصيبُ أيّ حيوان) ، وهذه الأعضاء التناسليّة بماهيّتها الدنيويّة ، إنّما نشأت نتيجة تلك المعصية .. وبالتالي فإنّ أكمل جسدٍ بشريٍّ خلقه الله تعالى هو جسدُ آدم عليه السلام (قبل المعصية والهبوط) ..

.. وهذه المعصية وهذا الهبوط ، نتيجته الخروج من جنّة الاختبار تلك .. ونتيجته التوالد من خلال الأعضاء التناسليّة التي ظهرت نتيجة تلك المعصية ..

.. فأكملُ جسدٍ بشريٍّ خلقه الله تعالى (جسد آدم قبل المعصية) لم يأت من خلال توالدٍ عبر أعضاء نتجت عن تلك الخطيئة ، إنّما كان نتيجةَ خَلْقِ الله تعالى له مباشرة من التراب ..

.. وهذه السنّة الإلهيّة ، وهذه الفلسفة القرآنيّة المطلقة ، ناموس ثابت لا يتغيّر ولا يتبدّل ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاً ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣] .. فالكمال الجسدي لجسد آدم عليه السلام (قبل المعصية) ، وهبوط القيمة الجسديّة له – ولذريّته – نتيجة تلك المعصية .. هذا الناموس الإلهيّ ، نقرؤه في ماهيّة خلق جسد عيسى عليه السلام .. حيث هذا الجسدُ وعاءٌ لنفسٍ تتميّز عن باقي الأنفس البشريّة بأنّها وُلدتْ مليئةً بالروح ..

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٌ مِّنۡهُ ۖ ﴾ [النساء : ١٧١]

.. فقوله تعالى ﴿ وَرُوحٌ مِّنۡهُ ۖ ﴾ ، يُبيّن لنا أنّ نفسَ عيسى عليه السلام مليئة بالروح منذ ولادتها ، وهذه صفةٌ تتميّزُ بها نفسُ عيسى عليه السلام عن باقي البشر

دون استثناء .. ولذلك وُلد عليه السلام نبيّاً ، وآتاه الله تعالى الكتاب في ذات اللحظة التي نُفِخَ روحُه في مريم عليها السلام ..

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٢٩ – ٣٠]

.. هذا الكمال النفسي ، يقتضي – حسب الناموس الإلهي – جسداً مختلفاً عن الأجساد التي تُولد نتيجةَ أعضاءٍ تناسليّة ، ظهرت نتيجة معصية أبينا آدم عليه السلام في الجنّة ..

.. ولذلك فجسدُ عيسى عليه السلام لم يُخلق من اجتماعِ نطفةٍ مع بويضة كباقي البشر .. وهو في ذلك كمثلِ خَلْقِ جسدِ آدمَ عليه السلام ..

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩]

ومريم عليها السلام لم تحمل بعيسى عليه السلام كباقي الإناث ، فمدّةُ الحمل لم تتجاوزْ فترةً محدودة ، وفي تتالي فاء التعقيب في النصّ القرآني التالي ، إضافة إلى البيان الإلهي أنّ خلق جسد عيسى عليه السلام كمثلِ خَلْقِ جسد آدم عليه السلام .. في ذلك أكبر برهان على صحّة ما نذهب إليه ..

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَـٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم : ٢٢ – ٢٤]

وحتى مريم عليها السلام ، كانت لها خصوصيّتُها التي تميّزها عن باقي الإناث ، فقوله تعالى : **﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾** الذي يتوسّط تصويرَ الله تعالى لقولِ أمّها حين وضعتها : **﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ**

وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران : ٣٦] .. هذا القول : **﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾** ، إضافة إلى قول الملائكة لها : **﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾** [آل عمران : ٤٢] ، يُؤكّد تميّزها عن باقي النساء ، ويؤكّد طهارتها – كأنثى – ويُؤكّد أنّها لا تحيظ كباقي النساء ((حيث الحيض نقيض الطهارة ، وهي طاهرة دائماً)) .. وبالتالي يُؤكّد – إضافة لما بيّنا – أنّها ليست أكثر من حامل لعيسى عليه السلام ساعات محدودة ..

وحتّى جسدها عليها السلام ، فقد أنبته الله تعالى نباتاً حسناً من خلال رزق خاصٍّ رزقها إياه اللهُ تعالى ، وكان ذلك نتيجة أن تقبّلها الله تعالى قبولاً حسناً ، حيث أعاذها وذريّتها من الشيطان الرجيم ..

.. فكونُ الله تعالى أعاذها وذريّتها من الشيطان الرجيم ، وهيأها لتحمل جسداً يحملُ نفساً مليئةً بالروح (عيسى عليه السلام) ، اقتضى – حسب الناموس الإلهي – أن يُنبتها نباتاً حسناً ، وأن يُميّزها – عليها السلام – عن باقي نساء البشر ، بماهيّة جسديّة ونفسيّة ..

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٦ – ٣٧]

.. فالرزق الذي رزقها إياه اللهُ تعالى ، والذي له ماهيّته المختلفة عن رزق الدنيا الذي يأكلُ منه أفرادُ جيلها ، له تعلّقه بكونِها متميّزة عن باقي النساء (كما رأينا) ،

وبكونِها مُهيّأةً لحمل عيس عليه السلام ، كجسدٍ – نعني جسد عيسى عليه السلام – خلقه الله تعالى من التراب دون آليّة جنسيّة ودون اجتماع النطفة مع البويضة ، وكنفسٍ – نعني نفس عيسى عليه السلام – مليئةٍ بالروح ، آتاها الله تعالى الكتاب في ذات اللحظة التي نُفِخَ فيها روح عيسى في مريم عليهما السلام ..

.. وممّا يُشيرُ إلى أنّ الرزقَ الذي رزقها إياه اللهُ تعالى ، هو تهيأة لحمل عيسى عليه السلام ، وأنّها كانت – قبل ولادة عيسى عليه السلام – لا تأكل إلاّ من ذلك الرزق ، أنّها بعد أن جاءها المخاض ، وفي الوقت الذي ناداها(*) عيسى عليه السلام من تحتها ، قال لها : ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ ﴾ :

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٢ – ٢٦]

(*) – بيّنا في النظريّة السادسة (سُلّم الخلاص) وفي كتاب : المعجزة الكُبرى (حوار أكثر من جريء) أنّ الذي نادى مريم عليها السلام من تحتها هو عيسى عليه السلام ، وذلك بأكثر من معيار .. من هذه المعايير أنّ مجموع الكلمات التي قيلت لها من تحتها هو (٣٣) كلمة ، وهذا يُقابل عدد سني لبث عيسى عليه السلام قبل أن يرفعه اللهُ تعالى إليه ..

﴿ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٤ – ٢٦] = **٣٣** كلمة ..

.. فأكلها لطعامٍ يختلف عن الرزق الذي يأتيها من عند الله تعالى ((كتهيئة لحمل عيسى عليه السلام)) ..... هذا الطعام المختلف عن الرزق الذي آتاها إياه اللهُ تعالى : ﴿ **وَهُزِّىٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ۝٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ** ﴾ ، يُساعد في خروج عيسى عليه السلام من فرجها .. فمهمّتها التي هُيّئت لها ، والتي لها تعلّقها بالرزق الذي يأتيها من عند الله تعالى ، قد انتهت عند المخاض حيث ولادة عيسى عليه السلام ..

.. ومريم عليها السلام نُفخ فيها من الروح (بمعنى الصلة والمدد والقربى من الله تعالى) كونها أحصنت فرجها ..

﴿ **وَٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٩١]

.. إنَّ كلمة ﴿ **فِيهَا** ﴾ في قوله تعالى ﴿ **فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا** ﴾ تعود إلى التي أحصنت فرجها ، وبالتالي تُؤكِّدُ أنَّ الروح – المعني هنا – نُفِخَ في نفس مريم عليها السلام ، بمعنى أنَّ الله تعالى أعطاها الصلة والمدد والقربى منه جلّ وعلا كونها أحصنت فرجها .. وهذا الروح الذي نُفخَ في نفس مريم عليها السلام ، هو أمرٌ آخر غير الروح الذي نُفِخَ في فرجها والذي يتعلّق بعيسى عليه السلام ..

.. بينما في قوله تعالى : ﴿ **وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ** ﴾ [التحريم : ١٢] .. فإنّ نفخَ الروح – هنا – يعني نفخ عيسى عليه السلام (كنفس مليئة بالروح) في فرج مريم عليها السلام .. فكلمة ﴿ **فِيهِ** ﴾ في قوله تعالى ﴿ **فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا** ﴾ تُؤكّد أنّ النفخ في فرج مريم عليها السلام ، وليس في ذاتها ، كما هو حال نفخ الروح في الآية السابقة ..

وما نراه أنَّ اسم مريم يرد صراحةً في العبارة القرآنيّة المصوِّرة لنفخ عيسى في فرجها : **﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾** [التحريم : ١٢] .. فهذه القصّة لن تتكرَّر ولا بأيِّ شكل ، فلا يمكن لأنثى أن تلد دون رجل إلاّ مريم عليها السلام ، ولذلك نرى أنَّ الاسم **﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ﴾** يتصدّر هذه العبارة ..

بينما لا نرى ورود اسم مريم عليها السلام بشكلٍ صريحٍ في العبارة المصوِّرة لنفخ الروح في ذاتها ، بمعنى إعطائها من الصلة والمدد الإلهي (الروح) كونها أحصنت فرجها : **﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾** [الأنبياء : ٩١]

فلهذه الحالة إسقاطات نسبيّة في كلِّ زمانٍ ومكان ، فكلُّ طفلةٍ بريئةٍ تُحصن فرجها ، تحصل على مدد الله تعالى وقربه ، وتزداد كميّة الروح فيها ، بنسبة تتناسب ودرجة الإحصان والخلاص والنقاء التي وصلت إليها ..... صحيحٌ أنَّه لن تصل أنثى – في التاريخ – إلى الدرجة التي وصلت إليها مريم عليها السلام ، ولكن هناك إسقاطات نسبيّة لهذه الحالة تتكرَّر في كلِّ زمانٍ ومكان ، ولذلك نرى العبارة القرآنيّة المصوِّرة لهذه الحالة غير حاوية على اسم مريم عليها السلام كما هو الحال في العبارة السابقة ..

ونرى حكمةً عظيمةً في كوْن خلْقِ جسدِ عيسى عليه السلام من التراب مباشرة ، دون نطفةٍ وبويضةٍ كباقي البشر ، وذلك من عدّة مناظير :

١ – نفس عيسى عليه السلام الممتلئة بالروح والتي لا تعرف الخطيئة ، والتي تتميّز – بذلك – عن أنفس جميع البشر ، لا بدَّ لها من جسدٍ (وعاءٍ) خُلق دون أعضاءٍ نتجت عن الخطيئة ، ولذلك كان جسد عيسى عليه السلام دون نطفة وبويضة ، ودون آليّةٍ جنسيّةٍ ناتجة عن الخطيئة الأولى ..

٢ – إنَّ امتلاء النفس بالروح يعني أنَّها ستترك الجسد الدنيوي الهابط [أجسادنا التي تتوالد من أعضاءٍ نتجت عن الخطيئة الأولى] وتعرج إلى الله تعالى ، كما حصل في معراج النبيّ ﷺ ، حيث عرج ﷺ إلى الله تعالى حينما امتلأت نفسه (وقت العروج) روحاً .. ونفس عيسى المليئة بالروح دائماً ﴿ **وَرُوحٌ مِّنْهُ** ﴾ لا بدَّ لها من جسدٍ مميّزٍ مختلفٍ عن أجسادنا حتى تبقى مستقرّةً في عالم الدنيا ، وإلاّ فستترك جسدها وتعرج إلى الله تعالى .. لذلك كان جسد عيسى عليه السلام بخصوصيّته التي بيّنها لنا القرآن الكريم ..

٣ – جسد عيسى عليه السلام بهذه الخصوصيّة المميّزة عن أجساد باقي البشر ، ضرورة لا بدَّ منها لمعرفة هويّته عليه السلام في نزوله الثاني ، ففي نزوله الثاني يتمُّ التعرّف عليه عبر خصوصيّة جسده المختلفة ، وبناء على ذلك يؤمن به كلُّ أهل الكتاب في نزوله الثاني وقبل موته ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا** ﴾ [النساء : ١٥٩] .. وقد بيّنا ذلك بشكلٍ جليٍّ في كتاب المعجزة الكبرى (حوار أكثر من جريء) ..

.. إذاً .. ناموس الله تعالى لا يتبدّل ولا يتغيّر ، فبعد خطيئة آدم عليه السلام هبط جسدُه إلى ماهيّةٍ أدنى ممّا كان عليه ، وبعد أن تاب الله تعالى عليه واجتباه ، بعد ذلك أتته النبوّة ..

﴿ **فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ** ﴾ [طه : ١٢١ – ١٢٢] .. فالنبوّة لا تكون إلاّ في دار التكليف والامتحان ، وهي دار خلافة الإنسان لله تعالى على هذه الأرض ..

.. وهكذا .. فنتيجةٌ للامتحان الأوّل في جنّة الاختبار الماديّة ، يتمّ هبوط جميع الأنفس البشريّة إلى عالم الامتحان (عالم الجزئيّات) في أجسادٍ بشريّةٍ أدنى خَلْقاً من

ماهيّة جسد آدم وزوجه قبل هبوطهما .. فوجٌ يدخل دنيا الامتحان بالميلاد ، وفوجٌ يخرج منها بالموت ، وهكذا في كلّ لحظة حتى قيام الساعة ..

﴿ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨]

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طــه : ١٢٣ – ١٢٤]

.. فعمر الإنسان هو في الحقيقة فترة امتحانه لحمل الأمانة التي اختار حملها في عالم الأنفس ، وهو في الحقيقة فترة خلافته لله تعالى في الأرض .. فلو لم يختر – الإنسانُ – حملَ الأمانة ، لما كان خليفةً لله تعالى في هذه الأرض ، وبالتالي لما وُلد في هذه الدنيا في جسدٍ حيٍّ .. من هنا نرى أنّ وجودنا في هذا العالم المادّي المحسوس ، لنا فيه وجهٌ من أوجه الاختيار ..

.. والنفس البشريّة حينما تعلم شيئاً ما من جزئيّات هذا العالم ، لا بدّ لها من تصوّر هذا الشيء زماناً ومكاناً .. وفور نزول هذه النفس إلى عالم الدنيا تكون غير مالكةٍ للتصوّر المكاني والزماني للأشياء ، ومع الزمن تُكوِّن أليّاتها لعلم الأشياء ، عن طريق تكامل إدراكها لتصوّر الإطار الزماني والمكاني المحيط بالأشياء .. هذه الحقيقة نراها واضحةً في الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨]

.. وكنّا قد بيّنا أنّ وَضْعَ الله تعالى لِكلمة **﴿ شَيْـًٔا ﴾** دون كلمة (أمــراً) في هذه الآيةِ الكريمة : **﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴾** ،

يصفُ الإنسانَ حينما يخرج من بطن أمّه بأنّه لم يكن – حين ذلك – يعلم أيَّ شيءٍ من جزئيّات عالم الحس والمشيئة ، تلك الجزئيّات التي يُطلق عليها اسمُ الأشياء ، حيث تنتمي إلى عالم الخلق ..

بينما الفطرة النقيّة الناتجة عن نفخ الروح في كلِّ مولود ، فإنّها غير مشمولة بكلمة ﴿ شَيْـًٔا ﴾ ، كونها لا تنتمي إلى عالَم الأشياء ، أي لا تنتمي إلى عالَم الخلق .. فهي تنتمي إلى عالم الأمر ، كما يُبيّنُ لنا اللهُ تعالى ..

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥]

.. ولذلك نرى أنّ النفسَ – في الحياة الدنيا – لا يمكنها الوقوف على حقيقة الأمور المجرّدة عن المادّة ، ولا تصوّرها إلاّ بعد أن تُلبِسَها ثوبَ المادّة والمكان والزمان .. فهل يمكننا أن نتصوّرَ أيَّ عددٍ كحقيقة مجرّدة ؟ .. لا يمكننا ذلك ، وكلُّ تصوّرنا له أن نتصوّرَ مجموعةً من الأشياء المادّيّة ، عدد واحداها يساوي هذا العدد ..

.. فالحقائق التي لا تنتمي إلى هذا العالم المادّي ، لا يمكننا الوقوف على حقيقتها وقوفاً كاملاً ، ولا تصوّرها تصوّراً حقيقيّاً ، وذلك في عالم الدنيا هذه ، لأنّ أنفسنا – في الحياة الدنيا – تصل إلى الكليّات عن طريق إدراك الجزئيّات وتعقّلها .. والحقائق التي تنتمي إلى عالم الأمر ، وإلى كلِّ ما وراء عالم المادّة والمكان والزمان ، لا تتكوّن أصلاً من جزئيّات مادّيّة ..

.. إنّ النفس البشريّة – في الحياة الدنيا – تملك بصراً (معنويّاً) ترى من خلاله الكليّات التي تنتمي إلى عالم الأمر ، والتي نستشفّها من الجزئيّات التي تخضعها لحواسّنا .. ولذلك فالذي لا يعقل الكليّات نتيجة إحساسه وإدراكه للجزئيّات ، هو أعمى البصيرة ..

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ﴾ [هود : ٢٠]

.. إذاً عَبْرَ الأبصار (الجانب المعنوي ، وليس المادّي المرتبط بالآليّة العينيّة) نُدرك الحقائق ما وراء هذه الجزئيّات ... ولّما كان الله تعالى فوق هذه الحقائق ، وإليه يعود عالمي الخلق والأمر ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٤] .. فإنّ هذه الأبصار لا تستطيع إدراكه جلّ وعلا ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] ..

.. إنّنا نرى أنّ هذه الصورة القرآنيّة لم تأت على الشكل (لا تدركونه بأبصاركم وهو يدرككم ببصره) ، لأنّ الله تعالى ليس كالكليّات التي وراء هذا العالم المادّي ، إنّما هو فوق الكليّات ، وإليه تعود هذه الكليّات .. ولذلك حتى هذه الأبصار التي تُدرك الكليّات لا تدركه جلّ وعلا ، وهو يُدرك ليس وجودنا فحسب ، وإنّما يُدرك – أيضاً – الأبصار التي نُدرك من خلالها الكليّات ، لذلك نرى أنّ الصورة القرآنيّة هي : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ ﴾ ..

.. ولّما كان إدراكُ النفس البشريّة – في الحياة الدنيا – للكليّات أسيرَ إدراك هذه النفس للجزئيّات ، وأسيرَ العقل في الانتقال من هذه الجزئيّات إلى الكليّات ، فإنّ كلَّ الجزئيّات المادّيّة في هذا الكون ، لا تكفي أن يكون إدراكُها – مهما كبر العقل والتصوّر – مقدّمةً لإدراك ما فوق الكليّات (الله تعالى) ، ولرؤيته جلّ وعلا .. هذه الحقيقة يبيّنها الله تعالى بياناً جليّاً لمن أراد معرفتها ..

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ

لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٣]

.. واضحٌ أنّ موسى عليه السلام طلب (عبر صفة الربوبيّة التي تتعلّقُ بتسخير الأسباب الماديّة للبشر) طلب أن يجعله اللهُ تعالى متمكّناً من رؤيته جلّ وعلا .. فقوله ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ يؤكّد ذلك .. فموسى عليه السلام (نفس + جسد) يطلب من ربّه جلّ وعلا أيَّ آليّة تمكّنه من رؤيته ..

.. ويأتي الجواب من الله تعالى واضحاً جليّاً ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ ، فلا تُوجَد أيُّ آليّة في العالم الذي نُمتَحن فيه تُمكّننا من رؤية الله تعالى .. فكلُّ الجزئيّات التي نستطيع إدراكها في هذا العالم ، أقلّ من أن تكونَ مقدّمةً لإدراك خالقها ولرؤيته جلّ وعلا ..

وكلُّ آليّات الرؤيا في هذا العالم المادّي ، هي في النهاية إحاطة أبصارنا بالمرئي ، أي خضوع المرئي لقانون المكان ، وبالتالي الزمان ، خضوعاً تُحيط به أبصارنا .. وتعالى الله علوّاً كبيراً من أن تُحيط به أيُّ آليّة بصريّة من آليّات رؤيتنا في هذه الدنيا ..

.. فعند العبارة القرآنيّة ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ تمّت الإجابة على سؤال موسى عليه السلام .. فالرؤية غير ممكنة – في هذا العالم – مهما كانت الآليّة التي من الممكن أن يتمتّعَ بها موسى عليه السلام أو غيرُه ..

فقول موسى عليه السلام ﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ ﴾ يعني – كما قلنا – اجعلني ولو بأيّ آليّة أنظر إليك ، وبالتالي فجواب الله تعالى ﴿ لَن تَرَىٰنِى ﴾ على سؤال موسى عليه السلام ، يعني لن تراني ولا بأيِّ آليّة ماديّة من الآليّات الموجودة في عالم المادّة الذي نُمتحن فيه ..

وقوله تعالى ﴿ وَلَـٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ ﴾ ، هو استدراكٌ ، يتّصل بما قبله على سبيل توضيح وتبيين سبب عدم رؤية الله تعالى في الدنيا ..

.. فاختيار الجبل لتبيين عدم إمكانيّة الرؤية ، ليس اختياراً عشوائيّاً ، وَجَعْلُ الجبل دكّاً حينما تجلّى الله تعالى له ، ليس لأنّه رأى الله تعالى ، فالجبل لا يرى الله تعالى ، ولا غير الله تعالى ، لأنهّ جمادٌ .. والزعم بأنّ الله تعالى خلق في هذا الجبل حياةً ، ورؤيةً متعلّقةً بذات الله تعالى ، ثمّ جعله دكّاً بعد الرؤية ، هو زعمٌ لا برهان عليه ، وهو جهلٌ مُسبق الصنع كمقدّمةٍ لنتيجةٍ يُسقطها صريح البيان القرآني ..

.. الله تعالى يقول لنا من خلال هذه الصورة القرآنيّة .. إنّ الطاقة المُودَعة في جسم هذا الجبل ، وفي أيِّ جسمٍ مادّيٍّ كجسم موسى عليه السلام ، والتي تدور داخل حيّز المكان الذي يشغله هذا الجسم المادّي ، والتي تُعطي الجسمَ المادّيَّ حيثيّات وجوده في كلِّ لحظةٍ بقوّة الله تعالى وأمره كما رأينا في الفصل السابق .. هذه الطاقة تتلاشى أمام نور الله تعالى إذا تجلّى لهذا الجسم المادّي .. فرؤية الله تعالى تعني تجلّي الله تعالى أمام من يُريد هذه الرؤية ، ولكن من أين لمادّة جسمه أن تتحمّلَ النور الإلهي العظيم ؟ ..

وكيف من الممكن لعاقل أن يتصوّر إمكانيّة رؤية الله تعالى في عالم الدنيا ، ورؤيتنا للأشياء في عالم الدنيا لا تكون إلاّ بإحاطة أبصارنا بالمرئي ؟! .. أي بخضوع المرئي لقوانين المكان والزمان .. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ..

.. من هنا نقول .. إنّ قولَ بعضهم بأنّ الله تعالى علّق رؤيته على شيءٍ ممكن الوقوع ، هو استقرار الجبل مكانه ، هو قولٌ مردود بكلِّ المعايير :

١ — الله تعالى لم يقل (لن تراني حتى يستقرّ الجبل مكانه) .. وحتى لو فرضنا جدلاً أنّ الله تعالى قال ذلك ، فالرؤية — في الدنيا — غير ممكنة ، لأنّ الجبل لم يستقرّ مكانه ، كما يؤكّد الله تعالى في الآية ذاتها ..

٢ – الاستدراك في الصورة القرآنيّة ﴿ **وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ** ﴾ ، يؤكّد الانتقال إلى قضيّةٍ أُخرى ، تُبيّن السبب في عدم إمكانيّة الرؤية .. فتجلّي الله تعالى للجبل ، وما ترتّب عليه من زوال ، ليس من أجل أن يراه الجبلُ ، بل من أجل أن يقولَ لنا ، إنّ الجسم المادّيّ كأجسامكم وكآليّاتكم للرؤية ، لا يتحمّل نورَ الله تعالى إذا تجلّى له من أجل الرؤية ، أو من أجل غير الرؤية .. ولذلك نرى أنّ موسى عليه السلام خرّ صعقاً نتيجة إدراكه هذه الحقيقة ..

وكما رأينا بأنَّ موسى عليه السلام طلب (عبر صفة الربوبيّة التي تتعلّقُ بتسخير الأسباب المادّيّة للبشر) طلب أن يجعله اللهُ تعالى متمكّناً من رؤيته جلّ وعلا : ﴿ **رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ** ﴾ ، نرى أنَّ التجلّي كان – أيضاً – عبر صفة الربوبيّة : ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ** ﴾ .. وهذا يُؤكّدُ صحّةَ ما نذهب إليه في تفسيرنا لهذه الآية الكريمة ، من أنَّ صفة الربوبيّة بما تعنيه من قوّامة على كلِّ الأسباب والجزئيّات في هذا العالم ، والتي منها الطاقة المودعة في جسم هذا الجبل ، هذه الصفة حينما تتجلّى على كائنٍ حسّيٍّ كالجبل لا بدَّ أن يزول من مكانه ..

وزعمهم بأنّ سؤال موسى عليه السلام لكي يرى الله تعالى ، هو دليلٌ على إمكانيّة الرؤية ، لأنّه – حسب ما يزعمون – لو كانت الرؤية ممتنعة لما سألها موسى عليه السلام ، وأنّه – حسب ما يزعمون – إذا قلنا إنّ موسى عليه السلام لم يكن عالماً بإمكانيّة عدم الرؤية ، فإنّ ذلك انتقاصٌ منه ومن نبوّته .. هذا الزعم مردود ، وذلك للأسباب التالية :

١ – قول موسى عليه السلام ﴿ **رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ** ﴾ ، هو إقرارٌ منه عليه السلام ، بأنّه لا يستطيع رؤية الله تعالى بآليّته العينيّة التي ينظر من خلالها إلى هذا العالم ، وهو يطلب أيَّ آليّة أُخرى ليرى الله تعالى بها .. فهو يقول ربِّ اجعلني أقدر

على أن أنظر إليك وأراك ، أي أُريد أيَّ آليّة أُخرى للنظر إليك ولرؤيتك ، فموسى عليه السلام لم يكن جاهلاً بأنّ الآليّة العينيّة لا تمكّنه من رؤية الله تعالى ..

٢ – وأين المشكلة في أن يطلب نبيٌّ رسولٌ كموسى عليه السلام طلباً غير ممكن ؟!!! .. ألم يطلب نوحٌ عليه السلام من الله تعالى طلباً غير ممكن ؟!!! ..

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [هود : ٤٥ – ٤٧]

.. أليس قوله تعالى **﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾** دليلاً على أنّ نوحاً عليه السلام سأل سؤالاً عن غير علمٍ ؟ .. وأليس قول نوحٍ عليه السلام **﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾** هو إقرارٌ منه عليه السلام أنّه طلب من الله ما هو غير ممكن ؟ .. وأنّه سيصبح من الخاسرين إن لم يغفر الله تعالى له هذه الخطيئة ؟ ..

٣ – موسى عليه السلام بعد أن أفاق من الصعقة ماذا قال ؟ : **﴿ وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾** .. إنّ قوله : **﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾** هو تنزيهٌ لله تعالى عمّا تقدّم ذكره من طلبه رؤية الله تعالى ، لأنّ ذلك يقتضي – كما أيقن موسى بعد أن دُكّ الجبل – خضوعَ الله تعالى لقوانين المكان والزمان ، والله تعالى منزّه عن ذلك .. فنفي رؤيتنا لله تعالى في عالم المادّة والحسّ ، هو تنزيهٌ له جلّ وعلا ، لأنّ الزعمَ بإمكانيّة الرؤية يُلحق النقائص والنقائض

بالذات الإلهيّة ، والله تعالى منزّه عن هذه النقائص والنقائض .. هذا ما تصوّره لنا الكلمة الأولى التي قالها موسى عليه السلام ﴿ سُبْحَـٰنَكَ ﴾ ، بعد أن أفاق ..

٤ – قول موسى عليه السلام ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، تأكيدٌ على أنّه بطلبه رؤية الله تعالى قد طلب طلباً – فيما لو كان ممكناً – يُلحق النقائص والنقائض بالذات الإلهيّة ، وبالتالي فموسى عليه السلام طلب من الله تعالى قبول توبته نتيجة طلبه هذا ، ويؤكّد أنّه أصبح أوّلَ المؤمنين بأنّ رؤية الله تعالى في هذا العالم المادّي المحسوس غير ممكنة ، ولا بأيِّ آليّة ، لأنّ كلَّ الآليّات المادّيّة لا تصلح لأن تكون مقدّمةً لإدراك ما فوق الكليّات ، ولرؤيته جلّ وعلا ..

.. إذاً رؤية الله تعالى في الدنيا مستحيلة .. أمَّا بالنسبة لرؤية الله تعالى في الآخرة ، فقد تمَّ الاختلاف فيها بين نافٍ لها ، محتجّاً بكلمة ﴿ لَن ﴾ في قوله تعالى ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] ، وبين مؤكّدٍ لوقوعها محتجّاً بالنصّين التاليين :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ – ٢٣]

﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطفّفين : ١٥]

.. ولنقف عند الرأي الأوَّل الذي ينفي هذه الرؤية في الآخرة ، معتبراً كلمة ﴿ لَن ﴾ في قوله تعالى ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] تفيد التأبيد الذي يشمل الآخرة ..

.. إنَّ قولَهم هذا لا يُعَدُّ دليلاً ، فقد وردت هذه الكلمة ﴿ لَن ﴾ في كتاب الله تعالى دون أن تفيد نفي المسألة المتعلّقة بها في الآخرة ..

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٩٤ – ٩٥]

فكلمة ﴿ وَلَن ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ تؤكّد عدم تمني المعنيّين للموت في الحياة الدنيا ، وهذا لا يقتضي استمرار ذلك في الآخرة .. ففي الآخرة يتمنون الموت ، بل يطلبونه ..

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ – ٧٧]

.. إذاً .. الاحتجاج بكلمة ﴿ لَن ﴾ في قوله تعالى ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى ﴾ [الأعراف : ١٤٣] على عدم رؤية الله تعالى في الآخرة ، ليس برهاناً يمكن اعتباره دليلاً على ما يذهبون إليه ..

أمَّا بالنسبة للذين ذهبوا إلى أنَّ رؤية الله تعالى في الآخرة واقعة بالنسبة للمؤمنين ، محتجّين بقوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢ – ٢٣] ، فقد قالوا : قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ نصٌّ صريحٌ بوقوع رؤية الله تعالى في الآخرة ..

إنَّ احتجاجهم هذا ليس سليماً .. ولإدراك ذلك ، لا بدَّ أن نبيّن النقاط التالية :

١ – قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ نرى فيه اقتران النظر بحرف إلى ، وهذا مقدّمة للرؤية وليس اسماً لها ، وهذا يماثل نظر القلب إلى المعرفة .. وهذا الوجه من المعنى نراه جليّاً في قوله تعالى ﴿ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : ١٩٨] ، ففي هذه الآية الكريمة نرى وقوع النظر دون وقوع الرؤية .. فالرؤية غاية النظر ، والنظر لا يقتضي حتميّة وقوع الرؤية ..

٢ – نرى أنَّه تمَّ تقديم الجار والمجرور على كلمة ﴿ **نَاظِرَةٌ** ﴾ ، فالله تعالى لم يقل : (ناظرة إلى ربّها) ، إنّما يقول ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ ، فهذا التقديم يبيّن لنا اختصاص النظر وحصره ، بأنَّ الوجوه – في تلك الحالة – لا تنظر إلى غير ربّها .. ومثال ذلك قوله تعالى في السورة ذاتها ﴿ **إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ** ﴾ [القيامة : ١٢] ، وقوله تعالى أيضاً في السورة ذاتها ﴿ **إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ** ﴾ [القيامة : ٣٠] ..

إذاً .. النظر المعني في قوله تعالى هو مسألة مختلفة عن الرؤية .. فقوله تعالى ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ ، يبيّن لنا حصر نظر الوجوه المعنيّة إلى ربِّها دون غيره ، مع أنَّها ترى غير الله تعالى ..

٣ – صحيحٌ أنَّ النظر الوارد بمعنى الانتظار لم يقترن في كتاب الله تعالى بحرف إلى ، إلاَّ أنَّه لا يمكن الجزم بأنَّ كلمة ﴿ **نَاظِرَةٌ** ﴾ في قوله تعالى ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ لا يمكنها أن تحمل معنى الانتظار ، فقوله تعالى الذي يصوِّر لنا حقيقة كلمات ملكة سبأ ﴿ **وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ** ﴾ [النمل : ٣٥] ، واضح وجلي فيه أنَّ كلمة ﴿ **فَنَاظِرَةٌۢ** ﴾ تحمل معنى الانتظار ، وكذلك كلمة ﴿ **فَنَظِرَةٌ** ﴾ في قوله تعالى ﴿ **وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ** ﴾ [البقرة : ٢٨٠] ..

إذاً .. لا يمكن الجزم بأنَّ قوله تعالى ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ دليلٌ قاطعٌ على رؤية الله تعالى في الآخرة ..

٤ – قوله تعالى ﴿ **إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ نرى فيه صفة الربوبيّة المضافة إلى ضمير متعلِّق بالوجوه ..... وحتى في الآية الكريمة التي طلب فيها موسى عليه السلام أن يعطيه ربّه جلَّ وعلا أيَّ آية لرؤيته ، نرى ورود صفة الربوبيّة أيضاً : **[** ﴿ **قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ** ﴾ ، ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ** ﴾ **]** .. وصفة الربوبيّة تتعلّق

بتسخير الأسباب للمسخَّر له تلك الأسباب .. وهذا يقوّي ما عرضناه في النقاط السابقة ..

.. ومنهم من احتجَّ بقوله تعالى ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ [المطفّفين : ١٥] على رؤية الله تعالى في الآخرة ، فقالوا هذا نصٌّ صريحٌ يبيّن عدم رؤية المعنيين لله تعالى ، وبالتالي رؤية الآخرين (أهل الجنة) لله تعالى ، وإلاّ لما كان للتخصيص فائدة ..

وهنا أيضاً لا يمكن اعتبار دلالات هذه الآية الكريمة مقدّمة للجزم برؤية الله تعالى في الآخرة ، فالحجب هو المنع ، ولا يُوجَد في الآية الكريمة ما يؤكّد أو ينفي أو يشير إلى أنَّ هذا الحجب هو عن الرؤية ، فالحجب يُحتَمل في الكثير من المسائل ، كالرحمة والقربى والعطاء .....

وما يقوّي تعلُّق الحجب بالمسائل الأخرى غير الرؤية ، هو التعلّق بصفة الربوبيّة ﴿ رَّبِّهِمۡ ﴾ المضافة إلى ضمير متعلِّق بالمعنيّين ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ ، وصفة الربوبيّة تتعلّق بها أمور تسخير الأسباب للمسخَّر له تلك الأسباب .. وهذا ما رأيناه أيضاً في قوله تعالى ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ﴾ ، وما رأيناه أيضاً في قوله تعالى [﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ ﴾] في قصّة موسى عليه السلام كما رأينا .. فليس من العبث أن ترد صيغة الربوبيّة في هذه النصوص جميعها ..

أمّا الاحتجاج بالروايات على مسألة من كبريات مسائل العقيدة كهذه المسألة ، دون أيِّ دليلٍ جليٍّ في كتاب الله تعالى ، فهذا ليس من العلم الحقّ في شيء ، وهذا خروجٌ على أمر الله تعالى ، حيث يأمرنا الله تعالى ألاّ نرفع أيَّ نصٍّ خارج دفتي كتاب الله تعالى إلى مستوى الإيمان الكامل الذي نؤمن به بكتاب الله تعالى ..

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٦]

ونحن لا يمكننا أن نفرض تصوّراتنا في عالم الدنيا على نواميس الآخرة ، فأجسادنا في الآخرة مختلفة تماماً عنها في الدنيا ، ونواميس أرض الآخرة وسماواتها مختلفة تماماً عن أرض الدنيا وسماواتها .. حتّى نعيم الآخرة وما سيلقاه أهل الجنّة في الجنّة لا نستطيع الوقوف على حقيقته ..

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧]

.. كيف إذاً يمكننا الوقوف على حقيقة مسألة كبيرة جداً ، كرؤية الله تعالى في الآخرة ؟!!! ..

.. وهذه المعادلة التي تربط وجود النفس البشريّة في جسدها ، مع تعلّق إدراكها الحسّي ورؤيتها للكليّات ، بما تقتضيه قوانين المادّة التي ينتمي إليها الجسد ، هي سنّةٌ من سنن الله تعالى التي لا تتبدّل ولا تتغيّر .. والقرآن الكريم يُلقي الضوءَ عليها من خلال قصّة الإسراء التي حدثت مع النبيّ ﷺ ..

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١]

.. إنّ الإسراء بالنبيِّ ﷺ – نفساً وجسداً – من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، هو عمليّةٌ حدثت ضمن قوانين المادّة والمكان والزمان التي تحكم أجسادنا .. والنبيُّ ﷺ في هذه الرحلة لم يتخلَّ عن بشريّته ، فجسده لم يُستثن من هذه العمليّة ، ولذلك فعدم التخلّي عن هذا الجسد المادّي وبالتالي عن قوانين العالم المادّي الذي ينتمي إليه الجسد ، جعل من رؤية النبيّ ﷺ لبعض آيات الله تعالى – في هذه الرحلة

— بحاجةٍ إلى آليّةٍ تُريه هذه الآيات .. فهو بطبيعته البشريّة لا يستطيع رؤية هذه الآيات بذاته ..

والقرآن الكريم يبيّن لنا هذه الحقيقة .. فقوله تعالى ﴿ **لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ** ﴾ يؤكّد أنّ النبيَّ ﷺ بآليّاته المادّيّة للرؤية ، لا يستطيع أن يرى بذاته هذه الآيات ..

.. بينما في المعراج الروحي (حيث امتلأت نفسه ﷺ روحاً) ، وحيث التخلّي عن الجسد وعلائقه المادّيّة ، والدخول في مرحلة ملائكيّة ، نرى أنّ النبيَّ ﷺ — في هذه الرحلة — يرى الآيات بذاته ، وأنّه ليس بحاجةٍ لآليّة رؤية كما هو الحال في الإسراء ..

﴿ **وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ** ﴾ [النجم : ١ — ١٨]

.. فدنو جبريل عليه السلام وتدلّيه إلى أُفق الملائكيّة الأقرب إلى البشريّة ﴿ **ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ** ﴾ ، وسموّ نفس الرسول ﷺ إلى المستوى الروحي الموازي للملائكيّة ، جعل من جبريل عليه السلام ومن محمّد ﷺ على قربٍ (روحيٍّ) لم يفصل بينهما إلاّ حقيقتيهما ، بل أصبحا أقرب إلى بعضهما حتى من هذا القرب ، لتداخل الروح بينهما ، وهذا ما نقرؤه في قولِه تعالى : ﴿ **فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ** ﴾ ..

.. وفي تلك الحالة حصل الوحي المباشر من الله تعالى إلى رسوله ﷺ ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ، فالرسول ﷺ بعروجه الروحيِّ هذا سما إلى درجة استقبال الوحي المباشر من الله تعالى دون رسولٍ وسيط (دون جبريل عليه السلام) ... وفي تلك الحالة الروحيّة التي تكرّرت مرّة أخرى ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾ ، استطاع الرسول ﷺ أن يرى بذاته (دون أيِّ آليّة مُساعدة كما كان في الإسراء) من آيات ربّه الكُبرى ..

.. فالفارق بين ما تصفه العبارة القرآنيّة ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾ في حادثة الإسراء التي كان الجسدُ جزءاً منها ، حيث الرؤية بحاجة لآليّة مُساعدة ، وبين ما تصفه العبارة القرآنيّة ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ في مسألة المعراج الروحي ، حيث الرؤية ذاتيّة ولا حاجة لآليّة مُساعدة .. هذا الفارق بين الحالتين يعود إلى الفارق بين ماهيّة العالم الذي تُسجن أنفسُنا فيه عبر الجسد ، وبين ماهيّة العالم غير المادّي الذي تمّ فيه المعراج الروحي ..

ولا خلاف أنَّ الإسراء وقع نفساً وجسداً ، فالآية الكريمة :

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١]

نرى فيها أنَّ بداية رحلة الإسراء ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ونهايتها ﴿ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ﴾ هما مكانان حسيّان ماديّان على وجه الأرض ، إضافة إلى احتياجه ﷺ لآليّة مُساعدة على الرؤية ﴿ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ﴾ كما بيّنا ، وهذا دليلٌ على وقوع الإسراء نفساً وجسداً ..

أمّا احتجاج بعضهم بكلمة ﴿ بِعَبْدِهِۦ ﴾ على الإسراء الجسدي ، فهو احتجاجٌ ليس سليماً ، مع أنَّ الإسراء حصل بالجسد والنفس كما بيّنا ، لأنَّ صفة العبوديّة وردت في كتاب الله تعالى أيضاً للملائكة الذين هم ليسوا أجساداً كالبشر ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩]

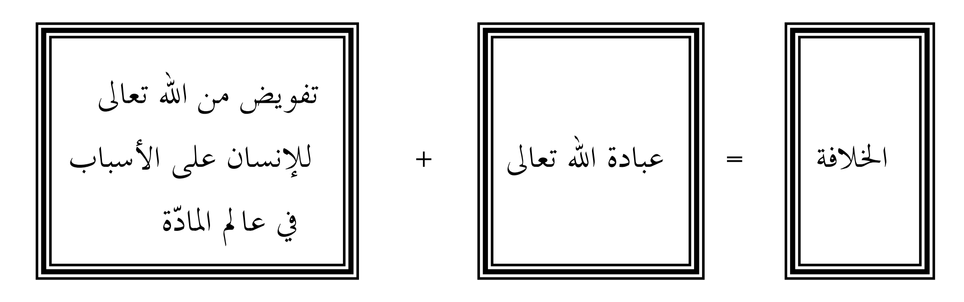
أمّا المعراج فهو مسألة أُخرى لا يمكن أن تكون بالجسد كما قلنا ، فهناك ناموسٌ إلهيٌّ نراه في قوله تعالى : ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج : ٤] ، فالعروج إلى الله تعالى مسألةٌ روحيّة ، وليست جسديّة ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال ، ولذلك فالروح الأمين عليه السلام التحم بنفس النبيّ ﷺ بعدما امتلأت روحاً ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ ، وفي هذه الحالة التي سمت نفسه ﷺ إلى هذه الدرجة تلقّى ﷺ الوحي مباشرةً من الله تعالى دون وساطة جبريل عليه السلام ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ ..

ولإدراك حقيقة هذا الناموس الإلهي ما علينا إلاَّ أن ننظر إلى سيرة عيسى عليه السلام كنفسٍ مُلئت روحاً مائة بالمائة منذ ولادته ، وبقي على ذلك حتى رفعه الله تعالى إليه .. فعيسى عليه السلام كان كلُّ ما ينطق به إنجيلاً ، والروح الأمين حينما وضعه في أمِّه مريم عليها السلام روحاً كاملة ، لم يترل عليه ، لأنَّ حياته كانت مماثلةً لحالة المعراج التي وقعت مع النبيّ ﷺ .. من هنا كان الإنجيل هو ما نطق به عيسى عليه السلام كنفسٍ مليئة مائة بالمائة روحاً مدى حياته ..

.. إنّ سنّة الله تعالى التي تحكم جزئيّات عالم الخلق المحسوس (عالم المادّة والمكان والزمان) ، تتجلّى في إعطاء الله تعالى للإنسان الخلافة في الأرض ، عبر تفويض الله تعالى للإنسان على جزئيّات عالم المادّة .. وإنّ سنّة الله تعالى في صفات

عالم الأمر تتجلّى في الوجه الروحي للعبادة التي يُريدها الله تعالى من عـالمي الإنـس والجنّ ، ككائناتٍ مكلّفة ..

إذاً خلافة الإنسان لله تعالى في الأرض ، عبارة عن حدّي المعادلة التالية :



.. وفي الحدّ الأوّل من هذه المعادلة (عبادة الله تعالى) يتساوى عالما الإنس والجنّ .. ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦]

.. بينما ينفرد الإنسان في ملك الحدّ الثاني من هذه المعادلة ، حيث أُختصَّ دون غيره — كما رأينا — بملك المشيئة ، ضمن إطار مشيئة الله تعالى ..

وهكذا .. لعبادة الله تعالى من قِبَل الكائنات المكلّفة وجهان :

١ — عبادة مجرّدة عن عالم المادّة ، وعن إدراك الجزئيّات ، وفي هذه العبـادة يتساوى عالما الإنس والجنّ ، حيث تُدرَك الكليّات بما يتعلّق بألوهيّته جلّ وعـلا ، بعيداً عن مقدّمات جزئيّات عالم المادّة ..

٢ — عبادة ضمن إطار عالم المادّة والمكان والزمان ، عبر شعائر حسّيّة ماديّة ، وأحكامٍ تتعلّق بماهيّة هذا العالم المادّي ، واختبارٍ لخلافة الإنسان في عالم الجزئيّات .. فاستخدام العقل في الانتقال من إدراك الجزئيّـات إلى إدراك الكليّـات الإيمانيّـة ، والانصياع — ضمن إطار هذا العالم المادّي — للأحكام والشعائر ، والعمل بجزئيّات المادّة ضمن الإطار الذي يريده الله تعالى ، هو ما يُميّز هذه العبادة ، التي يتميّز بهـا عالم الإنس عن عالم الجنّ ..

وعالم الجنّ هو – كما يؤكّد القرآن الكريم – عالمٌ ناريٌّ ، له قوانينه الخاصّة به ، والمغايرة لقوانين عالمنا المادّي الكثيف .. ولذلك فساحة عمل أفراد هذا العالم غير ساحة المادّة الكثيفة التي تنتمي إليها أجسادنا ..

.. هذه السنّة التي تُميّز ماهيّةَ عالم الجنّ وساحةَ عملهم ، يؤكّدها القرآن الكريم عبر استثناءٍ لهذه السنّة أُعطي لسليمان عليه السلام ، مع مجموعة من الاستثناءات :

﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾

[ص : ٣٤ – ٣٩]

فما بين طلب سليمان عليه السلام لملكٍ لا ينبغي لأحدٍ من بعده ، وبين إجابة الله تعالى لهذا الطلب إجابةً مباشرةً تاليةً لطلبه ومربوطةً مع الطلب بفاء الترتيب والمباشرة ، دليلٌ على أنّ إجابة طلب سليمان عليه السلام معجزةٌ خارقةٌ للنواميس التي تتصف بها المسائل مواضيع الإجابة على طلبه ..

﴿ وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾ ..

.. وما بين إلقاء الجسد على كرسيِّ سليمان **﴿ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ﴾** ، وبين تسخير الريح والشياطين له ، علاقةٌ وثيقةٌ ، تتمثّل بماهيّة التسخير وماهيّة التجسيد المادّي .. فتسخير الريح وجريانها بأمر سليمان عليه السلام ، وتسخير بعض أفراد عالم الجنّ للعمل بين يديه لتحقيق ما يشاء ، هو – في النهاية – خرقٌ للنواميس

المتعلّقة بماهيّة هذه المسائل ، وتسخيرٌ وتجسيدٌ ماديٌّ لأشياء لا تُسخّر – بالحيثيّة التي سُخّرَت بها – ولا تتجسّد في حقيقتها ..

وهكذا .. فتشكّل الجانّ بأجسادٍ تعمل بين يديّ سليمان عليه السلام ، في ملكه ، وضمن إطار مشيئته ، هو في الحقيقة إلقاءٌ تجسيديٌّ على ملكه ، وامتحانٌ له ، وهو ما يُمكننا أنْ نستشفّه من الصورة القرآنيّة : ﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا** ﴾ ..

.. فَطَلَبُ سليمان عليه السلام للمُلك الذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده ، والذي يتمُّ فيه خرق نواميس عالم الجنّ ، له تعلُّقُه بامتحانه وبإلقاء التجسيد المادّي (لمن لا يتجسّد بماهيّته) على ملكه (كرسيّه) ..

.. ولذلك نرى أنّ جميع الأعمال التي قام بها الجانّ في عالمنا المادّي ، والتي صوّرها لنا القرآن الكريم ، والخارقة للماهيّة الناريّة التي خُلق منها الجانّ ، هي أعمالٌ حصلت حصراً في عهد سليمان عليه السلام ، وبعد أن سخّر الله تعالى له بعض أفراد عالم الجنّ للعمل بين يديه ، كمعجزةٍ خارقةٍ للناموس ، من خلال مُلكٍ لا ينبغي لأحدٍ من بعده ..

﴿ **وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾ [النمل : ١٧]

﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ** ﴾ [النمل : ٣٩]

﴿ **وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ** ﴾ [سبأ : ١٢]

﴿ **فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ** ﴾ [سبأ : ١٤]

﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص : ٣٧ – ٣٨]

.. وفي الصورة القرآنيّة ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ دليلٌ آخر على أنّ ما أُعطي لسليمان عليه السلام هو استثناء .. فهذا الاستثناء من الله تعالى لسليمان لا يكون إلاّ بإذن الله تعالى ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ ، لأنّه خارقٌ للناموس ، وهذا يُماثل الاستثناء الذي أُعطي لعيسى عليه السلام في مسألة إحياء الموتى والذي أتى مقترناً – أيضاً – بإذن الله تعالى ..

﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ﴾ [المائدة : ١١٠]

﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ [المائدة : ١١٠]

.. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو .. ضمن إطار هذا الاستثناء ، وخلال عمل الجانّ بين يديّ سليمان عليه السلام في هذا العالم المادّي الكثيف ، هل أصبح الجانّ يملك مشيئةً ، كما هو الحال عند الإنسان ؟ ..

إنّ تسخير طاقة عالم الجنّ بين يديّ سليمان عليه السلام ، تسخيراً تتجسّد فيه هذه الطاقة للعمل بين يديه ، لا يعني أبداً أنّ ذوات الجنّ التي عملت بين يديه ضمن إطار هذا التجسيد ، قد أصبحت تملك المشيئة كما يملكها الإنسان .. ليس لأنّ تجسيد هذه الطاقة استثناءٌ فحسب ، وإنّما لأنّ هذا التجسيد ليس صادراً عن طبيعة الماهيّة التي خُلق منها الجانّ ، ولأنّه في عالم الجنّ لا تُوجد الثنائيّة بين النفس والجسد (وبالتالي بين الإرادة والمشيئة) التي تُوجد عند الإنسان ، ولأنّ العمل الذي قام به الجانّ – ضمن إطار هذا الاستثناء – هو بين يديّ سليمان حصراً وبإذن الله تعالى ..

﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ

﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٢ – ١٣]

.. فقوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ يبيّن لنا أنّ هذا الاستثناء يشمل جزءاً من أفراد عالم الجنّ ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ .. فالمسألة ليست مسألة ناموسٍ يخضع له عالم الجنّ ، إنّما هي استثناءٌ يندرج تحته جزءٌ من عالم الجنّ ، وحصراً بين يديّ سليمان ﴿ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ ، وبإذن الله تعالى ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ ..

وفي الصورة القرآنيّة ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [سبأ : ١٢] ، وفي الصورة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤] ، وفي الصورة القرآنيّة ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص : ٣٧ – ٣٨] ..... نرى أنّ الجنّ الكافرين هم الذين كانوا مسخّرين بين يديّ سليمان عليه السلام ، وبالتالي استثناء الجنّ المؤمنين من هذا التسخير ..

.. وعدم امتلاك الجنّ المسخّر بين يدي سليمان عليه السلام للمشيئة ، حقيقة نراها مؤكّدةً في العبارة القرآنيّة ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ...... ﴾ .. فالعمل الذي قام به هؤلاء الجنّ ، هو ضمن إطار مشيئة سليمان عليه السلام حصراً ، أي أنّ الجنّ في عملهم الذي قاموا به ، كانوا خارج إطار إرادتهم ، وبالتالي لا مشيئة لهم في ذلك ، وما يؤكّدُ ذلك هو العبارة القرآنيّة ﴿ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ..

.. وورود العبارة القرآنيّة ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ ﴾ بهذه الصيغة ، هو تأكيدٌ على هذه الحقيقة ، فلو أتت هذه العبارة على الشكل (يعملون له ما يُريد) ، لتسرّب احتمال انتماء العمل الذي قاموا به إلى دفعهم للأسباب دفعاً من ذاتهم ، باتّجاه تحقيق مُراد سليمان عليه السلام .. ولكنّ ورودَ هذه العبارة القرآنيّة بصيغة المشيئة المنسوبة إلى سليمان عليه السلام ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ ﴾ يؤكّد أنّ تسخيرَ الجانّ للعمل بين يدي سليمان ، لا يختلف عن تسخير الأسباب بين يديه ، وبالتالي فكلُّ ما عمله الجانّ بين يديّ سليمان عليه السلام ، هو في النهاية ضمن إطار مشيئته ..

.. وهذا التسخير هو — في الحقيقة — تمكينٌ من الله تعالى لسليمان عليه السلام ، كي يستفيدَ من الماهيّة الناريّة التي خُلق منها الجنّ ، وذلك في إطار عالمنا المادّي الكثيف .. وبالتالي فلهذه الاستفادة سقفٌ يتعلّق بسقف الصفات التي تتّصف بها الماهيّة الناريّة ..

.. وقد بيّن القرآن الكريم حقيقة هذا السقف ، في العرض الذي قدّمه عفريتٌ من الجنّ من أجل الإتيان بعرش ملكة سبأ ، وذلك عبر مقارنةٍ ما بين صفات الماهيّة الناريّة ، وما بين علم الكتاب الذي هو فوق قوانين عالمنا المادّي ، وفوق قوانين الماهيّة الناريّة التي خُلق منها الجانّ ..

﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ [النمل : ٣٨ — ٤٠]

إنّ سقف الطاقة التي يستطيع من خلالها هذا العفريت من الجنّ أن يأتي بعرش ملكة سبأ ، هو ضمن فترة زمنيّة لا تتعدّى قيام سليمان عليه السلام من مقامه .. ولا شكّ أنّ هذه القدرة المتعلّقة بماهيّة خلق عالم الجنّ ، والمسخّرة — بإذن الله تعالى — بين يديّ سليمان وبمشيئته ، هي قدرة مذهلة ، مقارنةً مع قدرتنا البشريّة ، ومع حيثيّات تفاعلنا مع الأسباب ..

.. والعرض الآخر المُقدَّم من قِبَل الذي عنده علمٌ من الكتاب ، هو عرضٌ للإتيان بعرش ملكة سبأ ، دون زمن ، أو خلال فترة لا تتعدّى ارتداد الطرف ، وهذا يتبع لحقيقة علم الكتاب الذي هو علمٌ مستمدٌّ من الله تعالى ، وبالتالي فإنّ مجيء عرش ملكة سبأ — خلال هذا العرض — يتعلّق بقوّة الله تعالى وعلمه ..

ولذلك نرى أنّ الله تعالى لم يُبيّن لنا (في ظاهر النصّ القرآني) إلى أيٍّ عالَمٍ ينتمي هذا الذي عنده علمٌ من الكتاب ، ولم يُبيّن لنا من هو ، فمهما كان ومهما كان العالَم الذي ينتمي إليه ، فإنّ العرض الذي قدّمه يعتمد على عِلْمِ الكتاب ، ولا يعتمد على ماهيّة العالَم الذي ينتمي إليه .. بينما في العرض الأوّل بيّن الله تعالى لنا أنّ مُقدِّمَه عفريتٌ من الجنّ ، لأنّه عرضٌ يعتمد على صفات الطاقة الناريّة التي خُلِق منها عالم الجنّ ، والمسخّرة بين يدي سليمان عليه السلام ، وبمشيئته ..

ولّما كان الجانُّ المسخّرون بين يديّ سليمان عليه السلام — كما رأينا — الجانّ الكافرين ، ولّما كان الجانُّ الكافرون لا يملكون عِلْمَ الكتاب ، وإلاّ لما كانوا كافرين .. فإنّنا نستنتج أنّ الذي عنده علمٌ من الكتاب لا ينتمي إلى عالم الجنّ ..

وقد رأينا في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) ، التوازنَ التامَّ بين عرض العفريت من الجنّ ، وبين عرض الذي عنده علمٌ من الكتاب .. فكلٌّ قدّم سقفَ ما عنده ، وكاملَ استطاعته ، لذلك رأينا أنّ القيمة العدديّة [[حسب الأبجديّة القرآنيّة التي رأيناها في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر)]] للنصيّن القرآنيّين المصوِّرين لهذين العرضين متساوية تماماً ..

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ = ٣٣٤

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ ﴾ = ٣٣٤

ورأينا أيضاً أنّ الآية الكريمة التي تحوي العرضَ الثاني ، والذي من خلاله تمّ الإتيان بعرش ملكة سبأ ، تُصوِّر مسألةً كاملةً ، وبالتالي متعلّقة بمعجزة إحدى الكُبَر (معجزة العدد ١٩) ، أي أنّ مجموعَ القيم العدديّة لحروفها (حسب الأبجديّة القرآنيّة المُكتشفة) من المضاعفات التامّة للعدد (١٩) ..

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ = ٩٨٨

٥٢ × ١٩ = ٩٨٨

.. وعلى الرغم من تسخير الجنّ في عالمنا – بإذن الله تعالى – بين يديّ سليمان عليه السلام ، فإنّ هذه الكائنات المسخّرة في هذا العالم لم تُدرك الجزئيّات إدراكاً سليماً يتجاوز الظاهر المادّي ، بدليل أنّها لم تعلم بموت سليمان عليه السلام إلاّ بعد أن أكلت دابّةُ الأرض منسأته .. وفي هذا دليلٌ آخر على أنّ الجنّ لم يملك مشيئة حتى ضمن إطار تسخيره في عالمنا المادّي ..

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤]

.. وهناك خصوصيّةٌ أُخرى أُعطيَت لداود عليه السلام ، وهي تسخير الجبال يُسبّحن معه والطير ..

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩]

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴾ [سبأ : ١٠]

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ١٧ – ١٩]

.. وداود عليه السلام عُلِّمَ منطق الطير ، وسليمان عليه السلام الذي ورث أباه (داود) عُلِّمَ هذا المنطق ..

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦]

.. ولكنّ هذه الخصوصيّة – تسخير الجبال للتسبيح مع داود ، وتعليم منطق الطير – تختلف تماماً عن تجسّد بعض أفراد الجنّ للعمل بين يديِّ سليمان عليه السلام .. ففي حين أنّ تجسّد بعض أفراد الجنّ هو خرقٌ لناموس ماهيّة عالم الجنّ كما رأينا ، فإنّ تسخير الجبال للتسبيح مع داود عليه السلام وتعلّم منطق الطير ، ليس خرقاً لناموس هذه الأشياء ، وإنّما خرقٌ للحجاب الذي يفصلنا – ونحن في هذا العالم – عن حقيقة الأشياء التي لا نستطيع إدراكها ..

فالجبال – شأنها شأن أيِّ شيءٍ – تُسبِّح بحمد الله تعالى .. هذا هو الناموس ، ولكنّنا لا نفقه هذا التسبيح ..

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [الإسراء : ٤٤]

﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١]

.. والطير وكلُّ دابّةٍ في الأرض أممٌ أمثالنا ، وبالتالي يُوجَد بين أفراد كلِّ أمّةٍ منها منطقُها الخاصُّ بها ، ولكنّنا لا نُدرك هذا المنطق ..

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ ﴾ [الأنعام : ٣٨]

.. وهكذا نرى أنّ الخصوصيّة في تسبيح الجبال مع داود عليه السلام ، وتعلّم منطق الطير ، ليست خرقاً لنواميس الأشياء ، إنّما خرقٌ للحجاب الذي يحجزنا عن إدراك الحقائق التي لا نستطيع إدراكها ونحن في عالم الدنيا ..

وفي هذا التسخير بين يديّ داود وسليمان عليهما السلام – إضافة إلى أنّهما مكلّفان ضمن إطار الخلافة ، وأنّ الأسباب مسخّرة بين أيديهما كأيِّ إنسان – دليلٌ على أنّ الله تعالى آتاهما من المفاتيح ما يمكّنهما – من خلالها – من الدخول إلى إدراك الجزئيّات التي تؤدّي – فيما لو تمّ الاستثمار الكامل لهذه المفاتيح – إلى إدراك جزئيّات كلّ شيءٍ .. وهذا ما تلخّصه العبارة : **﴿ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ ﴾** ، في الآية الكريمة التالية : **﴿ وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ﴾** [النمل : ١٦]

.. هذا الإتيان من كلِّ شيءٍ ، والذي يعني – كما قلنا – وضع مفاتيح إدراك الجزئيّات في هذا العالم المادّي المحسوس ، بين يديِّ من آتاه الله تعالى هذه المفاتيح ،

قد وُضِعَ بين يديّ ملكة سبأ كما يؤكّد القرآن الكريم ، ولكنّ ملكة سبأ لم تهتد إلى استخدام هذه المفاتيح كما اهتدى داود وسليمان عليهما السلام ، بسبب كفرها وصدّها عن سبيل الله تعالى ..

﴿ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٣ – ٢٤]

﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴾ [النمل : ٤٣]

.. وذو القرنين آتاه الله تعالى – أيضاً – من كلِّ شيءٍ سبباً يتوصّل من خلاله إلى هذا الشيء ، واستخدمَ هذه الأسباب استخداماً سليماً كمفاتيح لاكتشافاتٍ جديدة ، فإذا أراد شيئاً سلك سبباً من هذه الأسباب التي آتاه الله تعالى إيّاها للوصول إلى هذا الشيء .. وهكذا .. فالأسباب التي آتاه الله تعالى إيّاها ، هي مقدّماتٌ يسير بها إلى نتائجَ واكتشافاتٍ ، ومن ثمّ تكون هذه النتائج أسباباً ومقدّماتٍ لنتائجَ جديدة ..

﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَن ذِي ٱلۡقَرۡنَيۡنِۖ قُلۡ سَأَتۡلُواْ عَلَيۡكُم مِّنۡهُ ذِكۡرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا ﴿٨٤﴾ فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ .... ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا .... ثُمَّ أَتۡبَعَ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٣ – ٩٢]

.. وعدم رؤية مفاتيح الأشياء ، وعدم استخدامها ، لا يعني أبداً عدم وجود هذه المفاتيح ، إنّما يعني التقصيرَ في استخدام هذه المفاتيح وفي تدبّرها ..

.. إنّ القرآن الكريم يحمل من المفاتيح ما يجعله تبياناً لكلِّ شيءٍ في هذا الكون : ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النحل : ٨٩] .. والقرآن الكريم

بما يحمله من أدلّةٍ ومفاتيحَ لتبيان كلِّ شيءٍ في هذا الكون ، يسّره الله تعالى بين أيدينا للذكر : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ..

.. فهل تقصيرنا في تدبّر القرآن الكريم ، وفي اكتشاف مفاتيح تبيان كلِّ شيءٍ ، التي يحملها ، وفي استخدام هذه المفاتيح لإدراك حقائق الكون .. هل هذا التقصير (الذي يؤدّي إلى عدم رؤية هذه المفاتيح) يعني عدمَ حمل القرآن الكريم للتبيان الذي يحمله ؟! ..

إنّ المتدبِّر للقرآن الكريم يرى من هذه المفاتيح حسب درجة تدبّره .. وغير المتدبِّر لا يرى منها شيئاً ، ويحسب القرآن الكريم مجرّد نصٍّ يحمل أحكاماً فقهيّةً ليس إلاّ ..

وقد رأينا كيف أنّ ملكة سبأ لم تهتدِ إلى استخدام مفاتيح كلِّ شيءٍ التي أُوتيت لها ، كما استخدمها داود وسليمان عليهما السلام ، وكما استخدمها ذو القرنين ، وذلك بسبب كفرها وصدِّها عن سبيل الله تعالى ..

.. نحن البشر – جميعاً – سخّر الله تعالى بين أيدينا الأسباب (ومفاتيحها) ضمن إطار خلافتنا في الأرض نتيجة حملنا للأمانة .. فهل جميع البشر (أفراداً وأمماً عبر الزمن) تدبّروا القوانين الكونيّة التي تحكم هذه الأسباب التدبّرَ ذاتَه ؟ .. وهل جميع البشر استخدموا هذه الأسباب الاستخدامَ ذاتَه ؟ .. وحتى الذين تساووا في اكتشاف هذه القوانين وفي استخدامها ، هل جميعهم أدركوا حقيقةَ المُسبِّب الذي يَقِف وراء هذه الأسباب ويسخّرها بين أيدينا الإدراكَ ذاتَه ؟ ..

إنّ داود وسليمان عليهما السلام اللذين أُوتيا من كلِّ شيءٍ ، كونهما نبيّين استفادا أكبر استفادةٍ من المفاتيح التي سُخِّرت بين أيديهما ، وذلك على نقيضٍ من ملكة سبأ ، وبعمقٍ أكبر من استفادة ذي القرنين .. فكلّما ارتقى الإنسان في خلاصه لله تعالى ، كلّما ارتقى أكثر في إدراك حقائق تسخير الأسباب بين يديه ، والعكس بالعكس ..

.. فداود وسليمان عليهما السلام اطّلعا على كلِّ أوجه الإدراك ، واحتمالاتها ما بين الكليّات والجزئيّات ، من أشفّ المخلوقات إلى أكثفها :

[١] – الاطّلاع على الإدراك الإيجابي الخالص للكليّات دون إدراك الجزئيّات ، من خلال علاقتهما مع الملائكة عبر وحي الله تعالى لهما كونهما نبيّين ..

[٢] – الاطّلاع على الإدراك السلبي الخالص للكليّات دون إدراك الجزئيّات ، من خلال تسخير شياطين الجنّ للعمل بين يديِّ سليمان عليه السلام ..

[٣] – الاطّلاع على الكليّة الفطريّة للكائنات التي تُدرك الجزئيّات دون إدراك الكليّات ، وذلك من خلال تعلمهما منطق الطير ..

[٤] – الاطّلاع على الكليّة الفطريّة للكائنات التي لا تُدرك الجزئيّات ولا الكليّات ، من خلال تسبيح الجبال مع داود عليه السلام ..

[٥] – الاطّلاع على الكليّات التي هي نتيجة لإدراك الجزئيّات كونهما من البشر الذين يُدركون الجزئيّات وينطلقون منها بعقولهم – كمقدّماتٍ – نحو إدراك الكليّات ..

.. وهكذا نرى أنّ تسخير الجنّ للعمل بين يديّ سليمان عليه السلام ، هو الحلقة التي تُكمل مسألة الاطّلاع – للبشر – على أوجه الإدراك المختلفة ، واحتمالاتها ما بين الجزئيّات والكليّات .. وهو الحلقة التي تُكمل دوران المسألة من أشفِّ المخلوقات إلى أكثفها .. وهو الحلقة التي تُكمل الاستفادة الكاملة لداود وسليمان (مجموع استفادتيهما) من مفاتيح كلِّ شيءٍ ، تلك المفاتيح التي آتاهما اللهُ تعالى إيّاها ..

فلو لم يتجسّد شياطين الجنّ للعمل بين يديّ سليمان عليه السلام ، لافتقر عليه السلام إلى الاطّلاع على جانب الإدراك السلبي الخالص للكليّات دون إدراك الجزئيّات ، ولافتقر إلى الاطّلاع على حلقة تقع بين أشفّ المخلوقات وأكثفها ، ولما اكتملت مسألة استفادته من جميع جوانب الإدراك بالنسبة للمفاتيح التي آتاها اللهُ تعالى إيّاه وداودَ عليهما السلام ..

إنّ القصص القرآنيّة ليست مجرّد سردٍ تاريخيٍّ ، من أجل عِبَرٍ محدّدة لا تخرج عن إطار إدراكنا المحدود .. إنّها تفصيلٌ لكلِّ شيءٍ ، وإحاطةٌ للمسائل من بدايتها إلى نهايتها ..

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف : ١١١]

.. وهكذا نرى أنّ وجودنا في هذا العالم المحسوس يختلف عن وجود باقي المخلوقات ، فالعقل الذي نستخدمه في الربط بين إدراكنا للجزئيّات وبين إدراكنا للكليّات كنتيجةٍ عن إدراك هذه الجزئيّات ، يختصُّ به الإنسان فقط من بين جميع المخلوقات .. فجميع مشتقّات الجذر (ع ، ق ، ل) في القرآن الكريم ترتبط بالإنسان حصراً ..

ولذلك يصف الله تعالى الذين لا يسمعون نداءَ الحقِّ ولا يعقلونه ، بأنّهم كالأنعام ، التي تتفاعل مع الجزئيّات فتأكل وتشرب دون أن تُدرك الكليّات التي وراء هذه الجزئيّات ..

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد : ١٢]

.. فالعبارة القرآنيّة ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ لا تعني تحريم التمتّع والأكل ، فالمؤمنون يتمتّعون ويأكلون أيضاً ، إنّما تعني أنّ الكافرين يتفاعلون مع الجزئيّات كالأنعام ، دون أن يُبصروا ما وراء هذه الجزئيّات من كليّاتٍ تقودهم إلى معرفة المُسبِّب الذي يُسخّر لهم هذه الجزئيّات ، وإلى طاعته .. ولذلك يقول الله تعالى عنهم ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ ..

.. فالسماع الروحي للحقِّ ، والتعقّل ، يتبعان للنفس المجرّدة التي يتميّز في امتلاكها الإنسان عن باقي المخلوقات ، وبالتالي فهما وسيلتان لإدراك الكلّيّات التي تكمن وراء الجزئيّات التي نُدركها ونتفاعل معها نحن والحيوانات ..

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٤٣ — ٤٤]

﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك : ١٠]

.. وهكذا .. لّما كان الإنسان هو الكائن الوحيد الذي اختار حملَ الأمانة ، وبالتالي الخلافة في عالم الجزئيّات ، كان الوحيد الذي اُختصّ بالعقل ..

.. ولّما كان الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتّصف بالزوجيّة التي تجمع النفسَ المجرّدةَ مع الجسد المادّيِّ ، فإنّه الوحيد — من بين جميع المخلوقات — الذي يملك الزوجيّة في إدراكه للكلّيّات والجزئيّات على حدٍّ سواء ، والوحيد الذي يملك الإرادة والمشيئة ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

عالم الجن و بعض الشبهات

.. عالم الجنّ حقيقةٌ أكّدها الله تعالى في الكثير من آيات كتابه الكريم ، عبر نصوصٍ صريحةٍ لا تحتمل أيَّ تأويلٍ لإنكار هذا العالم ، وعبر إحاطة كاملة بهذه المسألة ، بحيث تُسقِط أيَّ تأويلٍ فاسدٍ خارج حقيقة دلالات النصوص القرآنيّة ..

.. ولكنّ بعضهم انحرف عن حقيقة ما يحمله القرآن الكريم من أدلّةٍ ومعانٍ لهذه المسألة ، وفق محورين متعاكسين .. فمنهم من ذهب إلى تصوّر كائنات هذا العالَم تصوّراً حسّيّاً ما أنزل الله تعالى به من سلطان ، عبر تلفيق الروايات والأساطير الخاصّة بهذه المسألة .. ومنهم من ذهب إلى إنكار وجود هذا العالَم عبر تأويل النصوص القرآنيّة المصوِّرة لهذه المسألة ، تأويلاً مُناقضاً حتى للحدِّ الأدنى ممّا يُدركه العقل من دلالات هذه النصوص ، كما سنرى – إن شاء الله تعالى – في هذا الفصل ..

.. فسنتعرّض إلى بعض الشبهات ، فنبيّنها ، ونبيّن حقيقة ما يحمله القرآن الكريم من أدلّة ومعانٍ تُزيل هذه الشبهات ..

.. وهذا لا يعني أنّنا بردّنا على هذه الشبهات نُدافع عن التصوّرات الخرافيّة ، التي يُقدّمها بعضهم – عن مسألة الجنّ – على أنّها من منهج الله تعالى معتمدين في ذلك على بعض الروايات والأقاويل .. إنّ كلَّ ما لا يحمل له القرآن الكريم تبياناً ، يُعتبر مسألةً ظنيّة خاضعة للعقل المتدبّر لكتاب الله تعالى ، ولا يُكفَّر أو يُلام من لا يعتقد بها ..

وفي ردِّنا على هذه الشبهات سننطلق وفق منهجيّة ثابتة تعتمد على الأسس التالية :

[١] – القرآن الكريم كلٌّ لا يتجزّأ .. وبالتالي فكلُّ صورةٍ قرآنيّةٍ لأيِّ مسألةٍ – كمسألة الجنّ – تُفهم دلالاتها بالنظر إليها من مناظير الصور القرآنيّة الأخرى التي تصوّر الجوانب الأُخرى لهذه المسألة ..

[٢] – عدم تجزئة دلالات القرآن الكريم لأيِّ مسألة ، ولأيِّ كلمة قرآنيّة ، لأنّ تجزئة هذه الدلالات تجعل منها متعارضة ما بين النصوص القرآنيّة ، للمسألة ذاتها ..

[٣] – كلُّ تأويلٍ لأيِّ كلمةٍ قرآنيّة يتعارض مع ظاهر دلالاتها ومعانيها ، هو تأويلٌ فاسدٌ .. فالعمق الباطن للكلمة القرآنيّة ((ومجازاتها على مذهب من يعتقد بالمجاز)) لا يتعارض أبداً مع عمقها الظاهر ، بل يتكامل معه ..

[٤] – قواميس اللغة العربيّة ليست حُجّةً على كتاب الله تعالى ، لأنّ هذه القواميس تأخذ المأخذَ ذاتَه بجميع مفردات اللغة العربيّة والتي منها ما هو وضعيّ اصطلاحي من صنع البشر ، وهي بذلك لا تُميّز بين المفردة القرآنيّة كمفردة فطريّة موحاة من الله تعالى ، وبين المفردة الوضعيّة ..

.. ولذلك فإنّ استعمال العرب المجازي للمفردة القرآنيّة – سواءٌ قبل نزول النصّ القرآني أم بعد نزوله – وفق دلالات تتبع لإدراكهم الحضاريّ في عصرٍ ما ، لا يعني أبداً أنّ هذا الاستعمال أصبح حجّةً على دلالات هذه الكلمة في كتاب الله تعالى .. إنّ العكس هو الصحيح ، فدلالات الكلمة في القرآن الكريم ، هي الحجّة والمعيار لدلالات هذه الكلمة في قواميس اللغة العربيّة ..

[٥] – القرآن الكريم بكليّته معيارٌ لمعرفة كون الكلمة القرآنيّة اسم ذات أم اسم صفة ، مع ضرورة تقديم البرهان القرآني في ذلك ..

.. ونحن في تبياننا لهذه الشبهات ، وفي الردّ عليها ، لا نُوجّه كلامنا لفردٍ محدّدٍ ، ولا ننتقصُ من أيٍّ كان ، ولا نحملُ للجميع إلاّ المودّة ، فنحن نتفاعل مع المسألة كفكرٍ مجرّدٍ عن أيِّ قيمةٍ شخصيّة ..

.. والذين أثاروا هذه الشبهات أكثر من شخصٍ ، وبأساليب مختلفة .. وردّنا على هذه الشبهات هو فكرٌ نقدّم برهانه من كتاب الله تعالى ، ولا نعني به أحداً بعينه ، ولا

مانع عندنا من نقده من قبل الآخرين بالحجّة القرآنيّة .. وإنّنا نعتقد أنّه بالحوار وبالنقد البنّاء المعتمد على البرهان والعقل والمنطق ، يُنقّى الفكر الإسلامي ، وبالتالي يتطوَّر ، ويقترب أكثر من مراد الله تعالى في كتابه الكريم ..

.. ولّما كان الذين أثاروا هذه الشبهات أكثر من شخصٍ ، ولهم في المسألة الواحدة أكثر من تصوّر ، فيها من الاختلاف ما قد يصل إلى درجة التناقض ، ولّما كان ردّنا يشمل أهم هذه التصوّرات ومعظمها ، فمن الطبيعي أن يكون ردُّنا على بعض الشبهات في مسألة ما ، لا علاقة له بالشبهات التي يطرحها بعضهم الآخر في المسألة ذاتها ..

.. ينطلق مثيرو هذه الشبهات من اعتبار كلمة الجنّ اسم صفة وليست اسم ذاتٍ لجنسٍ محدَّدٍ من المخلوقات .. فيستشهدون ببعض قواميس اللغة العربيّة ، على أنّ العربَ أطلقوا بعض مشتقّات هذه الكلمة على بعض المسائل ، وذلك كتوظيفٍ لصفة الاختفاء والستر عن النظر ، التي تحمل دلالاتها كلمة الجنّ ومشتقّاتها ..

.. هذا الخلط بين أسماء الذات وأسماء الصفات ، وتوظيف هذا الخلط باتّجاهاتٍ ونتائجَ مُسبقة الصنع ، يؤدّي إلى تحميل الكلمات القرآنيّة والجمل القرآنيّة معاني ودلالات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، بحيث تُوافق الوجه المُراد من هذه الأهواء ..

إنّ الكلمة القرآنيّة التي تُسمِّي أيَّ مسألةٍ كاسم ذات ، هي في الوقت ذاته اسم صفة لهذه الذات ، وذلك من كَوْنِ هذه الكلمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعاني والدلالات التي يحملها الجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه .. ولكنّ اسم الذات يصف جوهر المسألة من الزاوية التي ينفرد بها صاحب المسألة عن غيره من الذوات الأُخرى ..

.. بينما أسماء الصفات تصف جانباً من الجوانب التي تتّصف بها المسألة الموصوفة ، وقد يصف اسم الصفة أكثر من مسألةٍ واحدة .. بينما اسم الذات لا يُسمِّي إلاّ المسألة التي هو اسم ذاتٍ لها ..

.. فكلمة ﴿ ٱللَّهُ ﴾ كاسم ذاتٍ لله تعالى ، لا تخرج عن إطار جذرها اللغوي الذي تفرّعت عنه ، فهي في الوقت ذاته تصوّر صفة الألوهيّة التي يتّصف بها الله تعالى .. ولكنّ هذه الكلمة لا ترتبط إلاّ بالذات الإلهيّة ..

.. ولكنّ أسماء الصفات لله تعالى ، والتي تصف الذات الإلهيّة ، قد يكون بعضها أسماء صفاتٍ لذواتٍ أُخرى .. فصفة ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ – مثلاً – التي تصف الذات الإلهيّة كما يُبيّن القرآن الكريم ، هي في الوقت ذاته اسم صفةٍ يتعلّق به البشر ، ويتّصفون به بنسبٍ تتعلّق بدرجات إيمانهم ..

.. عندما نقول ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ فإنّنا نعني صفةً يتّصف بها الله تعالى ، ولا يتّصف بها بهذه الصيغة بأل التعريف إلاّ الله تعالى ، فكلمة ﴿ ٱلْمُؤْمِنُ ﴾ لم ترد في كتاب الله تعالى إلاّ صفةً لله تعالى .. ولكنّها بصيغة النكرة ﴿ مُؤْمِنٌ ﴾ ترد وصفاً لبعض البشر ، فأيّ إنسان مكلّفٍ يتّصف بها بما يتناسب ودرجة طمأنينته ، ولذلك فمجموع البشر المتّصفين بهذه الصفة ﴿ مُؤْمِنٌ ﴾ ، تصفهم في كتاب الله تعالى كلمة ﴿ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ ..

.. فإذا أردنا معرفة حقيقة الكلمة القرآنيّة ، هل هي اسم ذاتٍ أم اسم صفةٍ ، علينا أن ننظر إلى بيان القرآن الكريم لماهيّة المسألة التي تصفها هذه الكلمة ، وفق المعيارين التاليين :

[١] – هل يصفها القرآن الكريم وصفاً مرتبطاً بماهيّتها التي تميّزها عن غيرها ؟ .. وكذاتٍ لها حدودها التي تميّزها عن غيرها ؟ .. وإذا خاطب الله تعالى صاحب هذه المسألة (عبر هذه الكلمة) هل يُخاطبها بأداة النداء ؟ ..

[٢] – هل وصفُ الكلمة القرآنيّة للموصوف لا يتعارض مع جنس العالَم الذي ينتمي إليه ، وذلك من زاوية ماهيّة الوجود ؟ ..

.. وفي مسألة الجنّ نرى أنّ الكلمات ((الجنّ ، الجانّ ، الجنّة)) متفرّعةٌ عن الجذر (ج ، ن ، ن) ، وبالتالي فإنّ دلالاتها لا تخرج عن الدلالات والمعاني التي يحملها هذا الجذر ... ولنضع هذه الكلمات في المعيارين اللذين ذكرناهما ، لنعرف هل هي أسماء ذاتٍ لجنسٍ محدَّدٍ من المخلوقات ، أم أسماء صفاتٍ لبعض البشر كما يذهب مثيرو هذه الشبهات ..

.. إذا كانت هذه الكلمات أسماءَ صفاتٍ لبعض البشر – كما يزعمون – وبأنّها تعني : المستترين ، والغائبين ، والغرباء ، والناشطين في الخفاء ، والأثرياء ، والقادة ، وأصحاب القوّة والنفوذ والسلطان ، والبشر الذين وُجدوا قبل التاريخ .. فإنّ ذلك يعني أنّها صفاتٌ معنويّةٌ واجتماعيّةٌ لهؤلاء البشر ، أي صفات لا ترتبط بماهيّة الخلق وإنّما ترتبط بإرادتهم ، وبدرجات الخير والشرّ داخل نفوسهم ، وبحالاتهم الاجتماعيّة .. فماهيّة الخلق لجميع البشر واحدة ، جميعهم من دمٍ ولحمٍ وعظم ..

.. ولو نظرنا إلى القرآن الكريم لرأينا أنّه يصف بهذه الكلمات ذواتٍ محـدَّدةً، من زاوية خلقها وماهيّة وجودها ، وليس من زاوية صفاتها المعنويّة والاجتماعيّة ..

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾
[الرحمن : ١٤ – ١٥]

.. فالعبارة القرآنيّة **﴿ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾** تصف حقيقة كينونة الخلق وماهيّته بالنسبة للجانّ ، كما أنّ العبارة القرآنيّة **﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾** تصف حقيقة كينونة الخلق وماهيّته بالنسبة للإنسان .. ولا تصف هاتان العبارتان صفاتٍ معنويّةً أو اجتماعيّة ، ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال ، فتكرار كلمة خلق : **﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾** ، **﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ ﴾** ، يزيد في تبيان خلقين متمايزين في الماهيّة .. ولذلك لا يمكن لكلمة **﴿ ٱلْجَآنَّ ﴾** أنْ تكون اسم صفة معنويّة أو اجتماعيّة لبعض البشر ، وبالتالي هي اسم ذاتٍ لجنسٍ خاصٍّ من المخلوقات ، مخلوقٍ من الماهيّة الناريّة ..

.. ولذلك حينما يُخاطب الله تعالى هذين العالمين المستقلّين بماهيّة الخلق ، يُخاطبهما بأداة النداء كعالمين لكلٍّ منهما حدوده الخاصّة من ماهيّة الخلق ..

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ﴾ [الأنعام : ١٢٨]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [الانفطار : ٦]

.. إنّ القرآن الكريم يصف الذوات التي تسمّيها كلمتا الإنسان والجان ، وصفاً يتعلّق بماهيّة خلق كلِّ عالمٍ من هذين العالمين المتمايزين تماماً في الخلق ، وببداية الخلق ..

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٦ – ٢٧]

فإضافة إلى أنّ الجانّ خُلق من ماهيّة متميّزة هي النار ، خُلِقَ قبل الإنسان الذي خُلِقَ من ماهيّة مادّيّة أكثف من ماهيّة خلق الجانّ .. والقرآن الكريم لم يصف ماهيّة الخلق من النار إلاّ للجانّ ، و لم يصف ماهيّة الخلق من الصلصال كالفخّار إلاّ للإنسان ..

..قالوا : إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ ، والعبارة القرآنيّة ﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ ، هما على سبيل الاستعارة .. وأنّ هاتين العبارتين تُفهمان بمعانيهما المجازيّة ، وأنّهما تتحدّثان عن خلق طبيعة الإنسان ، وليس عن خلق جسده .. وإنّ قوله تعالى ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ يُفيد أنّ طبيعة الإنسان القديم اختلفت عن طبيعتنا ، فالإنسان القديم ((الجانّ في هذه الصورة القرآنيّة كما يذهبون)) كان حادَّ الطبع ملتبسَ الأفكار مضطرباً في تصرّفاته ..

.. فكلمة ﴿ وَٱلْجَآنَّ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ ، أطلقها الله تعالى – حسب زعمهم – على إنسان ما قبل التاريخ ((إنسان العصور الحجريّة)) وعلى إبليس أيضاً ، فالبشر آنذاك كانوا يختفون في الكهوف ..

.. فالصورة القرآنيّة ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ التي هي على سبيل الاستعارة ، يُفهم منها أنّ الصفة الطبيعيّة للإنسان في هذه المرحلة ، أعدّت بتأثير تعاليم آدم عليه السلام الذي ابتدأ تاريخها ، فالخلق من صلصالٍ يتعلّق بتكوين طبيعة هذا الإنسان الذي يُلبّي صوت السماء ..

.. نقول : عن أيِّ مجازٍ يتحدّثون ؟ .. فهل المجاز (الذي يتخيّلونه) يُعطي الكلمة القرآنيّة ذاتها معاني متناقضةً حسب الأهواء المختلفة ؟ .. فإذا كانت كلمة الجانّ في الصورة القرآنيّة ﴿ **وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ** ﴾ تعني إنسانَ ما قبل التاريخ ، الذي كان مختفياً في الكهوف ، والأقرب إلى حياة التوحّش ، وذلك قبل أوّل الرسل (آدم) عليه السلام ، حيث تعاليم آدم عليه السلام كانت — كما يقولون — في بداية مرحلة الإنسان الذي يُلبّي صوتَ السماء .. فهذا يعني — بناءً على قولهم — أنّ الموصوفين بكلمة الجانّ غير مكلّفين ، لأنّهم متوحّشون من جهةٍ ، ولأنّه لم يُنزل الله تعالى عليهم رسلاً من جهةٍ أُخرى ، فآدم هو أوّل الرسل ، وبالتالي فالجانّ سوف لا يُسألون عن ذنوبهم ، وسوف لا يدخلون الجنّة ، ولا النار .. إن كان الأمر كذلك ، فكيف نفهم قول الله تعالى : ﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ** ﴾ [الرحمن : ٣٩] ؟!!! ..

.. فالجانّ سيُسأل يوم القيامة هو ذاتُه عن ذنبه ، والمذنب (من الإنس كان أم من الجان) لا يُسألُ إنسٌ غيرُه عن ذنبه ولا جان .. والجان منه من يدخل الجنّة ، وبالتالي فعالم الجانّ عالمٌ مكلّفٌ ، وبالتالي أتته رسلٌ من عند الله تعالى ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ [الاسراء : ١٥] ، وبالتالي فتأويلهم لكلمة الجانّ غير سليم .. أمّا أن تُفصَّل دلالات مختلفة للكلمة ذاتها حسب الأهواء المسبقة الصنع ، فهذا عين الخروج على منهج التدبّر السليم لكتاب الله تعالى ..

وجعلوا مقابلةً بين الصورتين القرآنيّتين التاليتين :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ [الحجر : ٢٤]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر : ٢٦ – ٢٧]

.. فجعلوا الصورة القرآنيّة : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾ متعلّقةً بالصورة القرآنيّة : ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ .. وجعلوا الصورة القرآنيّة : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ متعلّقةً بالصورة القرآنيّة : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ .. فالجانّ (إنسان ما قبل التاريخ حسب ما يزعمون) – هنا – هم المستقدمون ، والإنسان – هنا – هم المستأخرون ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : لماذا يتمّ تجاهل كلمة ﴿ مِنكُمْ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾ ؟!!! فالمستقدمون الذين تعنيهم الآية الكريمة مُخاطبون في هذه الصورة القرآنيّة ، كما هو الحال بالنسبة للمستأخرين ، فهل من الممكن أن نتصوّر أنّ الله تعالى يُخاطب بالصورة القرآنيّة ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ ﴾ بشراً متوحّشين غير مكلّفين لا يعقلون ولا يعرفون الله تعالى ولا منهجه ؟!! ..

ثمّ إنّ ورود كلمة ﴿ ٱلْمُسْتَقْدِمِين ﴾ بهذه الصيغة دون كلمة (الأقدمين) ، أو (الأوّلين) ، وورود كلمة ﴿ ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴾ دون كلمة (الآخِرين) ، يزيد في تبيان ابتعاد تأويلهم عن الدلالات الحقيقيّة للصور القرآنيّة التي يستشهدون بها على شبهاتهم ..

ويقولون : إنّ كلمة بشر تُستعمل مقابل كلمة إنس ، أي أنّ هذا المخلوق الإنسان كان بشراً في عصوره الحجريّة القديمة ، بمعنى أنّه كان إنساناً هو أقرب إلى حياة التوحّش منه إلى حياة المدنيّة والتحضّر .. فكلمة إنسان – حسب ما يذهبون – تُعبّر عن المخلوق

(البشر) الذي تطوّرت جميع زوايا حياته اليوميّة ، وأصبح مهذّباً ومتمدّناً يأنس إلى وجود خالقه كما يأنس إلى التعامل مع بني جنسه ..

.. نقول : إذا اعتمدنا تأويلهم لكلمة بشر معياراً لإدراك دلالات هذه الكلمة في كتاب الله تعالى ، فكيف بنا أن نُدرك دلالات الصور القرآنيّة التالية :

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ [آل عمران : ٤٧]

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف : ١١٠]

﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٦]

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٣١]

.. كيف يتمّ إلباس الكلمات القرآنيّة دلالاتٍ ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ؟!!!

.. وكيف يتمّ تحميل الكلمة القرآنيّة الواحدة معاني متناقضة لا يربطها ببعضها أيُّ رابط ؟!!! ..

ويقولون : حينما يأتي وصف القرآن الكريم للخلق من تراب ، فهو يعني الجانب الجسدي ، بينما حينما يأتي للخلق من حمأٍ مسنون ومن صلصالٍ كالفخّار فإنّه يعني صفاتٍ معنويّة اجتماعيّة تتعلّق بطبيعة الإنسان ، ولا يعني مراحل الخلق الجسديّة ..

.. نقول : إنّ وصف القرآن الكريم لخلق الإنسان من التراب ، ومن الطين ، ومن الحمأ المسنون ، ومن الصلصال كالفخّار ، هو وصفٌ لمراحل خلق جسد آدم ، بدليل ذكر هذه المراحل للموقف ذاته .. لننظر إلى الصورتين القرآنيّتين التاليتين :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [لأعراف : ١٢]

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٣٣]

ولننظر إلى الصور القرآنيّة التالية :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦]

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢]

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠]

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤]

ولننظر إلى الصورتين القرآنيّتين التاليتين :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾
[الحجر : ٢٨]

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ [ص : ٧١]

.. من الواضح وضوح الشمس وسط النهار أنّ الآيات الكريمة تصوّر الجوانب المختلفة لمراحل خلق جسد آدم عليه السلام ، فمن المعلوم أنّ التراب إذا أُضيف إليه الماء أصبح طيناً ، وإذا تُرك الطين حتى تُصبح له رائحة أصبح بحالة الحمأ المسنون ، وإذا ترك حتى يتصلّب أصبح بحالة الصلصال كالفخّار ..

.. ويقولون في العبارة القرآنيّة **﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾** بأنّ الله تعالى يصف طبيعة البشر من (المستقدمين) ، وبأسلوب الاستعارة أيضاً ، ليخبرنا بأنّ طبيعة البشر في عصوره الحجريّة كانت **﴿ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾** ، أي تشتعل غضباً لأتفه الأسباب ، وتترك آثاراً أليمةً تنفذ من سموم الإنسان ، أي من منافذه المعروفة ، وكأنّه جلَّ وعلا من خلال هذه الاستعارة ، قد قال بألفاظٍ أخرى بأنّ البشر في عصوره الحجريّة كان متوحّشاً وبعيداً عن التمدّن والتهذيب ..

.. نقول : هذا التأويل يتبيّن سقوطه واضحاً جليّاً من سقوط التأويلات التي سبقته .. وإنّ المنهج السليم لإدراك دلالات هذه الصورة القرآنيّة هو النظر إليها من منظار

الصورة القرآنيّة ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ .. فمن الواضح أنّ النار هي ماهيّة الخلق ، وليست استعارةً أو مجازاً لصفاتٍ معنويّة كما يزعمون ..

.. وأوّل بعضهم الصورة القرآنيّة ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٦ – ٢٧] .. فقالوا : إنّ الأثرياء أصحاب النفوذ والسلطان من الناس (الجنّ حسب زعمهم) تجمعهم صفات الطموح والنشاط والجذب ، كما هي صفات النار الطامحة صعوداً ، والجذّابة بلونها وشكلها ودفئها ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : كيف يتجاهلون الكلمتين ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ ؟ .. فهل الأثرياء وأصحاب النفوذ خلقهم الله تعالى قبل العامّة من الفقراء والمحكومين ؟!! .. أيُّ عقلٍ يمكنه أن يتصوّر ذلك ؟ ..

.. وكيف يتمّ تجاهل حقيقة دلالات الكلمتين ﴿ خَلَقْنَا ﴾ ، ﴿ خَلَقْنَـٰه ﴾ اللتين تبيّنان ماهيّة الخلق والتكوين ، لا صفاتٍ معنويّة كما يذهبون .. إنّ الصفات المعنويّة والاجتماعيّة التي يتحدّثون عنها ، ليست ملازمةً للإنسان في كامل حياته .. والله تعالى حينما يقول : ﴿ خَلَقْنَا ﴾ ، ﴿ خَلَقْنَـٰه ﴾ ، فإنّه يعني صفاتٍ ثابتةً مستمرّةً على مدار حياة الإنسان ، وعلى مدار حياة الجانّ ، تتعلّق بماهيّة الخلق التي تُلازم المخلوق ، ولا يستطيع التحرّر من قانونها ..

.. لقد رأينا سابقاً كيف أنّ وصف الجانّ في القرآن الكريم ينسجم تماماً مع الماهيّة الناريّة ، كماهيّة خلق ، وليس كماهيّة معنويّة أو اجتماعيّة ، وذلك عبر عدم امتلاك الجانّ للمشيئة .. وأنّ وصف الإنسان (الجسد) في القرآن الكريم ينسجم تماماً مع الماهيّة المادّية الكثيفة كماهيّة خلق ، وليس كمجرّدِ ماهيّة معنويّة أو اجتماعيّة ، وذلك عبر امتلاك الإنسان (نفس + جسد) للمشيئة ..

ورأينا أيضاً أنّ كلمتي الجنّ والإنس تصفان عالمين مستقلّين في ماهيّة الخلق ، استقلالاً يستمرّ في الآخرة .. وهذا يؤكّد أنّ الوصف هو لماهيّة الخلق ، وليس لصفاتٍ معنويّة أو اجتماعيّة ، تتغيّر من فترة إلى أُخرى ..

.. من هذا كلّه نستطيع أن نجزم بأنّ الكلمات ((الجنّ ، الجانّ ، الجنّة)) هي أسماء ذات ، ولا يُمكن ولا بأيِّ وجهٍ من الأوجه أن تكون أسماء صفاتٍ لبعض البشر كما زعموا ..

وفي الآية الكريمة التالية .. ﴿ **وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾ [الأنعام : ١٠٠] .. قالوا : الله تعالى يُخبر بهذه الآية أنّ الاعتقاد بوجود عالمٍ شبحيٍّ مخلوقٍ يقوم بخوارق الأعمال ولا تراه الأعين هو عقيدةٌ وثنيّةٌ ، واستدلّوا بالعبارة القرآنيّة ﴿ **وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ** ﴾ ، عبر قرن الله تعالى بين اعتقاد المشركين بوجود ﴿ **بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ** ﴾ ، وبين اعتقادهم بوجود الجنّ .. وقالوا إنّ كلمة ﴿ **ٱلْجِنَّ** ﴾ في هذه الآية الكريمة تصف كائناً شبحيّاً يزعم بعض البشر وجوده ولذلك أطلقوا عليه اسم الجن ..

.. نقول : الله تعالى حينما يُورد كلمةً في كتابه الكريم (ككلمة الجنّ مثلاً) ، فهذا يعني أنّها كلمةٌ فطريّةٌ تصوّر حقيقة الشيء الذي تعنيه تصويراً مطلقاً ، من منظار علم الله تعالى المطلق بحقيقة هذا الشيء ، ولا تصوِّر هذا الشيءَ من زاوية إدراك البشر لــه ، أو عدم إدراكهم .. فإذا كانوا يقولون إنّ كلمة ﴿ **ٱلْجِنَّ** ﴾ هنا تعني كائناً شبحيّاً يتخيّل وجودَه بعضُ البشر ، فقولهم هذا – في معيار المنهج السليم لإدراك دلالات كتاب الله تعالى – هو اعترافٌ منهم – سواءٌ أدركوا ذلك أم لم يدركوه – بوجود هذا الكائن الشبحي ..

.. أمّا قولهم إنّ الشرك (المعني هنا) هو الاعتقاد بوجود هذا الكائن الشبحي المسمّى باسم الجنّ ، فهو قولٌ مردودٌ .. فالشرك ليس بالاعتقاد بوجود الكائن الشبحي

(كما يزعمون) ، ولا بعدم وجوده ، إنّما الشرك هو بجعل هذا الكائن (شبحاً كان أم غير ذلك) شريكاً لله تعالى ، سواءٌ كان يعمل الخوارق أم لم يكن يعملها .. وبالتالي فإنّ استشهادهم بهذه الآية الكريمة على صحّة ما يذهبون إليه ، هو دليلٌ ضدّهم وليس لهم ..

.. ويقولون حينما تأتي كلمة الجنّ مقابلةً لكلمة الإنس ، في كتاب الله تعالى ، فإنّها تعني القادة والزعماء والأثرياء وأصحاب النفوذ من الناس ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : ما دام الجنّ مخلوقاً من النار كما يؤكّد الله تعالى ، والإنس من التراب .. فهل أصحاب النفوذ والسلطان والزعماء والأثرياء تتغيّر ماهيّتهم في الخلق من النار إلى التراب ، حين يفقدون نفوذهم وسلطانهم وثراءهم ؟!!! .. وهل العامّة تتغيّر ماهيّة خلقهم من التراب إلى النار ، إن أصبحوا أثرياء وأصحاب نفوذٍ وسلطان ؟!!! ..

.. وحتى لو طلّقنا عقولنا واعتبرنا أنّ خلق الجانّ من النار يعني صفاتٍ معنويّةً واجتماعيّةً كما يؤوّلون ، فهل هذه الصفات ستستمرّ في الآخرة ؟!!! .. فقد بيّن القرآن الكريم لنا أنّ الجنّ سيدخلون الجنّة والنار كجنٍّ وليس كإنسٍ ..

وبناءً على قولهم ، كيف نفهم الصورتين القرآنيّتين التاليتين اللتين تصفان لنا بعض الإنس والجانّ في الآخرة ..

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾ [الرحمن : ٥٦]

﴿ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ۝٧٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٧٣ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾ [الرحمن : ٧٢ – ٧٤]

.. إنّ قاصرات الطرف والحور هنّ في الآخرة ، ولا وجود لهنّ في الدنيا .. والطمث الوارد في هاتين الصورتين القرآنيّتين هو حصراً في الآخرة .. وفي الآخرة لا يُوجد أصحاب نفوذ وسلطان ، ولا أثرياء ، ولا غرباء ، ولا عامّة .. ولا يُوجد ما هو غائب ومستتر : ﴿ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ﴾ [الحاقة : ١٨] ..

.. وإذا كان الناس هم الفقراء والعامّة ، دون أصحاب النفوذ ، ودون الأثرياء ، فكيف بنا أن نُدرك دلالات الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾ [النحل : ٦٩]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾ [الحجرات : ١٣]

فهل العسل الذي يخرج من بطون النحل فيه شفاءٌ للعامّة من الناس دون الأثرياء وأصحابِ النفوذ ؟ !!!.. وهل العامّة دون أصحاب النفوذ هم فقط مخلوقون من ذكرٍ وأنثى ؟!!! ..

لا شكّ أنّنا حينما نطرح عليهم هذين السؤالين سيقولون : إنّ كلمة الناس هنا تتضمّن الجنّ .. وهنا نسألهم السؤال التالي : لو فرضنا – جدلاً – أنّ الأمر كما تقولون (وهو ليس كذلك) ، فكيف تُثيرون بعض الشبهات – كما سنرى – بأنّ ورود كلمة الناس دون الجانّ في بعض الآيات الكريمة هو شبهةٌ تنكرون من خلالها وجود الجنّ كعالمٍ مستقلٍّ ؟!!! .. وأين هو المعيار والمنطق في فرز دلالات الكلمات ((الناس ، الإنس ، الإنسان)) ؟ .. فمرّة تقولون إنّها تعني العامّة والحاضرين دون أصحاب النفوذ ودون الأثرياء ، ومرّة تقولون إنّها تعني الجميع !!! ..

.. وإذا كانت كلمتا الإنس والجنّ تشيران إلى فارقٍ في الحالة الاجتماعيّة بين البشر ، كالسلطة والثراء والنفوذ ، وتشيران إلى الحاضرين والغائبين ، ولا تشيران إلى جنسين مختلفين لكلٍّ منهما ماهيّته الخاصّة به ، فكيف نُدرك دلالات الصورتين القرآنيّتين التاليتين ؟ ..

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ...... ﴾ [الأنعام : ١٣٠]

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ [الرحمن : ٣٣]

فهل هناك رسلٌ للأثرياء وأصحاب السلطان والنفوذ والحاضرين ، وهناك رسلٌ للعامّة والغائبين ؟!! .. وهل هناك في العلوم الكونيّة وفي قوانين الفضاء علومٌ وقوانين خاصّة بالأثرياء وأصحاب النفوذ والحاضرين ، وعلومٌ وقوانين للعامّة والغائبين ؟!! ..

.. ويقولون في سورة الناس ، يأمرنا الله تعالى بالتعوّذ : ﴿ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ ، فلماذا لم ترد الاستعاذة بربّ الجنّ ؟ .. ويقولون إنّ الناس وحدهم معنيّون في هذه السورة ، وكلمة ﴿ ٱلْجِنَّةِ ﴾ في نهاية هذه السورة تعني فئةً من الناس .. أي أنّ الصورة القرآنيّة ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ [الناس : ٥ – ٦] في نهاية هذه السورة تعني أنّ الناس هم الجنّة والناس ، أي : الناس = الجِنّة + الناس ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : إذا أخذنا معياركم وهو أنّ : الناس = الجِنّة + الناس ، فمن البديهي – بناءً على قولكم – أن يكون معنى كلمة ﴿ ٱلنَّاسِ ﴾ في بداية هذه السورة : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ ، هو : الجِنّة + الناس ، أي – حسب ما تزعمون – يأمر الله تعالى بالتعوّذ بربّ الجِنّة والناس ، وبمَلِك الجِنّة والناس ، وبإله الجِنّة والناس .. فلماذا كلمة الناس في بداية السورة تعني الناس حصراً (وهي كذلك) ، وفي نهايتها تعني : الجِنّة + الناس ؟!!! .. فعلى أيِّ ميزانٍ نضع هذه التصوّرات ؟!!! ..

.. وكيف يطلبون منّا أن تكون الآيات الكريمة في بداية هذه السورة على الشكل (قل أعوذ بربّ الجنّة والناس ، مَلِك الجنّة والناس ، إله الجِنّة والناس) حتى يمنّوا علينا بالاعتراف بوجود عالم الجنّ ، مع العلم أنّ سورة الناس هي دعوة للناس – حصراً – للتعوّذ من وسوسة عالمي الجِنّة والناس ، وليست دعوة ليتعوّذ عالم الجنّ من عالم الإنس ، لأنّ عالم الإنس لا يستطيع أن يؤثّر في عالم الجنّ ، الذين لا نراهم أصلاً ..

وقد رأينا – في الفصل الأوّل – كيف أنّ الوسوسة (التي يأمرنا الله تعالى بالتعوّذ منها في هذه السورة) لا تأتي في كتاب الله تعالى إلاّ مرتبطة بالشيطان وبالنفس ، لأنّها مسألة معنويّة .. وفي سورة الناس يؤكّد الله تعالى هذه الحقيقة ، فقوله تعالى ﴿ **مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ** ﴾ يعني أنّ الوسوسة في صدور الناس تأتي من طريقين ، هما طريق شياطين الجِنّة التي تُوسوس في نفس الإنسان معنويّاً ، دون أيِّ حسٍّ مادّيٍّ ، وطريق شياطين الإنس التي توسوس في نفس الإنسان معنويّاً ، عن طريق الفِتن والنميمة وغير ذلك من الوسوسة ..

.. ويثيرون فتنةً أُخرى فيقولون .. ما دام الناس وحدهم مع الحجارة ، هم وقود النار ، فكيف يدخلها الجانّ ؟ .. ويعتبرون ذلك دليلاً على عدم وجود عالم الجنّ ..

﴿ **فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ** ﴾ [البقرة : ٢٤]

﴿ **قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ** ﴾ [التحريم : ٦]

ونردّ على ذلك فنقول : لقد بيّنا – في الفصل الأوّل – الحكمةَ الإلهيّةَ من استثناء عالم الجنّ من مسألة الوقود .. فالجنّ من النار ، والنار ليست وقوداً ، والوقود هو الذي يتحوّل في النهاية إلى النار .. فكيف يريدون من النار أن تكون وقوداً ؟!!! .. إنّ في هذه المسألة دليلنا على أنّ عالم الجنّ ليس عالماً مادّيّاً حسّيّاً ، كأجساد الناس وكالحجارة ..

ومن قال إنّ بعض أفراد عالَم الجنّ لا يدخلون النار ؟! ..

﴿ **قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ** ﴾ [الأعراف : ٣٨]

﴿ **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ** ﴾ [الأعراف : ١٧٩]

وكيف نُوفِّق بين قولهم .. إنّ كلمة الناس في العبارة القرآنيّة ﴿ **وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ** ﴾ تعني البشر حصراً (وهي كذلك) ، وبين قولهم في سورة الناس بأنّ

كلمة الناس تعني الجِنّة والناس ؟!!! .. فلو أنّهم يعتمدون منهجاً يسيرون عليه – مهما كان هذا المنهج – لما وقع التناقض في أقوالهم ..

.. وفي الصور القرآنيّة التالية :

﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

﴿ ۞ وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت : ٢٥]

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٨]

.. يقولون : إنّ الحرف ﴿ مِّنَ ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ ﴾ هو حرف (من) التفسيريّة ، بمعنى أنّ الأمم التي كانت قبلكم مؤلّفة من (الجنّ) وهم زعماء تلك الأقوام ، (ومن الإنس) وهم رعايا تلك الأقوام ..

ونردّ على ذلك فنقول : إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ ﴾ ، تصوّر لنا نوعي الداخلين في النار ، ولا تصوّر لنا الأمم السابقة كما يقولون ، والآية الكريمة التالية (التي استشهدوا بها) تُبيّن هذه الحقيقة بشكلٍ جليٍّ ..

﴿ قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ ﴾ [الأعراف : ٣٨]

.. وإذا كان معنى العبارة القرآنيّة ﴿ مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ ﴾ أنّ الأمم التي كانت قبلنا مكوّنةٌ من زعماء تلك الأقوام (الجنّ) ، ومن رعايا تلك الأقوام (الإنس) ، كما يقولون ، فإنّ ذلك يقتضي أنّ هذه الأمم السابقة ﴿ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم ﴾ قد

دخلت بأفرادها دون استثناءٍ في النار ، من زعمائها إلى رعاياها ﴿ **أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ** ﴾ ، وهذا يُناقض حقيقة السنن ، فحتى قوم فرعون وُجد فيهم من يؤمن بالله تعالى .. ﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥ** ﴾ [غافر: ٢٨] ... وكلامهم يقتضي أيضاً أنّ الصورة القرآنيّة ﴿ **أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ** ﴾ حشوٌ لا فائدة منه ، لأنّ كلّ الأمم — في كلّ زمانٍ ومكان وليس فقط الأمم الخالية — مكوّنة من زعماء ورعايا ، وهذا يُناقض حقيقة النصّ القرآني الذي صاغه الله تعالى صياغةً مطلقة ..

.. وفي الصورة القرآنيّة التالية :

﴿ **وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ** ﴾ [سبأ : ١٢ — ١٣]

يقولون : إنّ كلمة الجنّ — هنا — تعني الناس الأجانب ، والغرباء عن الوطن ، من باب أنّهم يظلّون في خفاءٍ عن الأعين ، ولا يظهرون إلاّ حين التعامل معهم ، فتطلق كلمة (جنّ) بهذا المعنى مشتقّة من جنَّ بمعنى اختفى عن الأنظار ..

ويقولون .. أمامنا وسيلة واحدة لمعرفة هؤلاء الأجانب والغرباء عن موطن سليمان عليه السلام ، الذين أطلق الله تعالى عليهم هذه الصفة (الجنّ) .. هذه الوسيلة هي العودة إلى ما أخبر به كاتب سفر أخبار الملوك الأول في الإصحاح الخامس منه ، وهو أحد أسفار العهد القديم ، فموضوع هاتين الآيتين يعود — كما يقولون — إلى بناء هيكل سليمان المشهور ، وكاتب هذا السفر تكلّم بإسهابٍ عن بناء هيكل سليمان ، وعمّن بناه ، وعن مواطن الذين بنوه ..

فاليهود الذين اشتهروا بالمغالاة فيما يروونه وينسبونه إلى تاريخهم ، لم يصدر عن مؤرّخيهم شيئاً من ذكر الجنّ (كعالم شبحي) في بناء هيكل سليمان عليه السلام ..

وهكذا .. يستشهدون بعدم ذكر اليهود للجنّ في كتابتهم عن هيكل سليمان عليه السلام ، على عدم وجود الجنّ كعالم ناري لا نراه ، بعد الجزم بأنّ كلمة الجنّ في الصورة القرآنيّة ﴿ **وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ** ﴾ تعني الغرباء الذين بنوا هيكل سليمان عليه السلام ..

نقول : من قال إنّ هذه الصورة القرآنيّة ، وسياق الكلام المحيط بها ، يصوّر لنا بناء الهيكل المزعوم لسليمان عليه السلام ؟!! .. وكيف تكون أسفار اليهود معياراً لحدود دلالات النصوص القرآنيّة ، والكلماتِ القرآنيّة ؟!! .. وكيف يكون البشرُ الغرباء العاملون بين يدي سليمان في خفاءٍ عن أعين المجتمع ؟!! ..

.. وكيف يُفسِّرون لنا قول الله تعالى عن هؤلاء الجنّ .. ﴿ **وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ ؟!!! .. كيف يكون البشرُ مُسخّرين للعمل بين يدي سليمان عليه السلام بأمرٍ مُباشرٍ من الله تعالى ، بحيث يذوقون عذاب السعير من الله تعالى ، في حال الابتعاد عن أمره الخاصّ بهذا التسخير ؟!! ..

.. وفي الآية الكريمة :

﴿ **وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ** ﴾ [النمل : ١٠]

يقولون : استعمل الله تعالى كلمة ﴿ **جَآنٌّ** ﴾ في هذه الآية الكريمة للحيّة البيضاء كحلاء العين ، وقد أتى بكاف التشبيه ، فشبّه العصا وهي تهتزّ كأنّها حيّة بيضاء تراءت لعيني موسى عليه السلام ، فولّى من خوفه منها ﴿ **مُدْبِرًا** ﴾ ..

نقول : إنّ استشهادهم بهذه الصورة القرآنيّة يدلّ على فساد تأويلاتهم من أوّلها إلى آخرها .. إنّ قول الله تعالى ﴿ **فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ** ﴾ ليس تشبيهاً للعصا بالحيّة

البيضاء كما يقولون ، لأنّ العصا تحوّلت حقيقة وليس تشبيهاً إلى حيّة (ثعبان) ، وقد أدرك هذه الحقيقة سحرةُ فرعون ، ولذلك آمنوا ..

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٠٧]

﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ [طـه : ٢٠]

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢]

.. فكاف التشبيه في قوله تعالى ﴿ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ في الصورة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ ﴾ هو تشبيهٌ للعصا التي تحوّلت حقيقةً إلى ثعبانٍ مُبين ، بشيءٍ آخر غير العصا وغير الثعبان ، وليست تشبيهاً للعصا بالحيّة البيضاء كما يقولون ..

وفي هذه الآيات الكريمة نرى أنَّ هذه العصا وُصِفَت بأنّها ﴿ حَيَّةٌ ﴾ ، ووُصِفت بأنّها ﴿ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ .. وفي هذين الوصفين المتمايزين العائدين إلى جذرين لغويين مختلفين تصويرٌ مُطلقٌ يُبيّن مرحلتي تحوّل العصا ككائنٍ يابسٍ لا حياة فيه إلى ثعبان مُبين وهو من الزواحف المعروفة ..

إنَّ الآية الكريمة ﴿ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴾ ، هي ضمن سياقٍ قرآنيٍّ يصوِّر حواراً بين الله تعالى وبين موسى عليه السلام ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴾ [طه : ١٧ – ٢١] .. وفي هذا السياق يُصوِّر لنا القرآن الكريم مرحلةَ تحوّل العصا ككائن جامد ميّت إلى حالةٍ تدبُّ فيها الحياة وتسعى متحرّكة .. فكلمة : ﴿ حَيَّةٌ ﴾ ليست اسمَ ذاتٍ للثعبان ، وليست اسمَ صفةٍ للثعبان ، إنّها تصفُ الحياةَ التي

دبّت في العصا الميّتة ، فتصوِّرُ لنا مرحلةَ تحوّلها من حالتها الميّتة إلى حالةٍ تدبّ فيها الحياة فتسعى متحرّكة ..

بينما في الآيتين الكريمتين **﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾** [الأعراف : ١٠٧] ، **﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾** [الشعراء : ٣٢] ، نرى أنَّ السياق القرآني يُصوِّر حواراً بين موسى عليه السلام وبين فرعون ، وبإمكان القارئ أن يعود إلى سورتي الأعراف والشعراء ليرى هذه الحقيقة .. وفي هذا السياق يُصوِّرُ لنا القرآنُ الكريم مرحلةَ تحوّل تلك العصا إلى ثعبانٍ مبين ..... وكلٌّ ذلك وفق تصويرٍ قرآنيٍّ مُطلقٍ يُصوِّرُ لنا حقائق جليّة تُسقط تأويلاتهم من أساسها ..

ويثيرون شبهةً أُخرى فيقولون .. إذا كان الجنّ منهم من آمن بالإسلام ، ويملكون القوى الخارقة ، فلماذا لم ينصروا رسول الله ﷺ الذي آمنوا به ؟ ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. القوى الخارقة التي يملكونها ، هي في عالمهم وليس في عالمنا ، والأعمال التي قاموا بها ، رأينا أنّها خصوصيّةٌ أُعطيت لسليمان عليه السلام ، فسخّرهم ضمن إطار مشيئته .. وقد رأينا كيف أنّهم لا يملكون مشيئةً كالبشر ، أي لا يملكون تسخير الأسباب في عالم الجزئيّات ..

.. وهذه الشبهة هي من أدلّتنا ضدّ مثيريها .. فالجنّ الذين آمنوا برسول الله ﷺ لم ينصروه نصراً مادّيّاً فيقاتلون معه بالسيف ، لأنّهم من الجنّ ، أي لأنّهم من عالمٍ آخر .. وهنا نسأل مثيري هذه الشبهة فنقول لهم : إذا كان الجنّ هم الأثرياء وأصحاب النفوذ والغائبون ، كما تزعمون ، ونحن نعلم أنّ الكثير من هؤلاء نصر الرسول ﷺ وقاتل معه بالسيف .. فكيف يستقيم تعريفكم للجنّ مع هذه الحقيقة ؟!! .. ألا ترون أنّ شبهتكم هذه هي دليلٌ لنقض تعريفكم للجنّ من أساسه ؟ ..

.. ويقولون .. الإنس والجنّ سيدخلون النار والجنّة كما يؤكّد القرآن الكريم ، وهذا نتيجة أنّهم مُكلّفون .. وإذا كان الجنّ عالماً آخر غير عالم الإنس ، فلماذا يحصر الله تعالى حمل الأمانة بالإنسان ، في الآية الكريمة التالية ..

﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

ونردّ على ذلك فنقول .. لقد بيّنا بما فيه الكفاية ، أنّ الأمانة المعروضة التي حملها الإنسان هي الائتمان على دفع الأسباب باتّجاه المُراد ، وبالتالي هي خلافة المؤتَمَن لله تعالى في الأرض .. ولذلك بعد انتهاء هذه الخلافة يرث الله تعالى الأرض بعد أن يترع سلطان المؤتَمَن على هذه الأسباب .. ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [مريم : ٤٠] .. وإنّ امتلاك الإنسان لأمانة التكليف هذه ، لا يتعارض أبداً مع كون عالم الجنّ مكلّفاً تكليفاً يتناسب مع ماهيّة خلقه ، وهو — كما رأينا — التفاعل مع الكليّات دون الجزئيّات ..

ونقول لهؤلاء .. لقد انطلقتم في شبهةٍ أخرى — كما رأينا — من أنّ كلمة الناس تتضمّن عالم الجنّ ، فقلتم : الناس = الجِنّة + الناس .. وهنا لو وضعنا شبهتكم هذه معياراً لقولكم ، فلماذا لا تكون كلمة الإنسان الواردة في آية حمل الأمانة متضمّنةً للجانِّ أيضاً ؟ !!! .. هي ليست كذلك .. ولكن ما نُريد أن نُبيّنه هو كيف أنّكم تُفصِّلون دلالاتٍ متعارضةً للكلمة القرآنيّة ذاتها ، فحسب الشبهة التي تريدون طرحها ، تُفصِّلون الدلالات دون أيِّ معيار ..

.. ويطرحون شبهةً أخرى فيقولون .. لا بدّ أن يكون الرسول من جنس من أُرسِل إليهم ، والرسول محمّد ﷺ رسولٌ إلى عالمي الإنس والجنّ ، ولذلك — كما يقولون — لا بُدّ أن يكون الجنّ من بني آدم ، وبالتالي ليسوا كائناتٍ شبحيّة ، ويستشهدون بالآية الكريمة ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴾ [الإسراء : ٩٥]

.. ونردّ على ذلك فنقول : كلمة الرسول تعني حامل الرسالة .. وما بين المُرسِل والمُرسَل إليه قد يكون هناك أكثر من رسولٍ لإيصال هذه الرسالة ، وذلك حسب العوالم المختلفة التي يبتعد بها المُرسَل إليه عن المُرسِل ، وحسب ماهيّة الإرسال ..

.. الله تعالى فوق المادّة والمكان والزمان ، ونحن ومحمّد ﷺ بشرٌ في هذا العالم المادّي .. لذلك فإنّ الرسول الأوّل في حمل رسالة الله تعالى إلينا هو جبريل عليه السلام ، الذي أوصل هذه الرسالة إلى الرسول محمّد ﷺ ..

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ – ١٩٥]

﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩ – ٢١]

وبعد ذلك كان الرسول محمّد ﷺ حاملاً الرسالة من جبريل عليه السلام إلينا نحن البشر ، فرسالة الله تعالى إلينا مرّت عبر جبريل عليه السلام .. وهنا نسأل مثيري هذه الشبهة فنقول لهم : هل جبريل الذي حمل رسالة الله تعالى إلى محمّد ﷺ هل هو من البشر ؟!!! ..

.. فكون الرسول محمّد ﷺ رسولاً للناس كافّة **﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾** [سبأ : ٢٨] ، **﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾** [الأعراف : ١٥٨] ، لا ينفي استماع الجنّ للقرآن الكريم ، ولا ينفي الإيمان بالكليّات التي جاء بها .. والقرآن الكريم يبيّن لنا أنّهم سمعوا القرآن الكريم وآمنوا به ونقلوه إلى قومهم .. وإنْ كان تصوير القرآن الكريم بأنّ رسالة الرسول ﷺ للناس كافّة وجميعاً ، دون ذكر اسم الجانّ في هذين النصّين ، دليلاً على عدم وجود الجنّ ككائنات أُخرى غير البشر ، فإنّ ذلك اعترافٌ منهم على أنّ الجنَّ غير البشر ، وإن كانوا لا يُريدون هذه النتيجة ..

.. فكيف يكون عدم ورود الجنّ في هذين النصّين دليلاً على عدم وجود الجنّ (ككائنات غير بشريّة) ودليلاً على وجودهم (كجزءٍ من البشر) ، في الوقت ذاته ؟!!!

.. وهنا نسألهم السؤال التالي : إن كان الجنّ هم العامّة والتابعون والغرباء و ..... فلماذا لم يُذكَرُوا في هذين النصّين ؟!!! ، وإن كانت كلمة الناس تشمل الجنّ (حسب ما يذهبون) فلماذا يحتجّون بهذين النصّين ؟!!! ..

.. ومن قال إنّ محمّداً ﷺ قد خاطب الجنّ ورآهم وتحاور معهم ؟!!! .. الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن : ١] .. فهؤلاء الذين صرفهم الله تعالى لكي يسمعوا القرآن ، هم رُسل عالم الجنّ .. وقوله تعالى ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ دليلٌ على أنّ هؤلاء النفر من الجنّ كانوا مخفيّين عن أنظار البشر وعن نظر الرسول ﷺ ، ولذلك يُعْلِم اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بأمرهم عن طريق الوحي ..

.. ومثيرو هذه الشبهة يقولون : إنّ الجنّ المعنيّ في هذه الصورة القرآنيّة ، هم بشرٌ جاؤوا خفيةً ، فاستمعوا إلى الرسول ﷺ فسمعوا القرآن منه ، وآمنوا به ، ونقلوا المنهج إلى قومهم ، دون أن يعلم بهم رسول الله ﷺ ، ودون أن يعلم بهم أحدٌ من الصحابة المحيطين برسول الله ﷺ .. ويقولون : إنّ معنى الآية الكريمة ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن : ٦] في سياق هذه الصورة القرآنيّة ، أنّ الإنس هنا تعني البسطاء من العامّة ، وأنّ الجنّ تعني الأغنياء وأصحاب النفوذ والسلطان ..

.. أعتقد أنّ ما قدّمناه في ردّنا على الشبهات السابقة ، يكفي للردّ على هذه الشبهة .. ولكن لنسألهم السؤال التالي : كم هو حجم هؤلاء الرجال من الجنّ (الإنس حسب تعريفهم) الذين أتوا إلى الرسول ﷺ ، واستمعوا منه القرآن الكريم ، ونقلوه إلى قومهم دون أن يراهم أحد ؟! .. حتى يستطيع عقلنا تصوّر شبهتهم هذه لا بدّ أن يكون حجم كلّ واحدٍ من هؤلاء الرجال أصغر من حجم الذبابة !!! ..

ويقولون .. الأحكام الفقهيّة المتعلّقة بالبشر كأحكام العدّة والحيض والنفاس وَ ..... ، هي أحكامٌ للإنس ، فكيف يُطالب بها الجانّ إن كانوا مخلوقاتٍ شبحيّة ؟ ..

ونردّ على ذلك فنقول .. من قال إنّ هذه الأحكام يُطالب بها الجانّ ؟ .. إذا كانت هذه الأحكام ذاتها لا تنطبق على بعض المسلمين البشر ، حينما يخضعون لبعض الخصوصيّات .. لقد بيّنا أنّ عالم الجنّ لا يُدرك الجزئيّات ، وهذه الأحكام لا تخرج عن ساحة الجزئيّات .. فهذه الأحكام كلّها تتعلّق بالمادّة ، أي بعالم المشيئة ، وقد بيّنا أنّ الجنّ لا يملكون مشيئة ، وكلّ ما يملكونه هو الإرادة .. وهل القرآن الكريم يقول لنا إنّ عالم الجنّ مطالبٌ بالأحكام المرتبطة بالجزئيّات المادّيّة ، حتى يُثيروا هذه الشبهة ؟!! .. ألا تُوجَد في القرآن الكريم أحكامٌ تتعلّق بالكليّات ؟!!! ..

.. وفي الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ ﴾ [الأنعام : ١٢٨]

﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ﴾ [الأنعام : ١٣٠]

.. يقولون : إنّ هاتين الصورتين تبيانٌ على أنّ الجنّ والإنس في حالة معاشرة دائمة ، وأنّهم يعيشون في بيئةٍ واحدة متّصلةٍ زماناً ومكاناً ، وبالتالي فهم من جنسٍ واحد ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. من قال إنّ هاتين الصورتين تحملان ما تذهبون إليه ؟

.. فقد بيّنا بما فيه الكفاية أنّ كلمة الجنّ لا يمكن أن تعني إلاّ الكائنات المخلوقة من الماهيّة النارية ، والتي لا نستطيع رؤيتها ..

ومن قال إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ ، لا تعني إلاّ الاستمتاع بين الإنس والجنّ ، وأنّها لا تعني الاستمتاع بين الإنس بعضهم مع بعض ؟ ..

وحتى لو تمّ الجزم بأنّ العبارة القرآنيّة ﴿ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴾ ، لا تعني إلاّ الاستمتاع بين عالمي الإنس والجنّ .. فإنّ الاستمتاع المعني هو الاستمتاع النفسي ، حيث يؤثّر شياطين الجنّ في نفس الإنسان من خلال الوسوسة ، فتتأثّر إرادة الإنسان نحو

الشرّ ، وبذلك يستمتع هؤلاء الشياطين بحرفهم لإرادة الإنسان عن مُراد الله تعالى ، ويستمتع الإنسان الذي استجاب لهذه الوسوسة ، بأن اتّجهت إرادته نحو نفسه الأمّارة بالسوء ..... ضمن هذه الساحة المعنويّة يكون الاستمتاع ..

.. ويقولون لماذا الحجّ حصراً للناس .. ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ [آل عمران : ٩٧] .. والأمثال يضربها الله تعالى – في القرآن الكريم – للناس حصراً ، والحساب في الآخرة يتعلّق بالناس .. وبناءً على ذلك يستدلّون بإنكار وجود عالم الجنّ ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. كلّ ما ذكرتموه يرتبط بالجزئيّات ، في عالمنا المادّي الثقيل ، وقد بيّنا أنّ عالم الجنّ لا يملك القدرة على ملك الجزئيّات والتفاعل معها .. فالحجّ فريضةٌ يحتاج تنفيذها – بحيثيّاتها المعروفة – إلى امتلاك التفاعل مع الجزئيّات .. والأمثال صورٌ مادّيّةٌ من عالمنا المادّيّ ، يضربها الله تعالى لنا لكي نستنتج منها الكليّات .. والحساب في الآخرة يكون على تفاعلنا مع الجزئيّات واستنتاجنا للكليّات من خلالها ، بينما في عالم الجنّ حيث لا جزئيّات ، والتفاعل مع الكليّات مباشرة ، فإنّ نتيجة الحساب معروفة منذ قيامهم بالعمل ، لأنّهم يتفاعلون أصلاً مع الكليّات التي هي نتائج مباشرة ..

.. ولذلك فإنّ معصية إبليس – كفردٍ من عالم الجنّ – لله تعالى ، أدّت إلى طرده من رحمة الله تعالى مباشرة ، لأنّ إبليس رفض أمر الله تعالى من حيث هو كليّة لا جزئيّة ، بينما معصية آدم عليه السلام لله تعالى ، كانت من حيث هي جزئيّة لا كليّة ..

.. وهنا أيضاً نعود فنقول : إذا كنتم تقولون إنّ كلمة الناس هي الجِنّة والناس (وهي ليست كذلك) فكيف تُناقضون أنفسكم فتقولون لماذا لم يُذكر – في مسائل شبهاتكم هذه – الجنُّ ..

.. ويقولون لماذا لم يُذكر الجنّ في الآية التالية :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج : ١٨]

ونردّ على ذلك فنقول .. إن كان عدم وجود كلمة الجنّ في هذه الآية دليلاً على عدم سجود المؤمنين من عالم الجنّ ، وبالتالي كان دليلاً على عدم وجود هذا العالَم .. فإنّنا نسأل مثيري هذه الشبهة : أين هو ذكر كلمة الملائكة في هذه الآية ؟ .. فمن المعلوم أنّ الملائكة تسجد لله تعالى .. فهل عدم وجود كلمة الملائكة في هذه الآية ، يعني – بناءً على شبهتكم هذه – إنكار وجود عالم الملائكة !!! ..

.. والشبهات التي طرحوها ، جنحت بخيالهم إلى تصوّر دلالات الصورة القرآنيّة التالية (التي تصوّر لنا ما قاله أفراد الجنّ الذين أتوا رسول الله ﷺ وآمنوا به) تصوّراً لا علاقة له بدلالات هذه الصورة القرآنيّة ، لا من قريبٍ ولا من بعيد ..

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن : ٨ – ٩]

.. يقولون .. معنى قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ ﴾ هو : وأنّا طلبنا معرفة الدين والكتاب .. والعبارة القرآنيّة ﴿ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ تعني وجدنا هذا الدين محفوظاً ببيانٍ قويٍّ لا يمكن نقضه والنفاذ إلى أيِّ عيبٍ أو نقصٍ فيه ، وأنّ الحرس الشديد والشهب هم علماء الدين .. وأنّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ تعني أنّ هؤلاء الجنّ الغرباء المتخفّين من البشر (حسب زعمهم) كانوا يتلمسّون مجيء الرسول ﷺ ، بمعنى كنّا نترقّب ظهور الدين الجديد حتى وجدناه ، فأصبح شهاباً يحمينا من ضلال الشياطين وأباطيلهم ..

.. فهذه الصورة القرآنيّة (حسب ما يقولون) تعني أنّ محاولة سرقة تعاليم السماء وتشويهها ، وتحريف الكتب السماويّة كانت ممكنة قبل رسالة محمّد ﷺ .. أمّا بعد هذه الرسالة فالأمر مختلفٌ تماماً ، لأنّ الله تعالى حفظ رسالته الجديدة بشهب البيان ، وبالحجّة والبرهان الذي يحمله كتاب الله تعالى وهذا ما تعنيه — حسب قولهم — العبارة القرآنيّة : **﴿ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾** ..

.. وفي محاولتهم لاستقامة هذه الشبهة ، أوّلوا الصورة القرآنيّة **﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾** [الحجر : ١٨] ، أوّلوها مع الصورة القرآنيّة **﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾** ، بأنّ الله تعالى جعل لكلِّ محاولة استرقاقٍ للسمع (وهي كما يقولون سرقة تعاليم السماء وتحريف الكتب السماويّة) بياناً وبرهاناً وشهاباً يثقب الباطل المفترى ويزهقه ويرجم شيطانه ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. لقد بيّنّا بما فيه الكفاية أنّ كلمة الجنّ في كتاب الله تعالى هي اسم ذات للكائنات المخلوقة من النار ، وأنّه يستحيل تأويلها وسحبها على البشر ، وبالتالي سقوط كلّ شبهةٍ تحاول القفز فوق هذه الحقيقة ..

إنّ ما يُعرف وجوده بالمشاهدة لا يُسند إثباته إلى الوحي ، وفي القرآن الكريم لم يرد نصٌّ يشير مجرّد إشارة إلى أنّ رسول الله ﷺ أو أحداً من البشر رأى الجنّ أو تحدّث معهم .. ولذلك قلنا إنّ إعلام الرسول ﷺ بمسألة الجنّ عن طريق الوحي هو دليلٌ من مجموعة الأدلّة التي تُثبت أنّ أفراد الجنّ ينتمون إلى عالمٍ غير مرئيٍّ بالنسبة لنا ، وأنّه من المستحيل أن يكونوا بشراً بأجسادٍ ماديّة ..

.. وإنّ تأويلهم لقول الله تعالى **﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾** ، هو تأويلٌ باطلٌ وذلك للأسباب التالية :

[١] – إنّ تأويل كلمة السماء بحيث تعني الدين وطلب الحكمة والسموّ والرفعة ، لا دليل عليه في كتاب الله تعالى .. وحتى لو فرضنا – جدلاً – إمكانيّة صحّة هذا التأويل ، فإنّه لا يُلغي المعنى الظاهر الذي تحمله كلمة السماء في كتاب الله تعالى ، وهو هذه القبّة السماويّة التي تعلونا ، والتي تحتوي على الكواكب والنجوم ، أو التي يترل منها المطر وفيها الغيوم والرياح .. أمّا أن يكون التأويل مُناقضاً لظاهر دلالات الكلمة في كتاب الله تعالى ، فهذا يعني أنّه تأويلٌ باطلٌ ، وأنّه تحريفٌ لدلالات الكلمة القرآنيّة عن الحقيقة التي يريدها الله تعالى ..

[٢] – لو كانت كلمة السماء لا تعني إلاّ الدين وطلب الحكمة والسموّ والرفعة – كما يذهبون – لما كانت العبارة القرآنيّة على ما هي عليه ، ولكانت على الشكل (إنّا مسسنا السماء) من الجذر (م ، س ، س) بدلاً من الجذر (ل ، م ، س) .. فمسّ الشيء هو الدخول فيه ، أمّا لمس الشيء فلا يعني الدخول فيه ، وإنّما يعني تحسّسه من خارجه .. وطلب الدين والحكمة والسموّ يعني تدبّر الدين وفهم حقيقته ، وبالتالي الدخول إلى حقيقته ، وليس لمسه من الخارج .. وهذا ما يُناسبه المسّ وليس اللمس .. فالله تعالى يصف الداخلين لأعماق النصّ القرآني بقوله : **﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾** [الواقعة : ٧٩]

[٣] – قوله تعالى **﴿ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾** ، لا ينفي وجود الحرس والشهب قبل لمس هذه السماء (أي قبل نزول القرآن الكريم) نفياً تامّاً كما ذهبوا .. إنّما يؤكّد أنّها (أي الحرس والشهب) زيدت لدرجة أنّ السماء مُلئت بها تماماً .. فالحادث الذي حصل بعد نزول القرآن الكريم هو الملء التامّ ، وليس حدوث هذه الشهب ..

وقوله تعالى **﴿ كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾** يؤكّد هذه الحقيقة ، بأنّه كانت هناك بعض المقاعد للسمع ، تلك المقاعد التي لا تصلها الشهب ، والخالية من الحرس ، بينما الآن (بعد نزول القرآن الكريم) مُلئت السماء بالحرس والشهب ، فلم تعد هناك

أيّ مقاعد للسمع ، وفي هذا دليلٌ على وجود بعض الشهب قبل نزول القرآن الكريم .. فلو لم يكن هناك حرسٌ وشهب ، لما أتت كلمة مقاعد في هذه الصورة القرآنيّة بصيغة النكرة ، ولأتت بصيغة المعرفة .. فورودها بصيغة النكرة ﴿ **مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِ** ﴾ يعني أنّ هناك مقاعد للسمع (وليس كلّ المقاعد الممكنة) كانت صالحةً لاسترقاق السمع ، وهذه المقاعد أصبحت محميّةً بالحرس الشديد والشهب ، شأنها بذلك شأن المقاعد الأخرى التي كانت محميّة قبل نزول القرآن الكريم .. وهكذا فقولهم إنّ الشهب حادثةٌ ، وإنّ هؤلاء الجنّ كانوا يتلمّسون الدين دون أيّ شهاب ، هو تأويلٌ باطلٌ ..

[٤] – تأويلهم للصورة القرآنيّة ﴿ **وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا** ﴾ ، بدمجها مع الصورة القرآنيّة ﴿ **إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ** ﴾ [الحجر : ١٨] ، بأنّ الله تعالى جعل لكلّ محاولة سرقة لتعاليم السماء وتحريف المنهج ، شهاباً وبياناً وبرهاناً لثقب الباطل المفترى .. هذا التأويل يُناقض تماماً دلالات هاتين الصورتين القرآنيّتين :

(**أ**) – إنّنا نرى أنّ الشهاب المبين والشهاب الرصد ، يتّبع ذات من يسترقّ السمع ومن يستمع ، ولا يتّبع محاولة استرقاق السمع كما زعموا ، فالشهاب – كما تؤكّد صياغة هاتين الصورتين القرآنيّتين – يتّجه ليس نحو المحاولة ، وإنّما نحو الذات التي تقوم بهذه المحاولة ..

(**ب**) – لو كان تأويلهم لكلمات السماء والشهب والاستماع في هذه الصورة القرآنيّة سليماً ، لما كان لهذه المسألة (بعد نزول القرآن الكريم) أيُّ وجهٍ من الشرّ .. فأيُّ شرٍّ من الممكن تصوّره إذا جعل الله تعالى لكلّ محاولة سرقة لتعاليم الدين وتحريفها – كما أوّلوا – برهاناً وشهاباً يثقب الباطل المُفترى ..

إنّ القرآن الكريم يبيّن لنا أنّ الجنّ بعدما رأوا السماء مُلئت حرساً شديداً وشهباً يقولون : ﴿ **وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا** ﴾ [الجن

: ١٠] .. وفي هذا دليلٌ على أنّ الشهب التي ملأت السماء هي ليست كما زعموا ، وأنّ السماء ليست كما زعموا ، وأنّ المسألة كونيّة جعلت الجنّ يحتارون بها ، لدرجة لم يعرفوا المُراد منها ، هل هو شرٌّ أم خير .. ونرى أنّهم يُقدِّمون الشرَّ في ظنّهم حول هذه المسألة الكونيّة على الخير .. فلو كان تأويل زاعمي هذه الشبهة سليماً ، لما قالت الجنّ ما قالته في هذه الصورة القرآنيّة ..

[٥] – وفي محاولةٍ لكي يستقيم تأويلهم للصورة القرآنيّة التي رأيناها ، نراهم يسحبون هذا التأويل على الصورة القرآنيّة التالية **﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾** [الملك : ٥] .. فيقولون : المصابيح هنا هي علماء الدين والصحابة وحفظة القرآن ، وبما أنّ هذه السماء الدنيا وُجِدت فيها هذه المصابيح التي هي رجومٌ للشياطين ، فهي رسالة محمد ﷺ والقرآن الكريم ..

.. وهنا نسألهم السؤال التالي .. كيف يمكنكم تأويل كلمة الدنيا في العبارة القرآنيّة : **﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ﴾** .. فهل رسالة محمّد ﷺ والقرآن الكريم هما – بناءً على تأويلكم – الشريعة الدنيا والكتاب الأدنى !!! .. ومهما أوّلتم ، كيف تكون كلمة الدنيا صفةً لشريعة محمّد ﷺ وللقرآن الكريم ؟!!! ..

ويقولون .. كيف ينطلق النجم تاركاً مساره ليطارد الجنّ والشياطين ؟ .. ولو أنّ ذلك كان صحيحاً لتناقص عدد النجوم في السماء ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. الله تعالى يقول **﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾** ، ولم يقل – حسب ما يذهبون – (وجعلناها رجماً للشياطين) .. فكلّ مصباحٍ هو رجمٌ ، وانطلاق الشهاب من المصباح لا يعني أنّ نجماً ترك مساره كما يتوهّمون ..

ثمّ من قال إنّ الآليّة التي يتبع بها الشهابُ الشيطانَ ، هي حصراً الآليّة المادّيّة التي يتصوّرونها ؟! ..ما دام الجنّ من الكائنات غير المرئيّة بالنسبة لنا ، فإنّ الجزم بأيِّ آليّةٍ مادّيّة حسّيّة بالنسبة لهذه المسألة ، لا يرقى إلى مستوى اليقين ..

.. ولّما رأوا أنّ القرآن الكريم يبيّن بشكلٍ لا لبس فيه ، دون أيّ مجالٍ للتأويـــل ، أنّ عالم الجنّ كان موجوداً قبل عالم الإنس ، فقد ذهبوا إلى مجاراة فرضيّة داروَن للتطـــوّر ، فقالوا إنّ الإنسان تطوّر خلقه عبر مراحل إلى أن وصل إلى مرحلة نفخ الـــروح فيـــه ، ويستدلّون بالآية الكريمة ..

﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ [نوح : ١٣ – ١٤]

ونردّ على ذلك فنقول .. إنّ الصورة القرآنيّة ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ، هي خطابٌ موجّهٌ للذين لم يؤمنوا مع نوحٍ عليه السلام ، كما يؤكّد سياق النصّ المحيط بهذه الآية ، إضافة إلى أنّه خطابٌ لكلِّ إنسانٍ موجودٍ على هذه الأرض حتى قيام الساعة .. وبالتالي فالخلق أطواراً يخصُّ كلَّ إنسانٍ موجودٍ وممتحنٍ في هذه الدنيا .. ولا يمكن سحب ذلك على تطوّر خلق البشريّة المزعوم قبل آدم عليه السلام ، فالضمير المتّصـــل في كلمـــة ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ يؤكّد أنّ ماهيّة الخلق المعنيّة ، هي ذات المخاطبين ..

.. وهؤلاء الكافرون الذين يُخاطبهم نوحٌ عليه السلام في الصورة القرآنيّة ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ، ليسوا مؤمنين بالغيب .. وتصـــوّرات مثيري هذه الشبهة عن التطوّر هي غيبٌ لم يشهده هؤلاء الكافرون ، فكيف يضع نـــوحٌ عليه السلام – بناءً على زعمهم – مقدّمةً غيبيّةً بين أيديهم ، لينطلق منها إلى دعـــوتهم للإيمان بالله تعالى وليرجوا له وقاراً ؟!! ..... بينما مراحل خلق الإنسان في الحياة الدنيا ، هي مسألة حسّيّة وليست غيبيّة ، وهي المعنيّة بالعبارة القرآنيّة ﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾ ... فأطوار الخلق بالنسبة لكلِّ إنسانٍ على سطح الأرض بيّنها الله تعالى في كتابه الكريم :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا

ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٢ – ١٤]

.. ولمّا كان حرف الفاء في الكلمتين **﴿ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴾** في الصورة القرآنيّة التالية ، يهدم ما يذهبون إليه ، نراهم يقولون ، إنّ فاء التعقيب – هنا – بمعنى ثمّ التي تُفيد التراخي في الزمن ، ضاربين بعرض الحائط الثوابت اللغويّة التي يُقرّها القرآن الكريم ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٦ – ٨]

ولذلك يقولون .. إنّ آدم المذكور في القرآن الكريم ليس أوّل البشر على وجه الأرض ، وإنّما سبقه آدميّون كثيرون ، ويستدلّون بقول الملائكة : **﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾** [البقرة : ٣٠] .. وبالتالي يقولون إنّ خلافة آدم عليه السلام في الأرض ، ليست لله تعالى ، وإنّما لمن سبقه من البشر ، ويستدلّون بالآية الكريمة **﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾** [آل عمران : ٣٣] على أنّ آدم حينما خُلق لم يكن وحده ، وإنّما اصطفاه الله تعالى من بين قومه الذين كان منهم إبليس ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. إنّ قولهم هذا يقتضي أنّ آدم عليه السلام وُلد من بعض هؤلاء البشر الذين سبقوه ولادةً ، وذلك كغيره من أبناء جيله ، أي أنّه مرّ بمراحل الخلق التي يمرّ بها البشر ، من النطفة إلى العلقة إلى ..... ، وإن كان الأمر كما يتخيّلون ، فكيف نفهم قول الله تعالى **﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾** [آل عمران : ٥٩] ؟!!! ..

إنّ هذه الآية الكريمة تبيّن أنّ خلق آدم وعيسى عليهما السلام ، ليس كخلق باقي البشر ، ولم يمرّ بمراحل الخلق المعروفة .. فكيف يستقيم – مع هذه الحقيقة – قولهم بأنّ

آدم وُلد من آدميّين سبقوه ؟!!! .. وهل من الممكن أن نتصوّر أنّ اسم ذاتٍ يرد في كتاب الله تعالى – كاسم آدم – ويخاطب الله تعالى صاحب هذا الاسم بأداة النداء ، من الممكن أن يرتبط بأشخاصٍ كثيرين غير معلومين ؟!!! ..

.. وقد بيّنّا في الفصل الثاني كيف أنّ قول الملائكة ﴿ **أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ** ﴾ ، كان قبل خلق آدم (الجسد) ، وكان نتيجة رفع الله تعالى غطاء غيب الزمن المستقبل ، فرأت الملائكة ما سيكون من فسادٍ ومن سفكٍ للدماء على سطح الكرة الأرضيّة حتى قيام الساعة ..

.. أمّا بالنسبة للآية الكريمة ﴿ **۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ .. فنقول .. إنّ ساحة اصطفاء آدم عليه السلام هي ذاتها ساحة اصطفاء نوحٍ وآل إبراهيم وآل عمران ، وهي ساحة العالمين ﴿ **عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ** ﴾ .. فحرف العطف (الواو) بين آدم ونوحٍ وآل إبراهيم وآل عمران ، في هذه الآية الكريمة ، ليس عبثاً ، فهو يبيّن لنا أنّ هؤلاء الذين يجمع بينهم حرف العطف المذكور في ساحة الاصطفاء ، تجمعهم ساحة اصطفاء واحدة ، هي ساحة العالمين ..

وحيثيّات الاصطفاء تتعلّق بتمييز المصطفين بخواصّ تختلف عمّا يتّصف به باقي البشر حتى قيام الساعة ، وذلك من زاوية هذه الخواصّ .. فعلى سبيل المثال – لا الحصر – بالنسبة لآدم عليه السلام ..... آدم هو أبو البشريّة جمعاء ، وآدم سجدت له الملائكة ، وآدم اختاره الله تعالى – مع زوجته – لجنّة الاختبار ..... هذه الصفات اصطفاه الله تعالى بها على باقي البشر حتى قيام الساعة ..

.. ودفعتهم تصوّراتهم هذه إلى تأويل مراحل خلق آدم عليه السلام ، والتي بيّنها الله تعالى في القرآن الكريم ، تأويلاً يقولون فيه : إنّ بيان الله تعالى في خلق آدم من تراب يعني أنّ الإنسان كان في بداية تطوّره – حسب زعمهم – كطبع التراب ، لا يُقَوْلَب ولا يتكيّف بسهولة ولا يُذعن .. وبيان خلق الله تعالى في خلق آدم عليه السلام من طين

، يؤوّلونه على أنّه في مرحلة التطوّر اللاحقة ، أعطاه الله تعالى ماء الحياة ، فأصبح بطبعه كالطين يتكيّف ويذعن بسهولة في حياته الاجتماعيّة .. وفي بيان الله تعالى في الخلق من الصلصال كالفخّار يقولون : وبعد ذلك جعله الله تعالى ناطقاً متكلّماً ، يُجيب على ما يَرِدُ عليه ، كما هو الصلصال كالفخّار يُجاوب حينما يُنقَر عليه .. أي يؤوّلون مراحل خلق آدم في القرآن الكريم ، فيجعلونها عباراتٍ تُجاري فرضيّة التطوّر لداروِن ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. هذه التأويلات تُناقض تماماً دلالات النصوص القرآنيّة .. فالله تعالى يقول ..

﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ – ٣١]

﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [ص : ٧١ – ٧٤]

إنّنا نرى أنّ هاتين الصورتين القرآنيّتين تصوّران مشهداً واحداً ، هو خطاب الله تعالى للملائكة بأنّه سوف يخلق آدم (الجسد) ، وأنّ الصورة الأولى تُلقي الضوءَ على مرحلة الصلصال من حمأٍ مسنون ، وأنّ الصورة الثانية تُلقي الضوءَ على مرحلة الطين .. ورأينا سابقاً أنّ الصورة التالية **﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾** [آل عمران : ٥٩] ، تُلقي الضوءَ على مرحلة التراب .. إنّها مراحل خلق جسد آدم عليه السلام ، خلقاً ماديّاً من عناصر ماديّة ..

وبناءً على تأويلاتهم ، فإنّ احتجاج إبليس في رفضه للسجود لآدم عليه السلام ، هو في المرحلة الأخيرة من التطوّر البشري ، أي بعد نطق آدم عليه السلام ، أي – على الأقل – في مرحلة الصلصال كالفخّار .. فالله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم العاقل

الناطق الذي نفخ فيه من روحه .. وهنا نسألهم السؤال التالي : كيــف تؤوّلــون ورود الخلق من طين في الصورة القرآنيّة الثانية التي تصوّر المشهد نفسه ؟!!! ..

.. وكيف تبرّرون – من منظار تأويلاتكم – قول إبليس عن آدم السويّ الناطق الذي نُفخ فيه من روح الله تعالى ﴿ **خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ** ﴾ [الأعراف : ١٢] ، في الوقت الذي تقولون فيه ، إنّ الخلق من طينٍ يعني مرحلة من مراحل تطوّر البشريّة قبل النطق ؟!!! .. إنّ إبليس ذاته يحتجّ في مشهدٍ آخر ، لأنّ آدم خُلِق من صلصالٍ من حمأٍ مسنون .. ﴿ **قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ** ﴾ [الحجر : ٣٣] ..

.. وإن كان بيان الله تعالى في خلق جسد آدم من تراب ، يعني – كما يقولــون – مرحلة كان فيها الإنسان لا يُقَولَب كطبع ، ولا يتكيّف اجتماعيّاً ، ولا يُذعن .. فهــل عيسى عليه السلام – بناءً على هذه الأوهام – كان يتّصف بهذه الصفات ؟!!! ..

﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [آل عمران : ٥٩]

ويقولون .. إنّ إبليس كان اسمه الحارث ، وكان من سكّان الكهوف ، وشمله الأمر بالسجود ، لأنّ الأمر للملائكة بالسجود يستوجب الأمر لما هو دون ذلك كإبليس ..

ونردّ على ذلك فنقول : إنّ إبليس كفردٍ من الجنّ كان مكلّفاً ، وقد بيّنا كيف أنّه كان يتّصف بصفة الملائكة ، لأنّه لم يعصِ الله تعالى حتى تلك اللحظة ، ومن الأدلّة على ذلك ، الصورة القرآنيّة التالية .. ﴿ **فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ** ﴾ [الكهف : ٥٠]

.. إبليس يُستثنى من الملائكة (كصفة) في هذه الآية ، وفي كلِّ الآيات التي تصــوّر هذه المسألة .. فالعبارة القرآنيّة ﴿ **فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ** ﴾ تعني فخرج عــن الانصــياع لأمر ربّه ، وبالتالي كان قبل ذلك منصاعاً لأمر ربّه ، ولذلك وُصِف بصفة الملائكــة ..

فقولهم اسمه الحارث وإنّه من سكّان الكهوف ، لا يملكون عليه ذرّةً من دليلٍ ، ويناقض الحدَّ الأدنى من دلالات النصّ القرآني ..

.. ويقولون إنّ المذكور في الصورة القرآنيّة التالية ، ليس إبليس ..

﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة : ٣٦]

نقول .. هذا القول فاسد ، لأنّه في تلك اللحظة لم يكن يُوجَد من البشر غير آدم وزوجه ، ولأنّ صفة الشيطان تمثّلها – كما بيّنا – إبليس تمثّلاً كاملاً ، عبر معصيته لله تعالى .. وحينما يقول الله تعالى ، الشيطان بأل التعريف ، فإنّه يعني فرداً محدّداً ، أشار إليه في كتابه الكريم .. وهذا الشيطان هو ذاته إبليس الذي يدّعي أنّ الله تعالى أغواه بأمر السجود لآدم عليه السلام ، وهو ذاته الذي توعّد بالقعود لآدم وذريّته صراط الله تعالى المستقيم ، وذلك قبل أن يسكن آدم وزوجه الجنّة ..

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ.......... ﴾ [الأعراف : ١٢ – ٢٠]

إنّنا نرى أنّ كلمة الشيطان تصف الفردَ ذاته الذي يدّعي أنّ الله تعالى أغواه بأمر السجود لآدم ، وهو ذاته الذي توعّد بأن يقعد لآدم وذرّيّته صراط الله تعالى المستقيم ..

.. وفي هذا السياق نقول .. إبليس طلب من الله تعالى أن يُنظره إلى يوم القيامة ، وأنظره اللهُ تعالى ، أي أنّه سيبقى حيّاً إلى يوم القيامة .. وهنا نسأل مثيري هذه الشبهة السؤال التالي : إذا كان إبليس هو الحارث كفردٍ من البشر الموجودين مع آدم عليه السلام كما تقولون .. فكيف بنا أن نتصوّر فرداً من البشر الموجودين الآن على الأرض ، اسمه الحارث ، ما زال موجوداً منذ آدم عليه السلام ، وسيبقى موجوداً إلى يوم القيامة ؟!!! .. هذا ما دفعهم إلى القول بأنّ إبليس غير الشيطان ، وقد رأينا كيف أنّ هذا القول فاسدٌ ، ويناقض دلالات القرآن الكريم ..

.. ويؤوّلون الصورة القرآنيّة ﴿ **وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا** ﴾ [البقرة : ٣٥] التي يُخاطب الله تعالى بها آدمَ عليه السلام ، بأنّ المقصود من كلمة ﴿ **وَزَوْجُكَ** ﴾ هو من آمن معك من قومك ، وصار من صفّك ومثيلك في اتّباع منهج الله تعالى ..

نقول .. هذا خيالٌ لا علاقة له بدلالات كلمات هذه الصورة القرآنيّة .. إنّ كلمتي ﴿ **وَكُلَا** ﴾ ، ﴿ **شِئْتُمَا** ﴾ في هذه الصورة القرآنيّة ، تشيران إلى المثنّى ، أي آدم عليه السلام وفرد آخر هو زوجه ..

.. وآدم عليه السلام حينما أسكنه الله تعالى هذه الجنّة ، وقبل توبته وقبولها من الله تعالى ، لم يكن نبيّاً ولا رسولاً ، فقد بيّنا أنّه بعد أن تاب الله تعالى عليه واجتباه أصبح نبيّاً ..

.. ففي جنّة الاختبار تلك ، لم يكن هناك بشرٌ حتى يدعوهم آدم عليه السلام إلى الإيمان .. ولو كان هناك بشرٌ آخرون مع آدم عليه السلام كما يزعمون ، فهل كان هؤلاء جميعاً عقيمين لا ينجبون ؟! .. فالله تعالى يُخاطب البشريّة في كتابه الكريم بالعبارة ﴿ **يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ** ﴾ ..

.. ويؤوّلون الصورة القرآنيّة ﴿ **وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ** ﴾ بأنّ الشجرة هي شجرة الخلاف والتراع .. وهذا التأويل فاسدٌ ، لأنّه لم يكن في تلك اللحظة سوى آدم وزوجه كما بيّنا ، ولأنّ هذه الشجرة هي التي طغى بها إبليسُ آدمَ وزوجَه بأنّ الأكل منها يجعلهما ملكين ، أو من الخالدين .. ﴿ **فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ** ﴾ [الأعراف : ٢٠] .. فكيف يُمكن فهم دلالات هذه الصورة القرآنيّة مع تأويلهم ؟!!! ..

.. وبالنسبة لظهور السوءة بعد ذوق الشجرة ﴿ **فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا** ﴾ [الأعراف : ٢٢] ، ففيها بيانٌ إلهيٌّ أنّ الماهيّة الجسديّة التي كان عليها آدم وزوجه قبل الأكل من هذه الشجرة ، تختلف عنها بعد الأكل ، كما بيّنا في الفصل الثاني .. فالهبوط من تلك الجنّة هو هبوطٌ في حيثيّات البنية الجسديّة ، عمّا كانت عليه هذه البنية قبل الأكل من تلك الشجرة ..

.. ويؤوّلون الصورة القرآنيّة ﴿ **وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ** ﴾ [الأعراف : ٢٢] ، بأنّ ورق الجنّة هم الفتية والشبّان المؤمنون ، حيث بدأ آدم وزوجه يدعوهم إلى الجنّة ..

نقول .. كلامهم هذا دليلٌ على فساد تأويلهم للمسألة من أساسه .. فإذا كان المُثنّى في هذه العبارة القرآنيّة هو — كما يقولون — آدم وقومه الذين اتّبعوا منهجه (زوجه حسب تأويلهم) ، وبالتالي هو آدم وجميع المؤمنين معه في هذه الجنّة ، وبالطبع منهم الفتية والشبّان المؤمنون ، فكيف يكون الفتية والشبّان هم ورق الجنّة الذين يدعوهم آدم والمؤمنون [﴿ **وَطَفِقَا** ﴾ ، ﴿ **يَخْصِفَانِ** ﴾] في تلك الجنّة ؟!! .. لا بُدّ أن يكونوا خارج هذه الجنّة ، وبالتالي لا وجود لهم إلاّ في خيال مثيري هذه الشبهة ..

.. وفي احتجاجهم بأنّ صيغة الهبوط من الجنّة أتت بالجمع ، وبأنّ ذلك يدلُّ على وجود بشرٍ كانوا مع آدم ، وهبطوا معه .. نقول : لو كان معه أحدٌ وهبط ، فلماذا لم تكن له ذرّيّه ؟! .. فالله تعالى — كما قلنا — يُخاطب البشريّة بالعبارة ﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ ، ولم يُشر القرآن الكريم إلى أنّ هناك بشراً عاصروا آدم عليه السلام ، قد حكم الله تعالى عليهم بالعقم ..

.. لقد رأينا في الفصل الثاني أنّ ورود صيغة الهبوط بالجمع ، يدلّ على أنّ البشر الآن في خلقة جسديّة هابطة عمّا كانت ستكون عليه فيما لو لم يعصِ آدمُ وزوجُهُ اللهَ تعالى ، وبالتالي فيما لو وُلدنا في تلك الجنّة ..

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣ — ١٢٤]

لا شكّ أنّ هذه الصورة القرآنيّة تُخاطب البشريّة جمعاء ، فالعبارة القرآنيّة ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ تُشير إلى منهج الله تعالى الذي يحمله الرسل عليهم السلام .. فاتّباع الهدى والإعراض عنه ، هما طبيعة البشريّة حتى قيام الساعة ..

ولم تتوقّف تأويلاتهم وشبهاتهم على مسائل الجنّ ، بل تعدتها إلى بعض المسائل الأخرى .. ففي الصورة القرآنيّة ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٩] ، يؤوّلون كلمة ﴿ ٱلْجِبَالَ ﴾ بسكان الجبال ، فيقولون .. معنى هذه الصورة القرآنيّة هو أنّ سكان الجبال جعلهم الله تعالى يسبّحون مع داود عليه السلام ، ويستشهدون بقوله تعالى ..

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ [يونس : ٩٨]

﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ [الأنبياء : ١١]

.. فيقولون : المقصود بالقرية – هنا – هو الناس الذين في القرية ، وبالتالي فالمقصود بالجبال هو سكان الجبال من الناس ..

ونردّ على ذلك فنقول .. لقد بيّنّا في النظريّة الثالثة (الحقّ المطلق) ، أنّ كلمة القرية في القرآن الكريم تعني النشاط الاجتماعي والجانب الفكري والعقائدي للتجمّع البشري ، وأنَّ كلمة المدينة تعني جانب البنيان والحضارة الماديّة لذلك التجمّع ، وبرهنّا على ذلــك .. ونقول .. لو أراد الله تعالى بكلمة القرية أهلَ القرية لوضع كلمة أهل قبلها ، أو على الأقل لأتى سياق الكلام خلفها بصيغة المذكَّر لا المؤنّث .. فحينما يريـــد الله تعـــالى أن يذكر أهل قرية في كتابه الكريم ، يضع كلمة أهل قبل كلمة قرية ..

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ .... ﴾ [الأعراف : ٩٦]

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٧]

﴿ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٨]

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ ﴾ [العنكبوت : ٣١]

﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [العنكبوت : ٣٤]

.. وكذلك الأمر بالنسبة لكلمة الجبال .. فلو أراد الله تعالى بهذه الكلمة أهلَ الجبال وسكّانها – كما يقولون – لوضع كلمة أهل أو سكان قبلـــها .. أو لأتـــت كلمـــة يُسبّحون بدل كلمة **﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾** في هـــذه الصـــورة القرآنيّـــة **﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾** ، لأنّ سكان الجبال تُناســبهم كلمـــة يُسبّحون لا كلمة **﴿ يُسَبِّحْنَ ﴾** ..

وإذا كانوا يستغربون تسبيح الجبال مع داود عليه السلام ، عـــبر خصوصـــيّة لـــه ، وبفضلٍ من الله تعالى ، فماذا يقولون في عرض الله تعالى على هذه الجبال حمل الأمانـــة ، وذلك قبل وجود سكان هذه الجبال ، بل قبل وجود آدم (الجسد) ؟! ..

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢]

وإن كان المقصود بتسبيح الجبال هو تسبيح سكان الجبال ، فأين هي الخصوصيّة التي أعطيت لداود عليه السلام ؟!! ..حيث يبيّن الله تعالى – كما رأينا في الفصل الثاني – أنّ تسبيح الجبال وتعليم منطق الطير وتسخير الجنّ .. كلٌّ ذلك من الخصوصيّة التي اُختصّ بها داود وسليمان عليهما السلام دون غيرهما من البشر ..

ودليلهم في هذه التأويلات ، أنّ العطاءات التي أُعطيت لسليمان عليه السلام ليست معجزات ، بل هي فضلٌ من الله تعالى وإنعامٌ عليه .. نقول .. ما أُعطي سليمان عليه السلام لم يكن معجزةً لكي يُصدّق البشر نبوّته ، وإنّما كان إجابةً لدعاء سليمان ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص : ٣٥] .. ولذلك فكلُّ تأويلٍ للآيات الكريمة التي تُصوّر ما أوتي سليمان عليه السلام بحيث يستطيع البشر – دون سليمان – القيام به (مثل تأويلات مثيري هذه الشبهات) هو تأويلٌ فاسد ، لأنّ سليمان عليه السلام بيّن في طلبه لهذه العطاءات ، أنّها لا تنبغي لأحدٍ من بعده ..

وفي الآية الكريمة ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٠] ، يقولون .. إنّ كلمة الطير تعني الفرسان السريعين الذين يركبون الخيول السريعة ، ويقولون ، إنّ كلمة الهدهد تعني إنساناً عاقلاً اسمه الهدهد أو لقبه الهدهد ، وهو قائد جيش لفرقة الخيّالة السريعين (الطير حسب تأويلهم) ، ومنهم من قال إنّ كلمة الهدهد تعني رجل مخابرات من فصيل الأخصّائيّين الفنيّين في جيش سليمان عليه السلام ، ويحتجّون على تأويلهم بورود كلمة ﴿ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ بصيغة جمع المذكّر السالم ، الذي يأتي للعاقلين .. ويحتجّون أيضاً بأنّ الهدهد (كطير) لا يستطيع فكّ رسالة معلّقة بعنقه ، ولا يملك محاكمة عقليّة يهتدي بها ..

ونردّ على ذلك فنقول .. لو كان الأمر كما يقولون ، فأين هو الفضل الذي أُعطي لسليمان عليه السلام والذي لا ينبغي لأحدٍ من بعده ؟!! .. أليس الكثيرون من قوم سليمان عليه السلام وممن بعدهم – وقبلهم – يعلمون منطق الفرسان السريعين ، ومنطق هذا الضابط (الهدهد) ؟!!! ..

.. وكلمة الطير كلمة قرآنيّة .. وفي جميع ورودها في كتاب الله تعالى ، لا تخرج دلالاتها عن مفهوم الطير الذي نعلمه ..

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١]

﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة : ٢١]

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩]

.. أمّا بالنسبة لورود كلمة **﴿ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾** بصيغة جمع المذكّر السالم ، فأين المشكلة في ذلك ؟ .. أليس الهدهد – من المنظار الذي ينظر منه سليمان وعبر الاستثناء الذي أُعطي له – عاقلاً يُدرك ما يُطلب منه ، ويدرك ما يُجيب ؟ ..

ألم تُجب السماوات والأرض (وهما جماد) بصيغة جمع المذكّر السالم **﴿ طَآئِعِينَ ﴾** ، حينما أجابتا الله تعالى **﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾** [فصّلت : ١١] ، لأنّهما (من هذا المنظار) مدركتان للسؤال والجواب ؟ ..

.. وكيف يُفسّر لنا هؤلاء ورود كلمة **﴿ سَٰجِدِينَ ﴾** ، وكلمة **﴿ يَسْبَحُونَ ﴾** ، في الآيتين التاليتين ..

﴿ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤]

﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يــس : ٤٠]

.. ومن قال إنّ الهدهد عُلّق في عنقه كتابُ سليمان عليه السلام ، وله أصابع استخدمها في فكّ هذا الكتاب من عنقه !! .. النصّ القرآني يصف هذه المسألة عبر الآية التالية ﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ﴾ [النمل : ٢٨] .. ودلالات هذا النصّ ، وما يحمل في أعماقه من الجزئيّات التفصيليّة للأحداث التي يُصوّرها ، تُدرَك ضمن إطار الخصوصيّة التي أُعطيت لسليمان عليه السلام ، والتي لا تنبغي لأحدٍ من بعده ..

.. لذلك فإنّ إلباس النصّ تُصوّرات مُسبقة الصنع لا يحملها لا من قريـــب ولا مـــن بعيد ، ثمّ الانطلاق من هذه التصوّرات كمقدّمة لنتائج مسبقة الصنع أيضاً ، هـــو عـــين الخروج عن المنهج السليم في تدبّر كتاب الله تعالى ..

.. وفي الآية الكريمة التالية ..

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النمل : ١٨]

.. يقولون : إنّ جمع الحشرات هو جمع المؤنث السالم ، ويستدلّون بالصورة القرآنيّة ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨] .. ويقولون : إنّ المساكن للبشر فقط ، وبالتالي يستدلّون بالعبارة القرآنيّة ﴿ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ ﴾ على أنّ النمل بشرٌ ، وتخيّلوا المعنى بأنّ زعيم النمل أشار إلى قومه بأن يدخلوا مساكنهم مبتعدين عن سليمان وجنوده ، حتى لا يظنّ سليمان وجنوده

أنّهم بعدم دخولهم مساكنهم يريدون مقاومة جيش سليمان ، فيحطمونهم وهم لا يعلمون أنّ قبيلة بني النمل لا تريد محاربة سليمان وجنوده .. ومنهم من قال إنّ كلمة نملة تُشير إلى اسم ملكة قبيلة بني النمل ..

.. ونردّ على ذلك فنقول .. لقد بيّنا في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) ، ومن خلال معيارٍ رقميٍّ لا يعرف الكذب والخداع ، أنّ الكلمة القرآنيّة فطريّة ، وليست وضعيّة من صنع البشر ، وأنّ ارتباط الكلمة (كمشتقٍ مولودٍ من الجذر اللغوي الذي تفرّعت عنه) بدلالاتها ومعانيها النابعة من معاني جذرها اللغوي ، يماثل تماماً ارتباط المادّة بصورتها ..

.. وحينما ترد ثلاثة تفرّعات للجذر اللغوي (ن ، م ، ل) في عبارة قرآنيّة واحدة **﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ﴾** ، فهذا يعني أنّ هذه الكلمة تُشير إلى جنسٍ خاصٍّ من المخلوقات ، تصفه كاسم ذاتٍ ، ولا يمكن — أبداً — أن تُشير إلى ثلاثة معاني لا رابط بينها — من حيث الذات — كما يزعمون ..

.. إنّ كلمة النمل الأولى في العبارة **﴿ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾** نراها في محلّ مضاف إليه لكلمة **﴿ وَادِ ﴾** .. فالعبارة **﴿ وَادِ ٱلنَّمۡلِ ﴾** تعني وادياً خاصّاً بهذا الجنس من المخلوقات ، وليس مجرّد تسمية وضعيّة ، فهذا الوادي لا يسير فيه إلاّ النمل .. وكلمة **﴿ نَمۡلَةٞ ﴾** في العبارة القرآنيّة **﴿ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ ﴾** تعنى أُنثى من أفراد هذه الكائنات ، ولا يمكن أن تعني زعيم قبيلة كما يزعمون ، وورود كلمة **﴿ نَمۡلَةٞ ﴾** بصيغة النكرة لا يُسعف — أبداً — تأويلَ من ذهب إلى أنّ هذه الكلمة تعني ملكة هذه القبيلة .. وكلمة النمل في العبارة القرآنيّة **﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ﴾** تعني مجموع أفراد هذا الجنس من الكائنات الموجودة في واديها هذا ..

ولتصوّر فساد تأويلهم ، ما علينا إلاّ أن نختار اسم علمٍ ما ، ونضعَ تفرّعاته اللغويّة الموازية لتفرّعات كلمة النمل في الأماكن الثلاثة في هذه الصورة القرآنيّة ، ونحاول تصوّر معنى هذه الصورة القرآنيّة .. حينها ندرك أكثر أنّ تأويلهم لا يقبله عقلٌ ولا منطق ..

.. وفي هذه الآية الكريمة نرى أنّ إتيان سليمان وجنوده كان على واد النمل ، فلماذا وردت كلمة ﴿ عَلَىٰ ﴾ ، وما هو هذا الوادي ؟! ..

إنّ كلمة ﴿ عَلَىٰ ﴾ تستخدم لاستعلاء الشيء ، وتستخدم لبلوغ الشيء حتى آخره .. إذاً سليمان عليه السلام وجنوده أتوا فوق هذا الوادي ، إتياناً يشمله حتى آخره ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ يرتبط معناها ارتباطاً كاملاً بدلالات هاتين الكلمتين .. فكلمة وادي تعني المجرى الذي يحصر المسألة الجارية في هذا الوادي من طرفيها ، بحيث لا تخرج المسألة عن حدود هذا الوادي ، سواءٌ حملت هذه الكلمة دلالاتٍ مادّيّة كما هو في قوله تعالى ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ [الرعد : ١٧] ، أم حملت دلالاتٍ معنويّة نفسيّة كما هو في قوله تعالى ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٥]

.. إذاً العبارة القرآنيّة ﴿ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ تعني الخطّ والطريق الذي يسير وفقه النمل ولا يحيد عنه .. ومعلوم أنّ النمل بغريزته التي فطره الله تعالى عليها ، يسير وفق خطوطٍ لا يحيد عنها ..

وهكذا يكون معنى الصورة القرآنيّة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ ﴾ أنّ سليمان عليه السلام وجنوده – وهم سائرون – أتوا على طابورٍ من النمل يسير في خطٍ لا يحيد عنه ، وفق غريزته التي فطره الله تعالى عليها ، وبالتالي سيمرّ سليمان وجنوده فوق هذا الخطّ إلى آخره ..

.. وقولــه تعــالى ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، يبيّن لنا أنّ فرداً (أُنثى) مــن أفــراد هــذه الكائنات السائرة في هذا الطريق (الوادي) ، قالت مخاطبةً أفراد جنسها بخطاب العقلاء ، ادخلوا مساكنكم مبتعدين عن هذا الوادي (الطريق الذي يسلكه النمل بغريزتــه) .. أي لا تسيروا في هذا الوادي حتى لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون أنّهــم فعلوا ذلك ..

.. وما يؤكّد أنّ هذه النملة – التي خاطبت أفراد جنسها – أُنثى ، هو وصف الله تعالى لحال سليمان في التفاعل مع قولها في الآية التالية مباشرة للآية التي تصوّر قولها ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل : ١٩] .. فكلمة ﴿ قَوْلِهَا ﴾ تُشير حصراً إلى أُنثى ..

وقد بيّنا في المسألة السابقة ، كيف أنّ خطاب العقلاء مســألة واردة في كتــاب الله تعالى بالنسبة لغير البشر .. أمّا بالنسبة لقولهم إنّ جمع الحشرات هو جمع مؤنث ســالم ، مستدلّين بخطاب الله تعالى للنحل .. نقول : خاطب الله تعالى النحل بصيغة المؤنّث ليس لأنّها مجرّد حشرات ، وإنّما لأنّ عاملات النحل – كإناثٍ – هنّ اللاتي يقمــن بجميــع الأعمال ، وبالتالي خاطبهنّ الله تعالى بما يُناسبهنّ وهو صيغة المؤنّث ..

أمّا بالنسبة لقولهم بأنّ المساكن خاصّةٌ بالإنسان ، فهــو قــولٌ لا برهــان عليــه ، فالمساكن هي البيوت ، وعاملات النحل يأمرها الله تعالى أن تتّخذ بيوتاً ، وهي ليســت من جنس البشر ..

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨]

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ في الصورة القرآنيّــة ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .. الأَولى بتفسيرها هو ما يُوافق الصياغة اللغويّــة لهــذه

الصورة القرآنيّة وما يسبقها ، أي : لا يشعرون أنّهم قاموا بتحطيمكم .. وهنا نسألهم السؤال التالي : ما هو حجم أفراد هذه القبيلة التي تخيّلها مثيروا هذه الشبهة ، بحيث يمرّ سليمان عليه السلام وجنوده فوق هؤلاء الأفراد ، فيحطمونهم دون أن يشعروا أنّهم قاموا بتحطيمهم ؟!!! ..

وحال سليمان وقوله ، الذي يصوّره الله تعالى في الآية التالية مباشرةً ، يؤكّد أنّ المسألة متعلّقةٌ بالنمل (الحشرات المعروفة) ..

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩]

.. ولو كانت المسألة مسألة بشرٍ كما يزعمون ، فما هي مبرّرات تبسّم سليمان عليه السلام ضاحكاً من قول هذه النملة ؟ .. إنّ دعاء سليمان عليه السلام مقرّاً بنعمة الله تعالى عليه وعلى والديه ، دليلٌ آخر على أنّ المسألة ليست عاديّة ممّا اعتاد عليه البشر ، وأنّها من الخصوصيّة التي أُعطيت له ولوالده عليهما السلام ..

.. وفي الآية الكريمة **﴿ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾** [النمل : ٣٨] ، التي تُصوّر خطاب سليمان عليه السلام وطلبَه بتقديم عروض الإتيان بعرش ملكة سبأ .. يقولون : إنّ كلمة **﴿ يَأْتِينِي ﴾** – هنا – بمعنى يعمل ويتمّ لي ، وبالتالي يكون تأويل هذه الآية الكريمة عند بعضهم هو : من يستطيع منكم أن يعملَ ويتمَّ لي عرش استقبال ملكة سبأ ..

ويقولون أيضاً : لو أنّ سليمان عليه السلام طلب إحضار عرش ملكة سبأ ذاته ، لثبت عدم احترامه للقوانين الدولية المتعارف عليها في زمنه ، ولثبت أنّه قام بعمليّة سطو على أملاك غيره ، وبالتالي يحتجّ بعضهم بذلك على أنّ قوله **﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾** يعني أيّكم يستطيع صنع كرسيّ عرش ملكة سبأ وفق المواصفات التي جاء بها رجل

مخابراتنا (الهدهد) .. أي أنّ دلالات العبارة القرآنيّة ﴿ **أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا** ﴾ هي دلالات مجازيّة لا حقيقيّة ..

.. وفي الآية الكريمة ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** ﴾ [النمل : ٣٩] .. يقولون : إنّ العفريت من الجنّ هو رجلٌ ماهرٌ من الرجال الأشدّاء ، ومن زعماء القوم وكبارهم ..

وعن العرض الثاني الذي قُدِّم لسليمان عليه السلام ﴿ **قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ [النمل : ٤٠] ، يقولون : إنّ معنى العبارة القرآنيّة ﴿ **قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ هو : قبل أن يعودَ إليك من أرسلته إلى مملكة سبأ للتحقّق ممّا جاء به الهدهد .. ومنهم من قال : قبل أن يرتدّ إليك رجل المخابرات (الهدهد) الذي أرسلته إلى مملكة سبأ ..

.. ويقولون : إنّ معنى العبارة القرآنيّة ﴿ **الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾ هو : الذي عنده علمٌ بإمكانيّات خزينة الملك ، وهو مسؤول خزينة سليمان عليه السلام ، وبالتالي يقولون : إنّ عرض العفريت من الجنّ هو عرض تنفيذ ، وعرض الذي عنده علمٌ من الكتاب هو عرض تمويل ..

.. وقال بعضهم : إنّ المعني بالعبارة القرآنيّة ﴿ **الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾ ، هو : أحد الأخصّائيّين الفنيّين المرافقين لجيش سليمان عليه السلام ، وهو رجلٌ مختصٌّ بالنجارة ومداوم على العمل في مهنته ..

ويقولون .. إنّ معنى العبارة القرآنيّة ﴿ **نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا** ﴾ في الآية الكريمة ﴿ **قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ** ﴾ [النمل : ٤١] ، هو : اجعلوا من عرشها الذي في بلادها نكرةً أمام العرش الذي ستصنعونه لاستقبالها ..

.. ونردّ على ذلك فنقول : إنّ تصوّرهم في معنى العبارة القرآنيّة ﴿ **عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ** ﴾ بيّنا فساده في تبياننا لفساد تأويلهم لكلمة الجنّ ..

.. وفي تأويلهم للعبارة القرآنيّة ﴿ **قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ ، نقول : كيف اخترعوا مُرسلاً لسليمان إلى ملكة سبأ للتحقّق ممّا جاء به الهدهد ؟!! .. فهل في دلالات النصّ القرآني ما يؤكّد ذلك ؟ .. إنّ الهدهد هو ذاته الذي عاد إلى مملكة سبأ ، حيث بعث معه سليمانُ عليه السلام كتاباً ..

﴿ ۞ **قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ** ﴾ [النمل : ٢٧ – ٢٨]

.. أمّا بالنسبة لتأويل بعضهم على أنّ كلمة ﴿ **طَرْفُكَ** ﴾ تعني الهدهد ، نقول : لا يُوجد في صياغة هذه الكلمة والعبارة التي تنتمي إليها والآية أيضاً ، أيُّ دليلٍ لهذا المذهب من التأويل ، وورود فاء الاستئناف والتعقيب المباشر في بداية العبارة القرآنيّة التالية مباشرةً لكلمة ﴿ **طَرْفُكَ** ﴾ ، يُسقط تأويلَهم من أساسه ﴿ **فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** ﴾ ، فعرش ملكة سبأ تمّ الإتيان به بشكلٍ فوريٍّ ومباشرٍ ، و لم يحتج ذلك إلى زمنٍ يُوازي عودة الهدهد ، من بلاد سبأ ، أو عودة غيره ..

وفي قولهم إنّ جلب عرش ملكة سبأ ذاته هو عملية سطو مخالفة للقوانين المتعارف عليها .. نقول .. سليمان عليه السلام لم يطلب الإتيان بعرش ملكة سبأ من أجل امتلاكه ، وإنّما من أجل استثماره في عمليّة هدايتها وعودتها وقومها إلى العبادة الحقّ لله تعالى ، بعد أن علم أنّهم يعبدون الشمس .. وهذه المكيدة التي قام بها سليمان عليه السلام من أجل هداية ملكة سبأ وقومها ، قام بمثيلتها يوسف عليه السلام أيضاً بهدىً من الله تعالى .. ﴿ **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ**

أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ .... فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ۚ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٠ – ٧٦]

.. فالمسألة ليست مسألة سطو للحصول على أملاك الآخرين ، كما يتخيّل مثيرو هذه الشبهات ، وليست مسألة تزوير لظلم الآخرين والافتراء عليهم ..

وفي تأويلهم للعبارة القرآنيّة ﴿ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ .. من أين أتوا بالخزينة ووزيرها ؟!!! .. وكيف يكون عرض الذي عنده علم من الكتاب مكمّلاً لعرض العفريت من الجنّ ، وبين العرضين سباقٌ في زمن إتيان هذا العرش ؟!!! .. أي لكلٍّ زمنه .. فالزمن الأوّل هو : ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ ﴾ ، والزمن الثاني هو : ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ ﴾ ..

وقد بيّنا في الفصل الثاني ، كيف أنّ العرضين المُقدّمين لسليمان عليه السلام متوازنان ، وفق معيار المعجزة المطروحة في النظرية الخامسة (إحدى الكُبَر) ، حيث يُقدّم كلٌّ من العارضَين أقصى إمكانيّاته في هذا المشروع .. ورأينا أيضاً أنّ عرش ملكة سبأ أتى عبر العرض الثاني حصراً ، وذلك وفق معيارٍ رقميٍّ لا يعرف الكذب والخداع ..

وفساد تأويلهم يظهر واضحاً جليّاً في تأويلهم للعبارة القرآنيّة ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ ، فكلمة ﴿ بِعَرْشِهَا ﴾ لا يمكن أن تعني إلاّ عرشها الذي يخصّها ، والذي تملكه ، والذي ذُكر في آيةٍ سابقةٍ لهذه الآية ، حيث أخبر به الهدهدُ سليمانَ عليه السلام .. ﴿ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : ٢٣] .. فهذا العرش العظيم الذي تملكه ، هو ذاته عرشها المعني بالعبارة القرآنيّة ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا ﴾ ..

وتأويلهم للعبارة القرآنيّة ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ دليلٌ آخر على فساد ما يذهبون إليه .. فكلمة ﴿ عَرْشَهَا ﴾ ترتبط هنا – أيضاً – بالعرش العظيم ذاته ، والعبارة القرآنيّة ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا ﴾ تعني اجعلوه – هو ذاته – مُنكراً عليها ، وذلك بتغيير بعض معالمه كامتحانٍ لها .. وقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ﴾ [النمل : ٤٢] ، دليلٌ على أنّ التنكير هو بهدف امتحانها في معرفة عرشها الذي تملكه .. أمّا بالنسبة للحكمة من مسألة الإتيان بعرشها وتنكيره وامتحانها في ذلك ، فلسنا مختلفين مع أحدٍ في أنّ ذلك لهدف هدايتها ..

.. ويجنح تأويلهم للصورة القرآنيّة التالية ليخرج عن حدود التصوّر ذاته ..

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ [سبأ : ١٤]

قالوا : ﴿ دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ ﴾ تعني الناس الذين يتّبعون أهواءهم ، وقالوا كلمة ﴿ مِنسَأَتَهُۥ ﴾ تعني حاشية الملك (النبي سليمان عليه السلام) ، لأنّها بمعنى عصاه .. وبالتالي يؤوّلون هذه الآية الكريمة على الشكل التالي : إنّ الموت الحقيقي لسليمان عليه السلام ، ليس في موته ، إنّما كان حينما تبيّن لمن هم تحت سلطانه وحكمه ، أنّ مملكته ستنهار بسبب خلود ابنه (الذي خلفه) لهواه .. حين ذلك تبيّن للغرباء الذين كانوا يعملون في ملك سليمان ، أنّه قد مات ، وبالتالي تركوا مملكته عائدين إلى بلادهم ..

.. وهنا نقول : إن كان هذا التأويل من الممكن أن تحمله هذه الآية الكريمة ، فمن المؤكّد أنّه يمكنها أن تحمل أيَّ قصّةٍ من قصص الرسوم المتحرّكة .. وإن كانت الكلمة القرآنية من الممكن تحميلها أيّ معنىً تهواه الأنفس ، وإن كانت الصياغة القرآنيّة لا علاقة لها بأيِّ معيارٍ ، كما هو الحال في التأويلات التي نراها .. فعلى الدنيا السلام ،

وحين ذلك لا فارق في تدبّر القرآن الكريم – على هذه الطريقة – بين من يعلم اللغــة العربيّة ، وبين من لم يسمع بها ..



مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net

الوجود في الآخرة

لقد رأينا – من خلال الفصول السابقة – أنّ الإنسان في حياته الدنيا يتّصف بصفة الزوجيّة ، التي تجمع بين النفس المجرّدة من جهةٍ ، وبين الجسد المادّي من جهةٍ أُخرى .. وفي تفاعل هذين الزوجين تكمن خلافة الإنسان لله تعالى ، وتكمن ماهيّة حمل الأمانة التي تعهّد الإنسانُ بحملها ..

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن .. هل رحيلنا من هذا العالم المادّي المحسوس عبر الموت ، هو دخولنا في حالة العدم ، أم في حالة وجودٍ آخر ؟ .. وهل الموتة الثانية التي يذكرها القرآن الكريم تشمل كلّ إنسان أم تشمل بعض البشر ؟ .. ومتى هي ؟ .. وما هي الشفاعة وما حدودها ؟ .. وهل الجنّة والنار موجودتان الآن ، أم ستُوجدان في الآخرة ؟ ..وهل يخرج من النار بعضُ الداخلين إليها ، أم أنّهم بمجرّد دخولهم فيها سيخلدون فيها دون أن يخرجوا منها ؟ .. هذه الأسئلة – وغيرها – سنحاول إن شاء الله تعالى الإجابة عليها في هذا الفصل ..

.. في الموت تنفصل النفس المجرّدة عن الجسد انفصالاً نهائيّاً ، وتخرج الحياة من الجسد الذي يتحلّل ويعود إلى التراب .. وتعود النفس إلى عالمٍ مجرّدٍ عن عالم المادّة ، بعد أن تكون قد اُمتُحِنت في حملها للأمانة ، وفي خلافتها لله تعالى على هذه الأرض ، عبر الجسد الحيّ ..... فالموت الأوّل لا يعني الدخولَ في حالة العدم ، إنّما يعني انتقال النفس المجرّدة من عالم المادّة والمكان والزمان إلى عالم البرزخ ..

ولّما كانت النفس مجرّدةً عن عالم المادّة والمكان والزمان ، وكان عالمُ البرزخ عالَماً غيرَ مادّي ، فإنّ النفس في هذا العالم (عالم البرزخ) لا تحسّ بالزمان ولا بالمكان ..

.. وقد أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة بشكلٍ جليٍّ ..

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَـٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾ [طه : ١٠٢ – ١٠٤]

﴿ قَـٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَـٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٢ – ١١٤]

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ ﴾ [الروم : ٥٥]

.. ودخول النفس – بعد موتها – إلى عالم البرزخ يعني انقطاع صلتها بعالم الدنيا ، وانقطاع اطّلاعها على هذا العالم .. وهذا طبيعيٌّ لأنّ الجسدَ الذي كان آليّتها للإطّلاع على عالم الدنيا ، قد انفصلت عنه انفصالاً نهائيّاً ، وخرجت الحياة منه ، وبدأ رحلة عودته على التراب ..

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩ – ١٠٠]

.. ومسألة انقطاع النفس – بعد وفاتها ، وبعد موتها – عن أحداث عالم الدنيا وما يجري فيها ، مسألةٌ أكّدها القرآن الكريم مرّات عديدة ، منها عبر تصويره لعدم علم عيسى عليه السلام بما جرى على الأرض ، حينما توفّاه الله تعالى ..

﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٧]

.. وهذا البرزخ الذي يحجز النفسَ – بعد موتها – عن عالم الدنيا ، هو من مقتضيات انتهاء زمن امتحان هذه النفس في حمل الأمانة .. فالنفس في عالم البرزخ لم تعد تُدرك الجزئيّات كما كانت تُدركها في حياتها الدنيا عبر الجسد الحيّ ..

.. وفي هذا السياق لا بُدّ من التعرّض لحقيقة قرآنيّة مُغيِّبة ، وهي عدمُ سماع الموتى لأيِّ شيءٍ مِمّا في عالم الدنيا التي خرجوا منها .. وقد بيّنتُ في كتاب : المعجزة الكُبرى (حوار أكثر من جريء) ، أنّ كلمةَ الموتى (في القرآن الكريم) تعني الذين خرجوا من عالم الدنيا إلى عالم البرزخ ، سواءٌ كانوا مؤمنين أم كانوا كافرين ، وبيّنتُ أنّ كلمة الأموات تعني فاقدي الروح من البشر ، سواءٌ كانوا على قيد الحياة ، أم كانوا من الموتى ..

.. فاللهُ تعالى يصفُ الذين يدعون من دونه ، وهم من أهل الدنيا و لم يُغادروها بعد .. يصفهم بالأموات ..

﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـًٔا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝٢٠ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٍۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النحل : ٢٠ – ٢١]

وكنّا قد بيّنا أنّ المعني بالأموات – هنا – هو البشر الذين يدعون من دون الله تعالى .. ومن البراهين على ذلك هو ورود كلمة **﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾** ، في بداية هذه الصورة القرآنيّة دون كلمة (وما) .. ومن البراهين على ذلك هو العبارة **﴿ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾** ..

.. وفي الوقت ذاته يصفُ اللهُ تعالى بعضَ الذين غادروا الدنيا (أي بعضَ الموتى) بأنّهم ليسوا أمواتاً ..

﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴾

[البقرة : ١٥٤]

﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩]

إذاً حينما يقول لنا الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ في الآيتين التاليتين :

﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ [النمل : ٨٠]

﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ [الروم : ٥٢]

فإنّه جلّ وعلا يعني عدمَ إسماع الذين غادروا الدنيا ودخلوا عالَم البرزخ ، سواء كانوا مؤمنين أم كانوا كفاراً ... وزعمهم بأنَّ كلمة الموتى تعني الكفّار المُدبرين عن منهج الله تعالى ، هو قولٌ غير سليم .. فمن جهة ، الكفّار المُدبرين عن منهج الله تعالى من الأحياء يصفهم كتاب الله تعالى – كما رأينا – بالأموات وليس بالموتى ، والعبارة القرآنيّة التي نحن بصدد تفسيرها تتعلّق بالموتى وليس بالأموات ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ .. ومن جهةٍ أُخرى ، فإنّ العبارة ﴿ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ ، هي التي تعني المدبرين عن منهج الله تعالى ، وهي – كما نرى – معطوفة – على العبارة ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ ، وعلى العبارة ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ .. وكلُّ ذلك يُفنّد زعمهم بأنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ تتعلق بالأحياء المعرضين عن منهج الله تعالى ..

.. إذاً .. النفس في حياة البرزخ لا تملك أيَّ آليّةٍ جسديّةٍ للإحساس بالألم أو باللذّة ، لأنّها خارج الجسد ، وفي عالم عالمٍ مجرّدٍ عن المادّة والمكان والزمان ، وهي بالأصل مجرّدةٌ عن المادّة والمكان والزمان .. وأيّ إحساسٍ لها سواءٌ بالألم أم باللذّة ، هو إحساسٌ نفسيٌّ ، مجرّدٌ عن أيِّ آليّةٍ جسديّةٍ مادّيّة ..

.. وحتى في الحياة الدنيا ، أثناء وجود النفس في الجسد ، فإنّ النفسَ هي التي تحسّ بالألم واللذّة ، لا الجسد .. ولكنّها – في حياتها الدنيا – تحسّ بآليّة الجسد عبر أعضائه ، فالجسد ليس أكثر من آليّة لإحساسها ..

.. إذاً .. الموتة الأولى – كما يُبيّنُ القرآنُ الكريم – هي التي نشهدها في هذه الدنيا حين خروج النفس من الجسد خروجاً نهائيّاً ، يعقبه تفسّخ الجسد وعودته إلى أصله الذي نشأ منه وهو التراب .. وهذه الموتة تمرّ منها الأنفس كلّها ، مؤمنة وكافرة دون استثناء ..

.. وبما أنّ هذه الموتة (الموتة الأولى) نشهدها أمام أعيننا ، فلم ينكرها الكافرون ، إنّما يُنكرون الموتة الثانية التي تسبق البعث في الآخرة كما سنرى ..

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ۝ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الدخان : ٣٤ – ٣٦]

ولذلك نرى أنّ أحدَ أهل الجنّة ، حينما يطّلع ويرى في سواء الجحيم قريناً لـــه في الدنيا ، يذكر مقولة قرينه الكافر المطابقة لمقولة الكـــافرين **﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴾** ، وهي عدم الاعتراف إلاّ بالموتة الأُولى وإنكار البعث والعذاب ..

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ۝ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [الصافات : ٥٠ – ٥٩]

.. فالآيتـــان الأخيرتـــان **﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾** تُصوّران تهكّم الرجل المؤمن في الجنّة على قول قرينه الكافر أثنـــاء الحيـــاة

الدنيا ، هذا القول المُطابق لقول الكافرين في سورة الدخان ﴿ **إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ** ﴾ ..

.. وهاتان الآيتان (الأخيرتان) لا يُمكن أن تُشيرا إلى قول الرجل المؤمن عن حال المؤمنين في الجنّة ، فأهل الجنّة يعلمون علماً تامّاً — بمجرّد دخولهم الجنّة — أنّهم لن يموتوا فيها ، ولن يُعذَّبوا ، ولن يخرجوا منها ، والقرآن الكريم أكّد هذه الحقيقة في الكثير من آياته .. وبالتالي فإنّ سحب هاتين الآيتين على قول الرجل المؤمن عن حال أهل الجنّة ، سيؤدّي إلى وصف أهل الجنّة بأنّهم لا يعلمون بخلودهم فيها ، وبأنّهم لا يعلمون بمفازهم من العذاب ، وهذا يُناقض صريح القرآن الكريم ..

.. والكافرون المنكرون للموتة الثانية ، سيعترفون — في جهنّم — بذنوبهم المترتّبة على هذا الإنكار ، حيث قادهم هذا الإنكار إلى إنكار البعث ، وإلى الكفر بمنهج الله تعالى ، وإلى اقتراف الذنوب التي أدّت بهم إلى جهنّم ..

﴿ **قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ** ﴾ [غافر : ١١]

.. إنّ قولهم ﴿ **أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ** ﴾ يعني نقلتنا من حالة الحياة إلى حالة الموت في نقلتين اثنتين ، لا يُوجد بينهما فاصلٌ من الزمان والمكان ، ولا يعني ذلك نقلتنا من حالة الحياة إلى حالة الموت مرّتين (حياة يتبعها موت ثمّ حياة يتبعها موت) ، فلو كان الأمر كذلك لأتت العبارة القرآنيّة على الشكل (أمتّنا مرّتين) ..

وقولهم ﴿ **وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ** ﴾ يعني نقلتنا من حالة الموت إلى حالة الحياة في نقلتين اثنتين ، لا يُوجد بينهما فاصلٌ من الزمان والمكان ، ولا يعني نقلتنا من حالة الموت إلى حالة الحياة مرّتين (موت تتبعه حياة ثمّ موت تتبعه حياة) ، فلو كان ذلك لأتت العبارة القرآنيّة على الشكل (وأحييتنا مرّتين) ..

.. فالحياة الدنيا (الحياة الأولى) والحياة الآخرة (الحياة الثانية) ، لا يُوجَد بينهما – بالنسبة للإنسان ومن منظار عالم البرزخ الذي يفصلهما عن بعضهما – أيُّ زمان ، لأنّ عالم البرزخ – كما رأينا – خارج ساحة الزمان والمكان .. وبالتالي فالحياتان – من هذا المنظار – كأنّهما متّصلتان ..

.. وقوله تعالى ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] ، يؤكّد حقيقة ما نذهب إليه ، فهو يعني وقوع الطلاق ثمّ عودة للحياة الزوجيّة ، ثمّ بعد ذلك وقوع الطلاق مرّة أُخرى .. ولو قال الله تعالى (الطلاق اثنتان) لكان ذلك يشمل تكرار عبارة الطلاق في حالة واحدة (مرّة واحدة) دون عودة إلى الحياة الزوجيّة بين عبارة الطلاق الأولى والثانية ..

.. إذاً هناك حياتان ، هما الحياة الدنيا والحياة الآخرة .. وهناك موتتان ، كما رأينا في إقرار أهل النار .. إضافة إلى أنّ قول الله تعالى ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان : ٥٦] ، يُشير إلى أنّ هناك موتة ثانية لا يموتها أهل الجنّة ..

.. والموتة الأولى معلومة ، وهي التي تخرج بها أنفسنا من أجسادنا خروجاً نهائيّاً ، حيث نترك الدنيا وندخل عالَمَ البرزخ .. ولكن .. ما هي الموتة الثانية ؟ .. ومتى تكون ؟ .. وهل يمرّ منها جميع البشر أم بعضهم ؟ ..

.. إنّ الآية الكريمة ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : ٢٨] ، لا تُبيِّن لنا الموتة الثانية (كما ذهب بعضهم) ، وذلك للأسباب التالية :

[١] – قوله تعالى ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا ﴾ لا يعني أنّه حصلت إماتة بعد حياة ، فلو كان ذلك لكان هناك ثلاث حيوات ، هي هذه الحياة (المفترضة) التي قبل الدنيا ، والحياة الدنيا ، والحياة الآخرة ، ولتناقض ذلك مع العبارة القرآنيّة ﴿ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾

التي تحصر الحياة بحياتين ، هما – كما يؤكّد القرآن الكريم في العديد من آياته – الحياة الدنيا والحياة الآخرة ..

.. فقوله تعالى ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ نرى فيه كلمة ﴿ أَمْوَاتًا ﴾ وليس كلمة (موتى) .. ولذلك فهذه العبارة القرآنيّة ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ تُبيّن لنا أنّه قبل مجيئنا إلى الدنيا وولادتنا من أرحام أمّهاتنا ، كانت أنفسُنا دون روح .. فالروح (الصلة والقربى والفطرة النقيّة الطاهرة) يُنفخُ فينا حين ولادتنا ..

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧ – ٩]

.. إذاً .. قوله تعالى ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ لا يعني أنّه حصلت إماتة بعد حياة .. إنّما يعني أنّ أنفسنا قبل ولادتنا في هذا العالَم ، لم يُنفَخ فيها الروح .. وبالتالي فالاستشهاد بهذه الاية الكريمة على أنّ الموتة الأولى هي قبل مجيئنا إلى الدنيا ليس سليماً ..

.. ولا بدّ – في هذا السياق – أن نذكر أنّه لا حياة في عالم البرزخ ، أي لا عودة للنفس إلى جسدها في هذا العالم ، وبالتالي ليس هناك آليّة ماديّة (كالتي في الحياة الدنيا) لإحساس النفس في القبر ، سواء بالعذاب أم باللذّة .. فلو كان ذلك لكانت هناك ثلاث حيوات ، ولتناقض ذلك مع صريح القرآن الكريم ..

[٢] – الموتة الأولى هي التي تعقب حياتنا الدنيا هذه ، بدليل إقرار الكفّار بها كما يؤكّد القرآن الكريم دون أن يُنكر عليهم ذلك .. بينما قوله ﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ يخصّ ما قبل الحياة الدنيا ، أي مرحلة الأنفس المجرّدة قبل هبوطها إلى الدنيا بغية امتحانها في حمل الأمانة .. فالموتة الأولى هي – حصراً – الموتة التي تنقلنا من الحياة الدنيا إلى عالم البرزخ ..

[٣] – قوله تعالى ﴿ **وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا** ﴾ يصف – كما قلنا – عالم الأنفس المجرّدة ، قبل ولادتنا في الدنيا ، وفي هذا العالم وُجِدَت جميع الأنفس ، المؤمنة والكافرة ، فلو كانت هذه المرحلة هي الموتة الأولى ، والموتة الثانية هي خروجنا من الدنيا إلى عالم البرزخ ، حيث تخرج جميع الأنفس مؤمنة وكافرة .. لو كان ذلك لذاق أهل الجنّة موتتين ، بدل موتة واحدة (الموتة الأولى) ، ولتنافى ذلك مع صريح القرآن الكريم ، الذي يؤكّد أنّ أهل الجنّة لا يذوقون إلاّ الموتة الأولى ..

[٤] – لو كانت العبارة القرآنيّة ﴿ **وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا** ﴾ تعني الموتة الأولى ، لكانت الموتة الثانية هي التي نشهدها ، ولكان بينهما فاصلٌ من الزمان والمكان هو حياتنا الدنيا ، وبالتالي لكان الموت يقع مرّتين وليس اثنتين ، وهذا يُناقض العبارة القرآنيّة ﴿ **أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ** ﴾ ..

.. إذاً الموتتان الأولى والثانية ، هما داخل العبارة القرآنيّة ﴿ **ثُمَّ يُمِيتُكُمْ** ﴾ في الصورة القرآنيّة : ﴿ **وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٨] ..

الموتة الأولى تفصل بين عالم الدنيا وعالم البرزخ ، والموتة الثانية تفصل – كما سنرى – بين عالم البرزخ وعالم الآخرة .. فبين الموتتين عالم البرزخ ، وهو عالم ما وراء المادّة والمكان والزمان ، ولذلك رأينا كيف أنّ النصّ القرآني أتى ﴿ **أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ** ﴾ ولم يأت (أمتّنا مرّتين) .. أي لا زمان ولا مكان بين الموتتين ، وذلك من منظار عالم البرزخ .. وكذلك – كما قلنا – لا زمان ولا مكان بين الحياتين الدنيا والآخرة – من المنظار ذاته – ولذلك رأينا أنّ العبارة القرآنيّة هي ﴿ **وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ** ﴾ ، ولم تأتِ (وأحييتنا مرّتين) ..

.. ولو عدنا إلى القرآن الكريم لرأينا أنّ النفخة الأولى في الصور تؤدّي إلى مسألتين متلازمتين تماماً ، هما الفزع والصعقة ..

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل : ٨٧]

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨]

.. فالفزع والصعقة ، مسألةٌ تشمل كلَّ من في السماوات والأرض ، إلاّ من شاء الله تعالى له ألاّ يفزع ولا يصعق ، كما يؤكِّد القرآن الكريم ، أي تشمل كلَّ الأنفس — التي ستصعق — من عصر آدم عليه السلام حتى قيام الساعة ، بدليل قوله تعالى ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ .. فالذين يقومون ينظرون بعد النفخة الثانية هم جميع البشر من آدم عليه السلام إلى آخر إنسان في الحياة الدنيا ، وليس فقط الأحياء أثناء قيام الساعة .. وبالتالي فالعبارة القرآنيّة ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ﴾ تشمل — فيما تشمل — البشريّة جمعاء ، من آدم عليه السلام إلى آخر إنسان في الحياة الدنيا ..

والله تعالى يتوعّد الكافرين ، بهذه الصعقة .. ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [الطور : ٤٥ — ٤٦] .. فالكافرون الذين يتوعّدهم الله تعالى بهذه الصعقة موجودون في كلِّ العصور .. وبالتالي فالصعقة ستكون للنفس المجرّدة ، وليس للإنسان الجسد ، فمعظم الكافرين الذين ستصعق أنفسهم غادروا الدنيا — عبر الموت — قبل قيام الساعة ..

.. وفي الوقت ذاته يؤكِّد لنا القرآن الكريم أنّ المؤمنين الذين سيدخلون الجنّة ، آمنون من الفزع الأكبر ، وبالتالي آمنون من الصعقة التي ستنتج عن النفخة الأُولى ..

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝١٠٣ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣ - ١٠٤]

.. إذاً المؤمنون الذين سيدخلون الجنّة لا يفزعون ولا يصعقون ، ويدخلون ضمن إطار الاستثناء ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ في الصورتين القرآنيّتين التاليتين ..

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ [النمل : ٨٧]

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر : ٦٨]

.. هذه الصعقة الناتجة عن النفخة الأُولى وما يُرافقها من فزعٍ [[سمّاه اللهُ تعالى ﴿ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾]] هي الموتة الثانية التي تنال جوهر النفس المجرّدة .. ونرى أنّها تنال فقط أنفس الذين سيدخلون النار .. وبالتالي فإنّ أهلَ النار يكونون قد ماتوا موتتين ، الموتة الأولى هي التي يشتركون فيها مع أهل الجنّة ، وهي التي تنفصل فيها النفس عن الجسد انفصالاً كاملاً لتدخل في عالم البرزخ ، والموتة الثانية التي ينفردون بها ، هي الصعقة التي تنال أنفسهم نتيجة النفخة الأولى .. ولذلك يقولون : ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾ [غافر: ١١]

.. بينما أهل الجنّة مستثنون من الصعقة وما يصحبها من فزعٍ ، وبالتالي لا يموتون الموتة الثانية التي يموتها من سيدخلون النار .. ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان : ٥٦]

.. ومفهوم الصور في القرآن الكريم من الجذر اللغوي (ص ، و ، ر) ، ومفهوم النفخ فيه ، يحملان دلالةَ تغيير النواميس من حالٍ إلى حال .. والتفسير التاريخي للصور بأنّه بوق وأداةٌ للنفخ ، ليس سليماً ..

.. وحتى لو أغمضنا أعيننا عن كون كلمة ﴿ ٱلصُّورِ ﴾ من مشتقّات الجذر اللغوي (ص ، و ، ر) ، وبالتالي تعلّقها بدلالات هذا الجذر اللغوي ، فإنّ العبارة القرآنيّة ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ التي ترد في جميع مرّات ورودها بهذه الصيغة [[حيث ترد هذه الصيغة ﴿ فِى ٱلصُّورِ ﴾ عشر مرّات ، دون الصيغة ((بِالصُّورِ))]] ، تُؤكّد أنَّ الصورَ ليس أداةً للنفخ في شيءٍ آخر ، إنّما النفخُ – المعنيّ في هذه العبارة القرآنيّة – هو في الصورِ ذاتِه .. فساحةُ النفخ هي في ذاتِ الصور ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ .. فلو كان الصورُ بوقاً يُنفَخُ فيه ، لكانت العبارة القرآنيّة على الشكل : (وَنُفِخَ بالصُّورِ) ..

.. في كتاب الله تعالى .. صورة الشيء هي هيئتُه وشكلُه وناموسُه ..

﴿ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار : ٨]

.. وتصويرُ الشيء هو إعطاؤه شكلَه وماهيّتَه وناموسَه الذي يُميّزه ..

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٦]

.. وكلمة ﴿ ٱلصُّورِ ﴾ ، لم ترد في كتاب الله تعالى إلاّ معرّفةً بأل التعريف ، لتصوّر لنا الماهيّة والناموس الذي يحكم شكل الكون وماهيّته وقوانينه .. وبالتالي فإنّ النفخ في الصور ، هو النفخُ في هذا الناموس ، وبالتالي سيؤدّي هذ النفخ إلى نهاية ناموس الدنيا وقوانينها .. من هنا ينتج الفزع ، وتنج الصعقة ، وتُبدّل الأرض والسماوات .. وفي النفخة الثانية في هذا الناموس يُعاد تشكيل العالم الآخر بناموس جديد له هيئته وماهيّته المختلفة عن ناموس عالم الدنيا ..

.. والموتة الأولى التي تؤدّي إلى دخول النفس في عالم البرزخ ، هي – في الحقيقة – الدرجة الأولى من درجات الآخرة .. فالنفس المؤمنة بمجرّد مفارقتها للدنيا تدخل مرحلة

عين اليقين ، فتعرفُ مصيرها وهو الجنّة .. والنفس الكافرة بمجرّد مفارقتها للدنيا تدخل مرحلة عين اليقين فتعرفُ مصيرها وهو النار ..

.. وأهل الجنّة يطّلعون على الجنّة منذ موتتهم الأولى ، ودخولهم مرحلة عين اليقين .. وبالتالي حينما يدخلونها في الآخرة (في مرحلة حقِّ اليقين) ، يكونون قد عرفوها سابقاً .. **﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾** [محمد : ٦]

.. وفي حال حَمْلِ بعض النصوص القرآنيّة التي تُبيّن أنّ الشهداء والصالحين يدخلون الجنّة ، على الدخول المباشر بعد الموت مباشرةً ، فإنّ الجنّة المعنيّة — وفق هذا المذهب من التفسير — هي الجنّة الروحيّة (لا الحسّيّة) كمرحلة عين يقين ، وليس كمرحلة حقّ يقين .. وكذلك الأمر بالنسبة لأهل النار ..

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس : ٢٦ — ٢٧]

﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا ﴾ [نوح : ٢٥]

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر : ٢٧ — ٣٠]

والصورة القرآنيّة التالية ، تُبيّن هذه الحقيقة ..

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ — ١٧١]

فالصورة القرآنيّة ﴿ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ ﴾ تؤكّد أنّهم لم يدخلوا الجنّة الحسّيّة بعد ، فالاستبشار هو طلب البشر والسرور .. أي أنّهم يأملون بعد دخولهم الجنّة الحسيّة – التي لم يدخلوها بعد – المزيدَ من نعمة الله تعالى وثوابه ..

والسعادة الحاصلة لهؤلاء – في مرحلة عين اليقين هذه – هي سعادة روحيّة يُرزقون فيها رضوان الله تعالى وغفرانه ، وحياةً إيمانيّة تصلهم بالله تعالى ﴿ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ .. فهي تُماثل حال الملائكة الذين عند ربّهم ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦]

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٩ – ٢٠]

﴿ فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ۩ ﴾ [فصّلت : ٣٨]

.. أمّا الدخول الحسّي لأهل الجنّة إلى الجنّة ، ولأهل النار إلى النار ، فهو دخولٌ جماعيٌّ ، حسّيٌّ ، لا يكون إلاّ بعد النفخة الثانية ، وبعد إنشاء الجنّة والنار الإنشاء الحسّيّ ، وبعد أن يقضي الله تعالى بين العباد بالحقّ ..

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ۝٧٠ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٌ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ

ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر : ٦٨ – ٧٣]

.. وكنّا قد رأينا أنّ الفزعَ الأكبر يكون حين النفخة الأولى ، حيثُ يتغيّر الناموس الذي كان يحكم عالم الدنيا حتى تلك اللحظة ..

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣ – ١٠٤]

وهناك فزعٌ آخر يكونُ بعد النفخة الثانية ، حين تُكَبُّ وجوه الكافرين في النار :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل : ٨٩ – ٩٠]

والنفوس في عالم البرزخ مجرّدة عن عالم المادّة ، وبالتالي لا تُدرك الجزئيّات ، وما تدركه هو الكليّات .. فالنفوس المؤمنة تكون – في عالم البرزخ – أشبه ما تكون بالحالة الملائكيّة ، فقد عملت في حياتها الدنيا وفق منهج الله تعالى .. والنفوس الكافرة تكون – في عالم البرزخ – أشبه ما تكون بالحالة الشيطانيّة ، مرهونةً بعملها المناقض لمنهج الله تعالى ، الذي عملته في حياتها الدنيا ..

.. وعلى الرغم من أنّ النفوس المؤمنة والكافرة تكون – في عالم البرزخ – في مرحلة عين اليقين بالنسبة للجنّة والنار .. فإنّ عدم إدراكها للجزئيّات في ذلك العالم ،

وعدم إحساسها بالزمان والمكان ، يجعلها (وهي في عالم البرزخ) غير مدركةٍ لحقيقة تفاعلها الحسّي مع الجنّة والنار ، هذا التفاعل الحسّي الذي لا يكون إلاّ بعد تزاوج هذه النفوس مع أجسادها التي ستُخلَق في الآخرة .. ولذلك بعد هذا التزاوج (بعد النفخة الثانية) ، وبعد إدراكها للجزئيّات ، إضافة لإدراكها للكليّات ، تُدرك حقيقة العالم الآخر إدراك حقّ يقين ..

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ [يس : ٥١ – ٥٢]

.. والجنّة والنار كوجودٍ حسّيٍّ مادّي كامل ، ليستا موجودتين أصلاً قبل الانقلاب الكوني الذي تُبدَّل فيه الأرض غير الأرض ، وكذلك السماوات ..

﴿ فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ ۝٤٧ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ۝٤٨ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴾ [إبراهيم : ٤٧ – ٤٩]

.. فبعد انتهاء خلافة الإنسان لله تعالى على هذه الأرض ، وبعد أن يُنفَخَ في الناموس **﴿ ٱلصُّورِ ﴾** الذي حكم الدنيا وهيأها وقوانينها ، بعد ذلك ، يبدأُ ناموس الآخرة ، ويرث الله تعالى الأرضَ ومن عليها ..

﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٩ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [مريم : ٣٩ – ٤٠]

.. وهذه الأرض .. بعد الانقلاب الكوني (حيثُ ناموسُ الآخرة وقوانينها) ، بعد ذلك ، تُقام الجنّة عليها وبعرضها وعرض السماوات ..

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣]

.. ومّما يؤكّد أنّ الجنّة ستُقام على الأرض بعد أن تُبدَّل هي والسماوات ، أنّ الله تعالى سيُورِث هذه الأرض (بعد تبديلها وإقامة الجنّة عليها وبعرض السماوات) لعباده الصالحين ..

﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ۝١٠٤ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤ – ١٠٥]

إنّنا نرى في هذا النصّ القرآني ، أنّ ميراث العباد الصالحين للأرض ، هو بعد الإعادة إلى الخلق الأوّل .. وبالتالي فهذا الميراث يكون بعد إنشاء الجنّة عليها بعرضها وعرض السماوات ..

.. وأهل الجنّة بعد دخولهم إلى الجنّة ، يحمدون الله تعالى بأن أورثهم هذه الأرض (التي أصبحت من الجنّة) ..

﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [الزمر : ٧٤]

.. فميراث أهل الجنّة للأرض التي ستُبدَّل في الآخرة ، هو ذاته ميراثهم للجنّة ..

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم : ٦٣]

.. وهكذا نرى أنّ الجنّة – وكذلك النار – غير موجودة الآن كوجودٍ حسّيٍّ ، لأنّها ستُقام على أنقاض الأرض التي نعيش عليها الآن ، بعد أن يُعاد الخلق ، وبعد أن يذهبَ ناموس الدنيا ويأتي ناموس الآخرة ..

.. ولو فرضنا جدلاً أنّ الجنّة والنار موجودتان الآن ، لفنيا بالانقلاب الكوني ، الذي سيحدث يوم القيامة .. فكلٌّ شيءٍ سيهلك .. ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] ..

ولو فرضنا جدلاً أنّهما موجودتان الآن ، وستُعادان على ذات الهيئة بعد أن يفنيا بالانقلاب الكوني ، فإنّ ذلك يُناقض قولَ الله تعالى في وصف الجنّة ..

﴿ ۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ [الرعد : ٣٥] .. فقوله تعالى ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ يعني أنّه لا يأتيها الفناء ..

.. وفي هذا السياق لا بدَّ من الوقوف عند حقيقة ، هي أنَّ كوْن الجنّة والنار ليستا موجودتين وجوداً ماديّاً حسيّاً الآن ، لا يعني عدم وجودهما في علم الله تعالى ، ولا يعني عدم وجودهما وجوداً مجرّداً عن الكينونة الماديّة .. أبداً .. كلُّ الأشياء التي تُولد ولادةً ماديّةً حسيّةً في عالمنا المخلوق المتشيِّء هي موجودة في علم الله تعالى ، وتُوجَد في هذا العالم المادِّي الحسّي بكلمة ﴿ كُن ﴾ من الله تعالى ، حيث يقول لها الله تعالى (قبل وجودها المادِّي الحسيّ المتشيِّء) ﴿ كُن ﴾ فتكون بعد ذلك في هذا العالم ..

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠]

.. وجهنّم لا تخرج على هذا الناموس ، فكونها الآن غير موجودة ماديّاً وحسيّاً ، وأنَّها ستُوجَد هي والجنّة بعد الانقلاب الكوني الذي تُبدَّل فيه الأرض غير الأرض والسماوات ، لا يعني ذلك أنَّها غير موجودة الآن في علم الله تعالى ككيان مجرّد عن الوجود الحسيِّ المتشيِّء ..

وجهنّم الآن ككيان مُجرَّد سيُوجَد ويتجسَّد ماديّاً بعد الانقلاب الكوني الذي لم يحدث بعد ، يُعرض عليها أهلُها في الحياة الدنيا ، وهم يمارسون طغيانهم وكفرهم ومعاصيهم ، وهذا ما نراه جليّاً في قوله تعالى :

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾

.. لقد وردت هذه الآية الكريمة في سياقٍ قرآنيٍّ يُصوِّر حواراً بين رجلٍ مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، وبين وقومه ..

﴿ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر : ٣٦ – ٤٧]

.. العبارة القرآنيّة في الآية السابقة مباشرة للآية الكريمة موضوع البحث **﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ۖ ﴾** ، هذه العبارة القرآنيّة ، الضمير فيها يعود إلى هذا الرجل المؤمن في القصّة المذكورة في هذا السياق القرآني ، وساحة الدلالات المحمولة بهذه العبارة القرآنيّة هي في حياته الدنيا ، بمعنى أنَّ السياق القرآني ما زال تابعاً للقصّة القرآنيّة التي تصف سيرة هذا الرجل وصراعه مع قومه ..

والعبارة التالية لها مباشرةً والمعطوفة عليها **﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾** هي أيضاً ساحتها عالم الدنيا ، بمعنى أنَّ سوء العذاب حاق بآل فرعون في حياتهم الدنيا ، فسيئات ما مكروا بهذا الرجل المؤمن وبغيره من المؤمنين ، وما يترتَّب على هذا المكر من عذاب ، أحاط سوؤه بآل فرعون ، بمعنى ثبت عليهم العذاب ولبستهم الخطيئة ، ولا مفرَّ لهم من دفع مستحقّات مكرهم الذي مكروه ..

وكلمة **﴿ وَحَاقَ ﴾** تؤكِّد أنَّ **﴿ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾** أحاط بهم ، وثبت عليهم ، ولا مجال لهم للهروب منه ، ولا يعني ذلك أبداً أنَّهم دخلوا في العذاب وذاقوا العذاب .. فسوء العذاب وليس عين العذاب هو ما أحاط بهم نتيجة مكرهم الذي مكروه ، ولا يعني ذلك أبداً أنَّهم دخلوا في ذات العذاب .. والنصُّ القرآنيُّ التالي يبيّن هذه الحقيقة :

﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٢ – ٤٣]

إذاً .. المكر السيّء لا يحيق إلاَّ بأهله ، وليس من المستغرب أن يكون ذلك في الدنيا ..... العبارة القرآنيّة **﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ ﴾** تتوسّط نصّاً يتكلّم بمجمله عن أمورٍ تحدث في الدنيا .. فالعبارة السابقة لها **﴿ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ**

ٱلسَّيِّئِۚ ﴾ ، والعبارة التالية لها ﴿ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلاًۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴾ ، كلاهما تصوِّران أموراً لا تخرج عن عالم الدنيا ..

.. وهذا هو عين ما تصوِّره العبارتان القرآنيّتان ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ في النصِّ قيد الدراسة ، فسوء العذاب الذي حاق بآل فرعون (بمعنى ثبت عليهم ولبستهم خطيئتهم ولا مجال لهم للخلاص) إنّما حاق بهم في الحياة الدنيا ، وليس في الآخرة أو في عالم البرزخ ..

.. وفي النصِّ التالي في سورة غافر ذاتها ما يؤكِّد صحّة ما نذهب إليه ..

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴾ [غافر : ٨٣ – ٨٤]

.. العبارة القرآنيّة ﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ ساحتها الدنيا وليس الآخرة ، بدليل أنَّها تتوسَّط عبارات قرآنيّة تصوِّر أُموراً لا تخرج عن عالم الدنيا ، فالعبارة السابقة لها مباشرة ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ تصوِّرُ أحداثاً حدثت في عالم الدنيا ، وكذلك العبارة القرآنيّة التالية لها مباشرة ﴿ فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥ وَكَفَرۡنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشۡرِكِينَ ﴾ ..

.. وها هي باقي النصوص القرآنيّة الحاملة لمشتقّات الجذر (ح ، ي ، ق) في كتاب الله تعالى .. حيث نرى فيها بعض النصوص صريحة في تصوير مسائل تتعلّق بالدنيا ، وبعضها في مسائل تتعلّق بالآخرة ..

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام : ١٠ – ١١]

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود : ٨ – ٩]

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [النحل : ٣٢ – ٣٤]

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٨ – ٤١]

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧ – ٤٨]

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢ – ٣٤]

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّـٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٦ – ٢٧]

.. إذاً .. حمل الآية الكريمة كاملة ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ على الدنيا هو أمرٌ لا يتعارض أبداً مع روح دلالات كتاب الله تعالى .. بل إنَّ عطف الجملة ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ على الجملة السابقة لها ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ ﴾ التي لا شكَّ أن دلالاتها لا تخرج عن الدنيا ، يؤكِّد صحَّة ما نذهب إليه من أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ لا تخرج دلالاتها عن عالم الدنيا ، ولا عن سياق هذه القصّة القرآنيّة ..

.. والعبارة القرآنيّة التالية مباشرة ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ﴾ تتعلَّق بالعبارة السابقة لها مباشرة ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ تعلَّقَ تبيان لماهيّة إحاقة سوء العذاب بآل فرعون .. فكيف يكون ذلك ؟ ..

ما نراه في هذه العبارة القرآنيّة أنَّ آل فرعون هم الذين كانوا يُعرضون على النار ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ﴾ وليست النار هي التي كانت تُعرَض عليهم ..

فالله تعالى لم يقل (النار تُعرَض عليهم غدوّاً وعشيّاً) إنّما يقول ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ..

ففي قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] ، نرى أنَّ أصحاب الأسماء هم الذين عُرضوا على الملائكة ، وليس العكس ..

وفي قوله تعالى ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴾ [ص : ٣١] ، نرى أنَّ الصافنات الجياد هي التي عُرضت على سليمان عليه السلام ، وليس العكس ..

.. إذاً .. آل فِرعون هم الذين كانوا يُعرضون على النار ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ وليست النار هي التي كانت تُعرَض عليهم ، ولو كانت النار هي التي كانت تُعرَض عليهم لأتت الصياغة مشابهة لصياغة قوله تعالى ﴿ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ [الكهف : ٩٨ – ١٠١]

.. الله تعالى يقول ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴾ ، فالكافرون هم الذين رأوا جهنّم يومئذ بعرضها لهم ... ولم يقل جلّ وعلا (وعرضنا الكافرين يومئذ لجهنّم عرضاً) ..

وفي قوله تعالى ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف : ٤٨] ، نرى أنَّ وقوفهم في الموضع الذي يُسألون فيه عن أعمالهم ويُحاسبون عليها ، وَصَفَه الله تعالى بأنَّه عرضٌ على صفة

الربوبيّة ، وكلٌّ ذلك يتعلّق بما يليق بالذات الإلهيّة ويترّهها عن أيٍّ تجسيد أو تحيّز .. فهؤلاء هم الذين عُرضوا على صفة الربوبيّة ، وليست صفة الربوبيّة هي من عُرض عليهم .. وهذا يشبه قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [هود : ١٨] .. وما نراه في هذين النصيّن هو تعلّق العرض بصفة الربوبيّة حصراً ..

.. إذاً .. قوله تعالى .. ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ﴾ يصف عرضَ آل فرعون على النار وليس عرض النار عليهم .. بمعنى أنَّ النار كانت تراهم ، لا العكس ..

وكلمة ﴿ ٱلنَّارُ ﴾ هي بدل من ﴿ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ .. والعبارة ﴿ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ﴾ تُبيِّن حال إحاقة سوء العذاب بآل فرعون ، عبر عرض آل فرعون على النار .. وكلٌّ ذلك هو في الحياة الدنيا ، حيث آل فرعون يمارسون معاصيهم التي تُوجِب عليم العذاب في الآخرة ، والذي أحاط بهم سوؤه في حياتهم الدنيا نتيجة عرضهم هم على النار ، بمعنى أنَّ النار تراهم أثناء ممارستهم لمعاصيهم ..

إذاً قوله تعالى ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ﴾ يُصوِّرُ حال الإحاقة المحمولة في العبارة السابقة مباشرة ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ ..

.. وورود كلمة ﴿ يُعْرَضُونَ ﴾ بصيغة المضارع يتعلّق باستمراريّة رؤية النار لأهلها وهم يمارسون المعاصي ، رؤية موازية لاستمرارهم في فعل هذه المعاصي ، كون المسألة تتعلّق بالنار ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ ﴾ ..

.. وفي تكملة الآيـة الكريمـة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ دليلٌ على أنَّ الدخول الحسّي في العذاب لا يبدأ قبل قيام الساعة .. وهذا أمر

طبيعي ، ففي عالم البرزخ تكون النفس منفصلةً تماماً عن الجسد ، والعذاب الحسـي لا يكون إلاَّ بوجود الزوجين النفس والجسد معاً ..

وحتى لو لم نأخذ بهذا التفسير ، واعتبرنا أنَّ آل فرعون كانت النار هي التي تُعرَض عليهم ، فإنَّ ذلك ليس دليلاً على العذاب الجسدي الحسّي في القبر ، فالعرض هو الرؤية ، ولا يعني أبداً الدخول في العذاب .. أبداً .. العرض كما نرى من مشتقّات الجذر (ع ، ر ، ض) في كتاب الله تعالى يعني مجرَّد الرؤية ..

ونحن في هذا السياق لسنا في صدد تفنيد مزاعم العذاب الحسّي الجسدي في القبر ، فالآية الكريمة وعلى أيّ وجه تُحمل فيها دلالاتها ، لا تعني أبداً الدخول في العذاب الحسيّ قبل الآخرة ..... واستشهاد بعضهم بقوله تعالى ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ** ﴾ [السجدة : ٢١] على عذاب القبر ، ناتج عن جهل كبير ، وعن إعراضٍ كاملٍ عن دلالات كتاب الله تعالى ، فالعبارة ﴿ **لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ** ﴾ جليّة في تبيان حقيقة العذاب الأدنى بأنَّه في الدنيا حصراً ..

.. إذاً .. النار ككيان مُجرَّد عن التجسّد المادِّي ، يُعرض عليها في الحياة الدنيا أهلُها وأعمالهم ، ولذلك يصف الله تعالى النارَ بعد وجودها ماديّاً حسيّاً بعد الانقلاب الكوني بقوله ﴿ **يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ** ﴾ [ق : ٣٠] ..

.. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو : ما هو السرُّ الذي ينتج عن إيمان المؤمنين فيحميهم – وهم في عالم البرزخ – من الفزع والصعقة فلا يموتون إلاّ الموتة الأولى حين خروجهم من الدنيا ؟ .. ولماذا يفتقده الكافرون فيموتون موتتين اثنتين ؟ ..

.. هذا السرّ هو الروح .. فقد رأينا في النظريّة الثانية (القدر) أنّ كلمة الـروح ومشتقّاتها في القرآن الكريم ، تعني الصلة مع الله تعالى ، والقربى منه جلّ وعـلا .. وأنّ الروح مسألةٌ ، والنفس مسألةٌ أخرى ، وسرّ الحياة في الجسد مسألة ثالثة ..

.. وفي الصورة القرآنيّة التالية أكبرُ دليلٍ على أنّ الروح هو الصلة مع الله تعـالى ، والقربى منه ..

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴾ [المجادلة : ٢٢]

.. فهؤلاء أُيِّدوا بروحٍ من الله تعالى نتيجة إخلاصهم لله تعالى وإيمانهم به .. وما يُميّزهم عن غيرهم من الذين لم يُؤيَّدوا بهذا الروح ، هو الصلة مع الله تعالى والقربى منه جلّ وعلا ، وليس سرّ الحياة في الجسد ..

.. والآية الكريمة التالية تؤكِّدُ أنّ الروح الذي تنزل به الملائكة على بعض البشر ، هو المدد الإلهي لهؤلاء البشر ، لكي يُنذِروا ويدعوا إلى الله تعالى ..

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَاْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل : ٢]

والرَّوحُ والرُّوحُ من مشتقّات جذرٍ واحدٍ هو الجذر (ر ، و ، ح) ، وبالتالي فدلالاتهما تدور ضمن إطارٍ واحدٍ من المعنى ، هو المدد والصلة والقربى من الله تعالى ..

﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧]

إنّنا نرى أنّ العبارة القرآنيّة **﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾** تُبيّن لنا أنّ الكافرين يائسون من روح الله ومفتقدون له ..

.. ولذلك فالروح الذي نفخه الله تعالى في آدم وعيسى عليهما السلام ، هو الصلة مع الله تعالى والقربى منه جلّ وعلا ، وليس مجرّد سرِّ الحياة الذي يدبّ في الجسد فيجعله حيّاً ..

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٨ – ٢٩]

إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ ﴾ تعني فإذا اكتمل خلق الجسد المادّيّ لآدم عليه السلام ، بما في ذلك دخول نفسه – المخلوقة مسبقاً كما رأينا – في ذلك الجسد .. والعبارة القرآنيّة ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ تعني وأعطيته من صلتي وقرّبته منّي ..

وعيسى عليه السلام نُفخ فيه من روح الله تعالى ، إلاّ أنّ كميّة الروح الذي نُفخ في عيسى عليه السلام ، أكبر من كميّة الروح الذي نُفخ في آدم عليه السلام ، فعيسى* عليه السلام روحٌ من الله تعالى ..

﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ ﴾ [النساء : ١٧١]

.. ولذلك نرى أنّ عيسى عليه السلام منذ اللحظة الأولى لولادته جُعِلَ نبيّاً ، ومنذ ولادته آتاه الله تعالى الكتاب ، وكنّا قد رأينا كيف أنّ جسدَه عليه السلام خُلقَ – على خلاف البشر – شأنه – في ذلك – كشأن جسد آدم عليه السلام ..

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ [مريم : ٢٩ – ٣٠]

بينما آدم عليه السلام عصى الله تعالى في جنّة الاختبار ، هو وزوجه ، وبعد أن تاب الله تعالى عليه ، اجتباه وأتته النبوّة ..

---

* **لذلك نرى أنّ القيمة العدديّة لكلمة ﴿ عِيسَىٰ ﴾ وفق الأبجديّة القرآنيّة المكتشفة لأوّل مرّة في العالَم في النظريّة الخامسة (إحدى الكُبَر) ، تساوي تماماً القيمة العدديّة لكلمة ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ ، وتساوي تماماً القيمة العدديّة لكلمة ﴿ ٱلْإِنجِيلِ ﴾ :**

﴿ عِيسَىٰ ﴾ = ٣٤ ،، ﴿ ٱلرُّوحُ ﴾ = ٣٤ ،، ﴿ ٱلْإِنجِيلِ ﴾ = ٣٤

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طـه : ١٢١ – ١٢٢]

وكلّ إنسانٍ حينما يكتمل خلقه الجسدي ، وحين دخول نفسه في جسده ، ينفخ الله تعالى فيه من روحه .. ولذلك نرى أنّ الإنسان بفطرته يعرف الله تعالى ، فكلّ مولودٍ يُولد على الفطرة ..

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧ – ٩]

.. وبعد ولادة الإنسان ، وأثناء امتحانه في هذه الدنيا ، إمّا يكسب بإيمانه مدداً من الله تعالى ، فيمدّه جلّ وعلا بهذا الروح .. وإمّا يخسر بكفره وبصدّه عن سبيل الله تعالى ، حتى ما نُفِخ فيه من هذا الروح حين ولادته ..

ومماّ يؤكّد أنّ الروح هو الصلة مع الله تعالى والقربى منه ، أنّ جبريل عليه السلام يُوصف بالروح الأمين ، أي الصلة الأمينة والقربى الأمينة بين الله تعالى والمخلوقات ..

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ – ١٩٤]

.. والقرآنُ الكريمُ روحٌ من أمر الله تعالى ..

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢]

.. وهكذا نرى أنّ الروحَ الذي يمتاز به المؤمنون عن الكافرين ، والذي يعني الصلة مع الله تعالى والقربى منه جلّ وعلا ، هو سرُّ حماية المؤمنين من الفزع والصعقة ، وبالتالي

من الموتة الثانية حينما يُنفخ في الصور النفخة الأولى .. بينما الكافرون الذين يفتقــدون هذا الروح يفزعون ويصعقون ويموتون موتتهم الثانية ..

.. وهذا الروح الذي يمتاز به المؤمنون على الكافرين ، هو نورٌ من الله تعالى .. وقد أشار الله تعالى إلى هذه الحقيقة ، عبر وصفه لكتابه الكريم بصفتي النور والروح ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَـٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء : ١٧٤]

﴿ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة : ١٥]

﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى : ٥٢]

.. ووجود الروح مع المؤمنين ، إضافة إلى أنّه سرُّ حمايتهم من الفزع والصــعقة ، وبالتالي حمايتهم من الموتة الثانية ، فإنّه سرُّ النور الذي يرون به في الآخرة .. ذلك النور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم ، والذي يفتقده الكافرون والمنافقون ، فلا يرون لأنّهم يفتقدون هذا الروح ..

﴿ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّـٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَـٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [الحديد : ١٢ – ١٤]

فالصورة القرآنيّة ﴿ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ ، تبيّن سبب عدم امتلاكهم لهذا النور ، وهو ذاته سبب عدم حصولهم على الروح ..

فنور الحقّ الذي يقتبسه المؤمنون في حياتهم الدنيا ، ويرون به ، ويعملون به ، هو ذاته يرون به يوم القيامة .. وظلمات الجهل والضلال التي يعمه بها الكافرون في حياتهم الدنيا ، تصبح من حيثيّات خلقهم في الآخرة ..

وفي حين أنّ آليّة الرؤية في الحياة الدنيا ماديّة ، وأنّ الضوءَ الذي ينقل صورَ الأشياء إلى عيوننا هو خارج ذواتنا .. فإنّ حقيقة الرؤية في الآخرة إيمانيّة ، وإنّ النورَ الذي تُرى به الأشياء ينبع من الذات المؤمنة ، بما يتناسب مع درجة إيمان هذه الذات ..

.. فمن كان في حياته الدنيا لا يرى نورَ الحقّ في منهج الله تعالى ، ولا يعمل وفق هذا المنهج ، ولا يرى ببصيرته الكليّات التي يجب أن يراها من خلال تفاعله مع الجزئيّات .. يجعله هذا العمى (المعنوي) أعمى (حقيقة) في الآخرة ، لأنّ ماهيّة خلق ذاته في الآخرة لا تحمل النورَ الذي تُرى به الأشياء ..

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٢]

﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء : ٩٧]

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طـه : ١٢٤ – ١٢٦]

.. إذاً حيثيّات إعادة خلق الإنسان في الآخرة ، بعد النفخة الثانية ، ترتبط ارتباطاً تامّاً بحقيقة عمله في الدنيا .. وهذا الارتباط بين ماهيّة الخلق في الآخرة وحقيقة العمل في

الدنيا ، لا يتوقّف على جانب النور والعمى فقط ، فتفاعل الإنسان في الحياة الآخرة مع الأسباب ، هو نتيجة موازية لحقيقة تفاعله مع هذه الأسباب في الدنيا ..

.. إنّ الموتة الثانية أثناء الصعقة الأولى والتي يذوقها من سيدخلون النار ، وما يترتّبُ عليها من انقطاع سبل إدراك النفس وغياب هذه السبل .. هذه الموتة وهذا الغياب لسبل الإدراك ، له تأثيرُهُ على النفس بعد النفخة الثانية ، حيث ينتظر هذه النفس جسدٌ جديد تتعلّقُ ماهيّته بنتيجة عمل الإنسان في حياته الدنيا ..

.. فالإنسانُ الذي كان عبداً للأسباب في الدنيا ، ناسياً المُسبِّبَ جلّ وعلا ، والذي لم يتجاوز الجزئيّات إلى إدراك حقيقة من يَقِف وراء الكليّات والجزئيّات ، يُصبح في الآخرة عبداً لهذه الأسباب .. وبعد أن كان يملك تسخيرها في الدنيا ، أصبحت تملكه ، فلا يملك — أبداً — دفعها باتّجاه ما يُريد ..

.. هذه الحقيقة بيّنها القرآن الكريم ، عبر ملك أهل النار لإرادة الخروج من النار ، دون أن يملكوا أيَّ مشيئة ..

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ﴾ [المائدة : ٣٧]

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج : ٢٢]

﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [السجدة : ٢٠]

.. ولذلك فعلاقة النفس البشريّة في الآخرة — بالنسبة لأهل النار — بالجسد الذي سيُخلَق كزوجٍ لهذه النفس ، هي علاقة أدنى من علاقة الزوجيّة بين النفس والجسد التي كانت في الحياة الدنيا .. ففي الحياة الدنيا كانت النفس داخل الجسد ، وكان الجسد آليّتها في أحاسيسها ، حيث كان يعمل (عبر حركاته الإراديّة) بأمرها .. بينما في الآخرة فإنّ أجساد أهل النار سجونٌ لنفوسهم ، دون أن تملك هذه النفوس أيَّ سلطانٍ على هذه الأجساد .. وكلّما نضجت جلودهم نتيجة عذابهم في النار اُستبدلوا جلوداً غيرها ، لتبقى هذه النفوس أسيرة العذاب والألم ..

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ٥٦]

.. ولو كان لأهل النار مشيئة ، لكان لهم سلطانٌ على الأسباب ، ولكـان هنـاك احتمالٌ لخروجهم من النار .. ولذلك لا يُوجَد نصٌّ قرآنيٌّ يبيّن لنا أنّ أهلَ النار يملكون مشيئة ..

.. أمّا علاقة النفس الإنسانيّة في الآخرة – بالنسبة لأهل الجنّة – بالجسـد الـذي سيُخلَق كزوجٍ لهذه النفس ، فهي علاقة أسمى من علاقة الزوجيّة بين النفس والجسد التي كانت في الحياة الدنيا .. ففي الحياة الدنيا كانت النفس تُحقِّق مُرادها عن طريق تفاعل جسدها مع الأسباب ، وعن طريق تسخير هذه الأسباب .. أي كان بين إرادة الـنفس ومشيئتها فاصلٌ هو الأسباب ..

.. بينما في الآخرة يتلاشى هذا الفاصل ، وتصبح الأسباب بـأمرة إرادة الـنفس الداخلة في الجنّة ، دون بذل أيّ جهد .. وبالتالي تُصبح إرادة الإنسان (الداخل في الجنّة) عبارة عن مشيئة ، فبمجرّد ما يُريد شيئاً يتحقّق له ذلـك دون بـذل أيِّ جهـدٍ في الأسباب ، لا كما كان الأمر في الحياة الدنيا ، حيث كانت الأسباب (في الحياة الـدنيا) فاصلاً بين المُراد وتحقيقه ..

.. هذه الحقيقة يبيّنها القرآن الكريم ، عبر التعبير عن تفاعل أهل الجنّة بصيغة المشيئة دون صيغة الإرادة ..

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ ﴾ [النحل : ٣١]

﴿ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ ﴾ [الفرقان : ١٦]

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [الزمر : ٣٤]

﴿ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ ﴾ [الزمر : ٧٤]

﴿ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ﴾ [الشورى : ٢٢]

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥]

.. ولو ورد لأهل الجنّة إرادة في القرآن الكريم ، لكان بينهم وبين ما يُريدون حاجزٌ هو الأسباب ، وبالتالي لاحتاجوا إلى بذل جهدٍ من أجل تخطّي هذا الحاجز ، ولتعارض ذلك مع حقيقة النعيم الذي يلقاه أهل الجنّة في الجنّة ..

.. أمّا بالنسبة لعالم الجنّ .. فثنائيّة النفس والجسد غير موجودة أصلاً ، كما هو الحال عند الإنسان ، وإدراكهم للجزئيّات غير موجودٍ — في حياتهم الدنيا — كما هو الحال عند الإنسان .. وفي الآخرة يُعاد خلق الجنّ بماهيّةٍ جديدةٍ ، ولكن دون تجاوز الماهيّة الناريّة التي خُلِق منها ..

.. ولمّا كان الجنّ في حياتهم الدنيا لا يُدركون الجزئيّات كإدراك البشر لها ، ولمّا كانوا مخلوقين من الماهيّة الناريّة ، فإنّهم في الآخرة يُعذّبون في النار بعد تحوّلها من الوقود ، ولا يُعذَّبون بتحوّل الوقود (كمادّة تنتمي إلى عالم الجزئيّات) إلى النار .. ولذلك رأينا كيف أنّ الجانّ يُستثنى — في النار — من مسألة الوقود ..

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ ﴾ [البقرة : ٢٤]

﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦]

.. بينما البشر الداخلون في النار ، يُعذّبون بتحوّل الوقود (والتي منها أجسادهم) إلى النار ، وهذا يُقابل إدراكهم وتفاعلهم مع الجزئيّات بنقيض منهج الله تعالى في حياتهم الدنيا .. ويُعذّبون بالنار ، وهذا يُقابل كفرهم بالكليّات ودفعها باتّجاه الكفر في حياتهم الدنيا ..

.. أمّا بالنسبة للجنّ الداخلين في الجنّة ، فإنّ إيمانهم بالكليّات وفق ما يُريده الله تعالى في حياتهم الدنيا ، هو مقدِّمةٌ لماهيّة إعادة خلقهم في الآخرة .. فإحساسهم بنعيم الجنّة سعادةٌ أشبه ما تكون بالحالة الملائكيّة ، ولكن داخل نعيم الجنّة .. ولذلك نرى أنّ

القرآن الكريم لم يذكر لنا بشكلٍ صريح تفاعلَ الجانِّ مع نعيم الجنّة الحسّي ، إلاّ طمث قاصرات الطرف ، وطمث الحور العين ..

﴿ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾ [الرحمن : ٥٦]

﴿ حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴾ [الرحمن : ٧٢ — ٧٤]

.. وهذا لا يعني أنّ الجانَّ الداخلين في الجنّة لا يستطيعون التجسّد ماديّاً ، للتمتّع بنعيم الجنّة المادّيِّ كالبشر ، إذا أرادوا ذلك .. فلمّا كان أهل الجنّة (جنّاً كانوا أم إنساً) يتحقّق لهم ما يُريدون ، ولّما كانت إمكانيّة التجسّد لعالم الجنّ ممكنة ، وتّمت في الحياة الدنيا (ضمن الاستثناء الذي أُعطي لسليمان عليه السلام كما رأينا) ، فبالتأكيد أنّها ممكنة في الجنّة بالنسبة للجانِّ ، حينما يُريدون ذلك للتمتّع بنعيم الجنّة الحسّي كالبشر ..

.. والفارق بين تجسّد الجنّ في ملك سليمان للعمل بين يديه ، وبين تجسّد الجنّ في الجنّة للتمتّع بنعيمها الحسّي ، هو أنّ تجسّد الجنّ في الحياة الدنيا لا يجعلهم يملكون المشيئة (كما رأينا) ، فهم كالأسباب ليسوا فاعلين عن إرادة مسبقة .. بينما تجسّد الجنّ في الجنّة للتمتّع بنعيمها الحسّي ، هو بإرادتهم ، ولتسخير النعيم للتمتّع به ، وبالتالي يملكون (في الآخرة) المشيئة ..

.. وإعادة الخلق بماهيّة جديدة في الآخرة ، مسألة ليست متوقّفةً على عالمي الإنس والجنّ .. فكلُّ ما يُعاد خلقه في الآخرة يكون بماهيّة جديدة ، ولذلك مهما حاولنا الوقوف على حقيقة ما أُخفي لأهل الجنّة من نعيم ، لا نستطيع ذلك ، لأنّه مخلوقٌ بهيئةٍ تختلف عمّا نعلم في الحياة الدنيا ..

﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧]

.. فماء الدنيا (مقارنة مع ماء الآخرة) هو ماءٌ آسنٌ ، ولبن الدنيا يتغيّر طعمه ، بينما لبن الآخرة لا يتغيّر طعمه .. وكلُّ ما هو موجودٌ في الآخرة يختلف عنه في الدنيا ..

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ ﴾ [محمد : ١٥]

ولذلك حينما يُرزَق أهل الجنّة من رزقٍ ، يحسبونه ممّا رُزِقُوا من قبل ، لأنّه متشابهٌ في الشكل .. ولكنّه مختلفٌ في الماهيّة والطعم ..

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ ﴾ [البقرة : ٢٥]

.. والاختلاف بين نواميس الدنيا ونواميس الاخرة يطال حتى مفهوم الزوجيّة ، فلقاء الزوجيّة المعروف في الحياة الدنيا ، يختلف عنه في الحياة الآخرة بين أهل الجنّة وأزواجهم ..

.. فالنفس البشريّة الموجودة في عالم البرزخ ، ستُزَوّج – بعد النفخة الثانية – بجسد يُخلَق لها في الآخرة : ﴿ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير : ٧] ، وهذا الجسد له ماهيّته المختلفة عن جسد الدنيا ، فهو مخلوق وفق معيارٍ له تعلّقه بنتيجة العمل التي خرج بها الإنسان من حياته الدنيا ..

.. كُنّا قد رأينا كيف أنَّ الأعضاء الجنسيّة – بماهيّتها الدنيويّة – ظهرت لآدم عليه السلام وزوجه نتيجة الخطيئة وبعد معصية الله تعالى في جنّة الاختبار .. فجسدُ آدم وجسد زوجه قبل تلك الخطيئة لم تظهر فيهما السوءة ، وبالتالي فالماهيّة الجنسيّة لآدم وزوجه قبل الهبوط الجسدي تختلف عمّا هي عليه الآن بالنسبة للبشر .. فالسوءةُ

الظاهرة للإنسان في حياته الدنيا ، ليست كذلك في الآخرة ، وبالتالي فلقاء الزوجيّة بين أهل الجنّة وأزواجهم ليس بالآليّة التي تحدث في الدنيا ..

.. بل إنّ التمايز بين الأنوثة والذكورة الذي نعلمه في الحياة الدنيا ، يختلفُ عنه في الآخرة .. ومفهوم الطمث الوارد في القرآن الكريم بالنسبة للحور في الآخرة ، ليس كمفهوم اللقاء الجنسي في الحياة الدنيا ..

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٥٤ — ٦٠]

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : ٧١ — ٧٤]

.. وبالتالي فأهل الجنّة الذين يُزوّجهم الله تعالى بحورٍ في الجنّة ، هم المؤمنون من ذكور الدنيا وإناثها .. فالسياق القرآنيّ المحيط بعبارة تزويج أهل الجنّة بتلك الحور ، ليس خاصّاً بالذكور من أهل الجنّة دون الإناث ..

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الدخان : ٥١ — ٥٦]

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ [الطور : ١٧ – ٢٠]

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾ [الرحمن : ٧١ – ٧٤]

﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾ [الواقعة : ١٠ – ٢٦]

.. إنّنا نرى أنّ السياق القرآني المحيط بالعبارات القرآنيّة ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ، ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴾ ، ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ ، ليس خاصّاً بالرجال دون النساء ، فمرتبة المتّقين والسّابقين في الجنّة يدخلها الرجال المتّقون والنساء ، وبالتالي فكلّ العبارات المحيطة بعبارات التزويج بالحور ، تتعلّق بأصحاب مراتب الجنّة ذكوراً كانوا أم إناثاً ..

.. وَمِمَّا يُؤكّدُ صحّةَ ما نذهبُ إليه بأنّ الحور العين ليست إناثاً – على غرار إناث الدنيا – يُزوّجُها الله تعالى لذكور الجنّة حصراً دون الإناث الداخلات في الجنّة ، كما يتوّهم الكثيرون ، ممّا يُؤكّدُ ذلك أنّ الله تعالى لم يقل : (وَزَوَّجْنَاهُمْ حوراً عِيناً) ، بصيغة مشابهة لقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ [الأحزاب : ٣٧

] ، حيث يقول الله تعالى : ﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ ، و لم يقل : (زوجناك بها) ..... فالزواج في الدنيا كلقاء بين الذكورة والأنوثة ليس زواجاً بالآخر .. وبالتالي لا يتعلّق بباء الواسطة والوسيلة ..

بينما في النصّين القرآنيّين في سورتي الدخان والطور يقول تعـالى : ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴾ ، أي يتمّ تزويج الذكور والإناث الداخلين إلى الجنّة بواسطة الحور العين ، فالحور العين – إذاً – هي واسطة زواج أهل الجنّة ذكوراً كانوا أم إناثاً ..

.. هكذا يُبيّن لنا اللهُ تعالى في كتابه الكريم .. أمّا مسألة إسقاط حيثيّات اللقـاء بـين الأزواج في الحياة الدنيا على لقاء الأزواج في الجنّة ، وأنّ الحور في الآخرة هـنّ فقـط للرجال الأتقياء الذين يدخول الجنّة دون النساء ، وأنّ لقاء هؤلاء الرجال معهنّ في الجنّة كلقاء الزوجيّة في الحياة الدنيا .. كلُّ ذلك هو تصوّر بشري محكوم بتصوّرات دنيويّة لا دليل عليها في كتاب الله تعالى ، بل تناقض دلالات كتاب الله تعالى الخاصّـة في هـذا الشأن ..

.. فكلُّ ما في الجنّة من نعيم ولذّة ولقاء بين الأزواج ، له ماهيّتُه المختلفةُ عن نعيم الدنيا وملذّاتها ، كون ناموس الآخرة مختلفاً عن ناموس الدنيا .. ونحن في الحياة الدنيا ، وضمن تصوّراتنا المحكومة بنواميسها ، لا يمكننا الوقوف على حقيقة نعيم الجنّة وملذّاتها ، وعلى حقيقة ماهيّة لقاء الزوجيّة فيها بين الأزواج ..

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧]

.. إذاً كلُّ نواميس الآخرة تختلف – من حيث الماهيّة – عمّا هي عليه في الـدنيا ، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ ، فالهدف الذي من أجله يُوجِدُ اللهُ تعالى تلك الدار الآخرة ، يختلـف عن الهدف الذي من أجله أوجد اللهُ تعالى الدار الدنيا ..

.. وفي سياق الحديث عن الوجود في الآخرة ، لا بُدّ من التعرّض لمسألة الشفاعة ، التي لها تأثيرٌ في مصير بعض المكلّفين ، والتي ينتهي تأثيرها قبل الدخول إلى الجنّة أو إلى النار ..

.. لقد تمّ تشويه مسألة الشفاعة (من قبل الكثيرين الذين يحسبون أنفسهم أوصياء على منهج الله تعالى) بتصويرها وساطة كوساطة البشر ، دون معيار حقٍّ أو عدل .. فالكثيرون من أصحاب المعاصي ومن المقصّرين في عبادتهم لله تعالى ، ومن ناشري الفساد ، يتّكلون على هذه الشفاعة بحجّة أنّهم مُسلمون ..

وهناك بعض الروايات (في كتب الصحاح) التي تناقض دلالات القرآن الكريم مناقضة صريحة ، تعطيهم حيثّيات هذا التواكل .. لذلك علينا أن ندرس مسألة الشفاعة من كتاب الله تعالى لنرى حقيقتها وحدودها ..

.. ولنبدأ بوضع ما تحمله روايات الشفاعة من معانٍ ودلالات ، في معيار القرآن الكريم ، كخطوة نحو إدراك حقيقة الشفاعة ، ونحو تتريهها عمّا أُلصق بها من افتراءٍ على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ..

[١] – إنّ الجزمَ بأنّ شفاعة الرسول ﷺ هي لأهل الكبائر من أمّته ، اعتماداً على الأحاديث التالية ، يتناقض مع الكثير من آيات القرآن الكريم ..

سنن الترمذي – حديث (٢٣٥٩) :

حَدَّثَنَا ..... عَنْ أَنَسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي .....

سنن أبي داود – حديث (٤١١٤) :

حَدَّثَنَا ..... عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي

مسند أحمد – حديث (١٢٧٤٥) :

..... عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي

سنن ابن ماجة – حديث (٤٣٠٠) :

..... عَنْ جَابِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي

[أ] – لننظر إلى الصورتين القرآنيّتين التاليتين :

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ [النساء : ٣١]

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ ﴾ [النجم : ٣١ – ٣٢]

إنّنا نرى – في هاتين الصورتين القرآنيّتين – أنّ الله تعالى يُكفِّر عنّا سيئاتنا إن اجتنبنا كبائر ما نُنهى عنه ، وأنّ الذين أحسنوا بالحسنى هم الذين يجتنبون كبائر الإثم .. وبالتالي فإنّ الوقوع في هذه الكبائر مع عدم التوبة المقبولة ، يؤدّي إلى عدم تكفير السيئات ، وإلى ساحة الذين أساؤوا بما عملوا ، الذين سيجزيهم الله تعالى على ذلك .. وهذا يتعارض تماماً مع كوْن الشفاعة لأهل الكبائر الذين ماتوا دون توبةٍ مقبولة ..

[ب] – يُبيّن لنا القرآن الكريم أنّ مرتكبي الكبائر ، إن ماتوا دون توبةٍ مقبولة ، ورجحت سيآتهم على حسناتهم ، فسيخلدون في جهنّم ، سواءٌ كانوا من الموحّدين أم من غير الموحّدين ، وسواءٌ كانوا من أمّة محمّد ﷺ أم من غيرهم ..

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥]

﴿ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [النساء : ١٤]

﴿ وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣]

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٣]

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس : ٢٧]

.. إنّ آكلي الربا هم من الموحّدين ومن غير الموحّدين ، ومن أتباع جميع الديانات .. والذين يعصون اللّه تعالى ورسولَه كثيرٌ منهم مسلمون .. وقاتلوا المؤمنين موجـــودون في جميع الأديان .. وكذلك الأمر بالنسبة لعاملي السوء ، ولكلّ الكبائر ..

.. هؤلاء جميعاً إن ماتوا دون توبةٍ مقبولةٍ ، ورجحت سيآتهم علـــى حســـناتهم ، سيخلدون في النار .. هكذا يقول الله تعالى في كتابه الكريم .. فكيف إذن تتمّ الشفاعة بالنسبة لمرتكبي هذه الكبائر ؟!!! ..

.. وإذا قال قائل .. إنّ تأويل ما نُسب إلى الرسول ﷺ **[[شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي]]** ، أنّ هؤلاء الذين سينالون الشفاعة هم من أمّة محمّد ﷺ ، الملتزمين بمنـــهج الله تعالى .. نقول : لو كان الأمرُ كذلك ، كيف يقوم هؤلاء بالكبائر التي يبـــيّن لنـــا القرآن الكريم أنّها لا تُكفَّر ؟!!! .. فالملتزم بما جاء به الرسول ﷺ من عند الله تعالى ، لا يعمل الكبائر ..

[ج] – قوله تعالى **﴿ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾** [الزمر : ١٩] ، يبيّن لنا أنّ الذين حقّت عليهم كلمة العذاب – ومنهم كما رأينا أهل الكبائر من المسلمين – موحّدين كانوا أم غير موحّدين ، لا يُنقذهم من هذا العذاب حتى الرسول ﷺ ..

[د] – قوله تعالى .. **﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾** [آل عمران : ١٩٢] ، وقوله تعالى .. **﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾** [غافر : ١٨] ، يبيّن لنا أنّ الظالمين ما لهم من أنصارٍ ، ولا شفيع يُطاع .. ومعلومٌ أنّ الظالم قد يكون من الموحّدين ، ومن أيِّ أمّةٍ ، ومن أتباع أيِّ دين ..

[هـ] – ما نُسب إلى رسول الله ﷺ ، من أنّ شفاعته لأهل الكبائر من أمّته – كما رأينا – يردّه القرآن الكريم .. فقيام بعض المسلمين بالكبائر يُوجب عليهم عقوبةً أكبر من العقوبة المترتّبة على غيرهم في حال قيام غيرهم بهذه الكبائر ذاتها .. فالذي يعصي الله تعالى عن علمٍ بحقيقة هذه المعصية وبحقيقة عقوبتها ، عقوبته أكبر ممّن يعصيه عن غير علم ..

.. ويبيّن لنا القرآن الكريم أنّ عقوبة النبيّ ﷺ – فيما لو تمّ وقوع الخطأ – هي ضعف غيره من عامّة المسلمين ، لأنّه أعلم الناس بالمنهج ..

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٤ – ٧٥]

وعقوبة نسائه – فيما لو تمّ وقوع الخطأ – هي ضعف غيرهن من نساء المسلمين ، كونهنّ أقرب النساء إلى بيت النبوّة ..

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٠]

والحواريّون الذين طلبوا أن يُنَزِّلَ الله تعالى عليهم مائدة من السماء .. عقوبتهم — فيما لو كفروا بعد رؤيتهم لهذا البرهان الإلهي — ستصبح أكبر بكثير ممّا هي عليه قبل رؤيتهم للبرهان الذي طلبوه ..

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة : ١١٥]

وهكذا نرى أنّ ارتكاب المسلمين للكبائر في حياتهم الدنيا ، يُرتّب عليهم عقوبةً — فيما لو لم يتوبوا توبةً مقبولة — أكبر من غيرهم الذي يقوم باقتراف الكبائر ذاتها ، لأنّهم أكثر علماً بالحقيقة .. وهذا يُناقض تماماً صياغة الحديث .. فإن كانت هناك شفاعة لهذه الكبائر ، فغير المسلمين أقرب إليها ، لأنّهم لا يعلمون الحقيقة كما يعلمها المسلمون ..

[و] – ما نُسب إلى النبيّ ﷺ من أنّ شفاعته لأهل الكبائر من أمّته ، يتناقض مع رواياتٍ أُخرى تؤكّد أنّه حتى فاطمة بنت محمّد ﷺ ، لا يملك لها النبيّ ﷺ شيئاً ..

صحيح البخاري – حديث (٢٥٤٨) :

حَدَّثَنَا ..... أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ قَالَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُول اللَّهِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا .....

صحيح مسلم – حديث (٣٠٤) :

حَدَّثَنَا ..... عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الصَّفَا فَقَالَ يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ يَا صَفِيَّةُ بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا سَلُونِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتُمْ

[٢] – حديث الشفاعة الكُبرى – التالي – يتنافى مع الكثير من آيات القــرآن الكريم ..

صحيح البخاري – حديث (٦٩٥٦) :

حَدَّثَنَا ..... فَقَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ لَهَا وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ أَنَا لَهَا فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ .... قَالَ ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَيَقُولُ وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

[أ] – هذا الحديث بهذه الصيغة يتناقض مع قوله تعالى ..

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ٤٨]

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٣]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

إنّنا نرى – في هذه النصوص القرآنيّة – كيف تُنفى الشفاعة التي تبدأُ مقدِّماتُها في الآخرة ، بأقوى صيغ النفي ..... فالشفاعة التي تبدأُ مقدّماتُها في الآخرة لا وجود لها ..

.. أمّا الصور القرآنيّة التي تربط الشفاعة بإذن الله تعالى ، وبرضاه ، وباتّخاذ العهد عنده ، وبشهادة الحقّ ، فهي تصوّر حقيقة الشفاعة التي تبدأ مقدّماتُها في الدنيا كما سنرى لاحقاً ، وتؤكّد أنّ الشفاعة تعود في النهاية إلى الله تعالى ..

.. وهكذا نرى في النصوص القرآنيّة الثلاثة السابقة ، أنّه لا تُوجَد نفسٌ تستطيع إسقاط العقاب عن نفسٍ أُخرى ، فلو استطاعت إسقاط العقاب عن نفسٍ أُخرى لكانت قد أجزت عنها شيئاً ، ولكانت قد نصرتها وشفعت لها ، ولكان في الآخرة وجهٌ من أوجه الشفاعة التي تبدأُ مقدّماتُها في الآخرة ، وهذا يتنافى تماماً مع صياغة هذه الآيات الكريمة ..

[ب] – دخول الجنّة يرتبط بالعمل وفق منهج الله تعالى ..

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ٤٣]

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣٢]

﴿ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٢]

﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الطور : ١٩]

﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة : ٢٤]

﴿ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [المرسلات : ٤٣]

.. فلو فرضنا – جدلاً – أنّ الموحِّدين سيخرجون من النار بالشفاعة ، على الرغم من تقصيرهم بالعمل .. فكيف سيدخلون الجنّة بلا عمل ؟ !!!!!!! ..

[ج] – قوله تعالى ..

﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [غافر : ٧]

.. يُبيّن لنا أنّ غفران الله تعالى – ووقاية عذاب الجحيم – يناله التائبون المتّبعون لسبيل الله ، وبالتالي فغير التائب وغير المتّبع لسبيل الله تعالى ، لا ينال هذا الغفران ، ولا ينال الوقاية من النار ، وبالتالي لن تنفعه الشفاعة (التي تبدأ مقدّماتُها في الآخرة) ، وإن كان من الموحّدين ..

[د] – حينما تكون الشفاعةُ مخصوصةً لنوعٍ من البشر دون الآخرين ، أو لدينٍ محدّدٍ دون غيره من الديانات السماويّة ، أو لمذهبٍ محدّدٍ .. فإنّها في النهاية ظلمٌ لهؤلاء الآخرين ، لأنّها – حين ذلك – دون معيار حقٍّ يرتبط بالإيمان والعمل .. وإن كانت وفق معيارِ إيمانٍ وعملٍ يشمل جميع البشر (وهي كذلك) ، فلا بدّ أن يكون هذا المعيار من جملة المعايير التي يُحاسب عليها البشر في الآخرة ، قبل دخولهم إلى النار أو إلى الجنّة .. وحين ذلك فإنّ مفهوم الشفاعة بالحيثيّة التي ترويها الأحاديث – كما رأينا – لا معنى لها ..

[هـ] – هذا الحديث بهذه الصياغة يتناقض ما بين بدايته ونهايته ، ففي بدايته يذهب الناس يوم القيامة إلى آدم وبعض الرسل عليهم السلام ، وهذا يكون قبل الدخول

إلى الجنّة وإلى النار : **[[إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ]]** .. وفي داخل الحديث لا يذكر الرسول ﷺ إلاّ أُمّته ، مع العلم أنّ الذين أتوا إليه ليشفع لهم هم الناس على مختلف أديانهم وليس فقط أمّتــه : **[[فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي]]** .. ويُخرِج الرسول ﷺ المشفوعَ لهم من النار ، مع العلم أنّه لم يتمّ الدخول – حتى تلك اللحظة – إلى النار : **[[فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي فَيَقُولُ انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنْ النَّارِ فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ]]** ..

[٣] – إنّ الجزم بأنّ العبارة القرآنيّة : **﴿ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾** في الصورة القرآنيّة التالية : **﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾** [الإسراء : ٧٩] ، لا تعني إلاّ الشفاعة الكُبرى للرسول ﷺ يوم القيامة ، وذلك اعتماداً على الحديث التالي .. هذا الجزم لا تُسعفه الدلالات التي تحملها الصياغة اللغويّة لهذه الصورة القرآنيّة ..

صحيح البخاري – حديث (٤٣٤٩) :

حَدَّثَنِي...... قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جُثًا كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ يَا فُلَانُ اشْفَعْ يَا فُلَانُ اشْفَعْ حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ

سنن الترمذي – حديث (٣٠٦٢) :

حَدَّثَنَا ...... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ سُئِلَ عَنْهَا قَالَ هِيَ الشَّفَاعَةُ ......

.. إنّ الشفاعة التي تصفها الروايات ، والتي لا يكون لها إلاّ الرسول ﷺ — كما رأينا في صحيح البخاري حديث (٦٩٥٦) — هي مسألة معلومة ومعروفة ووحيدة ، ولا يقدر عليها إلاّ شخصٌ واحدٌ هو النبيّ محمّد ﷺ ، وبالتالي هي ليست نكرةً ، وليست مَرْتبةً ما من مجموعة مراتب ..

.. ولو نظرنا إلى الصورة القرآنيّة التي قيل إنّها تصف هذه المسألة ، لرأينا أنّ العبارة القرآنيّة ﴿ **مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ فيها ، تأتي بصيغة نكرة موصوفة ، ولم تأت بصيغة المعرفة الموصوفة .. فالشفاعة الكُبرى — حسب ما تقول الروايات — تُناسبها الصياغة (عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ **المَقَامَ المَحمُودَ**) ..

.. ولذلك .. حتى الذين صاغوا عبارات الرواية الحاملة لهذه المسألة [الحديث : (٤٣٤٩) في صحيح البخاري] ، ونسبوها إلى ابن عمر ، لم يستطيعوا القفز فوق هذه الحقيقة اللغويّة .. فالعبارة **[[فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللَّهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ]]** في الحديث المذكور ، تؤكّد هذه الحقيقة ..

.. إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ **مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ ، تُصوِّر درجة بعثه ﷺ ، المرتبطة بمقدار سموّ درجة تهجّده : ﴿ **وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا** ﴾ ..

.. ولذلك لا يمكن الجزم بأنّ العبارة القرآنيّة ﴿ **مَقَامًا مَّحْمُودًا** ﴾ ، تعني بعثه ﷺ مقاماً محدّداً ، لا ثاني له ، هو الشفاعة الكُبرى للبشر ، كما هو وارد في الروايات ..

.. والسؤال الذي يطرح نفسه الآن .. ما هي الشفاعة ؟ ..

.. الجذر اللغوي للشفاعة هو الجذر : (ش ، ف ، ع) .. ودلالاته تدور ضمن إطار خلاف الوتر ، وبالتالي ضمن إطار الزوج .. والشفاعة — كما تُستنبط من مشتقّات الجذر (ش ، ف ، ع) في القرآن الكريم — هي المزاوجة بين المُراد وبين طلبِ تحقيقه .. أي هي : طلب الشافِع بتحقيق مُراد المشفوع له ..

.. لقد رأينا أنّ الإرادة تتحوّل إلى مشيئة (واقعٍ ملموس) بالعمل ، وبالأخذ بالأسباب ، أي بالمزاوجة بينها وبين العمل .. أمّا حينما يُفقَد العمل ، ولا يُؤخَذ بأسباب تحقيق المُراد ، فإنّ الإرادة لا تتحوّل إلى واقعٍ محسوس (مشيئة) ، وتبقى مجرّد هدف وغاية في نفس المُريد ..

.. فالشفاعة هي مزاوجة الدعاء إلى الله تعالى والطلب منه والتوسّل إليه جلّ وعلا (حيث يقوم بذلك الشافِع) ، مع مُراد المشفوع له ، لتحقيق هذا المراد ، لأنّ المشفوع له لم يُزاوِج إرادتَه هذه بالعمل وبالأخذ بالأسباب في حياته الدنيا .. إذاً الشفاعة هي لمن ملك إرادةً خيّرة صادقة للعمل في حياته الدنيا ، ولم تسعفه الظروف لتحقيق هذه الإرادة إلى عمل ..

.. ولو نظرنا إلى مشتقّات الجذر (ش ، ف ، ع) في القرآن الكريم ، من منظار المنهج السليم لتدبّر كتاب الله تعالى ﴿ **ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ** ﴾ [آل عمران : ٧] ، لرأينا أنّ الشفاعة الواردة في كتاب الله تعالى ، جميعها مقدّماتها في الدنيا ، وليس في الآخرة .. وفي الآخرة يتمّ قبول هذه الشفاعة (قبول مزاوجة دعاء الشافِع وتوسّله إلى الله تعالى مع إرادة الخير في الدنيا للمشفوع له ، من أجل رفع هذه الإرادة إلى مستوى العمل المأجور) ، أو يتمّ عدم قبولها ، وكلّ ذلك وفق معايير تتعلّق بصدق الإرادة — في الدنيا — للمشفوع له ..... لننظر إلى الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ **۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ** ﴾ [النجم : ٢٦]

.. إنّ العبارة القرآنيّة ﴿ **۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ** ﴾ تُصوِّر لنا بعض الملائكة الآن (قبل الآخرة) ، الموجودين في السماوات ..... والأَوْلى بتفسير العبارة القرآنيّة ﴿ **لَا تُغْنِى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا** ﴾ ، أنّها تعني شفاعتهم الآن (قبل الآخرة) ..

.. وحتى لو تمّ سحب هذه الشفاعة إلى الآخرة ، فإنّ العبارة القرآنيّة ﴿ **إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ** ﴾ ، ساحتها الدنيا حصراً ، لأنّها تصوّر لنا مقدّمات قبول الشفاعة ، ومقدّمات قبول الشفاعة هي حصراً في الدنيا (دار الامتحان) ، لأنّها تتعلّق بالإرادة الطاهرة للمشفوع لهم ، والتي أرادوها في الدنيا و لم يستطيعوا ترجمتها إلى عملٍ حسّيٍّ ..

.. فَسَحْبُ مقدّمات هذه الشفاعة إلى الآخـــرة ﴿ **إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ** ﴾ ، يتنافى مع الآيات الكريمة التي تنفي أيّ شفاعة تبدأ مقدّماتها في الآخرة كما رأينا ..

﴿ **وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ** ﴾ [البقرة : ٤٨]

﴿ **وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ** ﴾ [البقرة : ١٢٣]

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

.. وهكذا يكون تقدير الصورة القرآنيّة ﴿ **۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ** ﴾ ، هو : [[وكم من ملكٍ في السماوات لا ينفع دعاؤهم وتوسّلهم – سواءٌ في الدنيا أم في الآخرة – لمزاوجة هذا الدعاء والتوسّل مع إرادة البشر الخيّرة التي أرادوها في الدنيا و لم يستطيعوا مزاوجتها مع العمل ، من أجل رفع هذه الإرادة إلى مستوى العمل المأجور ، إلاّ من بعد أن يأذن الله تعالى بأن تتمّ هذه المزاوجة لمن يعلم الله تعالى صدق إرادته ، ويرضى عن هذه الإرادة

الطاهرة ، وبأنّها أهلٌ لدخول ساحة مشيئة الله تعالى ورضاه ﴿ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ ، وبالتالي لرفعها إلى مستوى المشيئة]] ..

.. والشفاعة في عالم الدنيا كمقدّمات .. نراها في الصور القرآنيّة التالية ..

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

﴿ مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَاۗ ﴾ [النساء : ٨٥]

﴿ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ﴾ [يونس : ٣]

﴿ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٨]

.. فالشفاعة التي تنفع في الآخرة ، يحتاج فيها المشفوع له إلى إرادة طاهرة لعمل الخير ، أرادها في الدنيا (دار العمل) .. هذه الحقيقة نراها في الصورة القرآنيّة التالية ..

﴿ يَوۡمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوۡلاً ﴾[طه: ١٠٩]

.. فالعبارة القرآنيّة ﴿ يَوۡمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ ساحتها الآخرة .. والعبارة القرآنيّة ﴿ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوۡلاً ﴾ ساحتها الدنيا ..

.. والنصوص القرآنيّة التالية تؤكّد هذه الحقيقة ..

﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا ﴾ [مريم : ٨٧]

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ ﴾ [سبأ : ٢٣]

﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٦]

.. فقوله تعالى ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدًا ﴾ في النصّ الأوّل ، يصوّر لنا العهد في الحياة الدنيا ، وبالتالي فمقدّمات هذه الشفاعة ساحتها الدنيا .. وكذلك قوله تعالى ﴿ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ﴾ في النصّ الثاني .. وكذلك قوله تعالى ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ في النصّ الثالث ..

.. ولّما كان الكافرون والظالمون لا يملكون إرادة خيرٍ في حياتهم الدنيا من الممكن مزاوجتها مع دعاء الشافعين ، فإنّهم لا تنفعهم الشفاعة أبداً ..

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٩٩ – ١٠٠]

﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : ١٨]

﴿ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدّثّر : ٤٢ – ٤٨]

.. إذاً من لم يملك مقدِّمات الشفاعة (الإرادة الخيّرة الصادقة) في الدنيا ، لا تُفيده أيُّ شفاعة في الآخرة ، لأنّ أحد زوجي الشفاعة غيرُ موجود .. وهكذا فالشفاعة التي تبدأ في الآخرة لا وجود لها على الإطلاق ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٤]

.. فقوله تعالى ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٌ ﴾ يعني يوم الآخرة .. وهذا اليوم لا بيعٌ يبدأ فيه : ﴿ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ ﴾ ، بينما في الحياة الدنيا كان الناس يبيعون .. ولا خلّة تبدأ فيه : ﴿ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ ، بينما في الحياة الدنيا كانت الخلّة بين الكثير من أفراد البشر .. فالخلّة تبدأ في الدنيا ، وتنتهي في الآخرة إلاّ للمتّقين ..

﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧]

.. وقوله تعالى ﴿ وَلَا شَفَٰعَةٌۗ ﴾ يُماثل تماماً ﴿ لَّا بَيۡعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ ﴾ .. فالله تعالى يقول .. لا بيعٌ ولا خلّةٌ ولا شفاعةٌ تبدأ في الآخرة ، فالبيع والخلّة والشفاعة مسائل تبدأ في الدنيا ، ويستفيد الإنسان — إيمانيّاً — من نتائجها في الآخرة ..

.. والنصّان القرآنيّان التاليان يؤكّدان هذه الحقيقة ..

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ٤٨]

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة : ١٢٣]

فالشفاعة التي لا تُقبل ولا تنفع ، هي التي تبدأ مقدّماتها في الآخرة ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا ﴾ دون امتلاك مقدّماتٍ لها في الدنيا من إرادة خيرٍ ، كما رأينا ..

.. والشفاعة جميعها تعود إلى الله تعالى ، فهي معيارٌ من معايير حساب الله تعـــالى للبشر دون استثناء ..

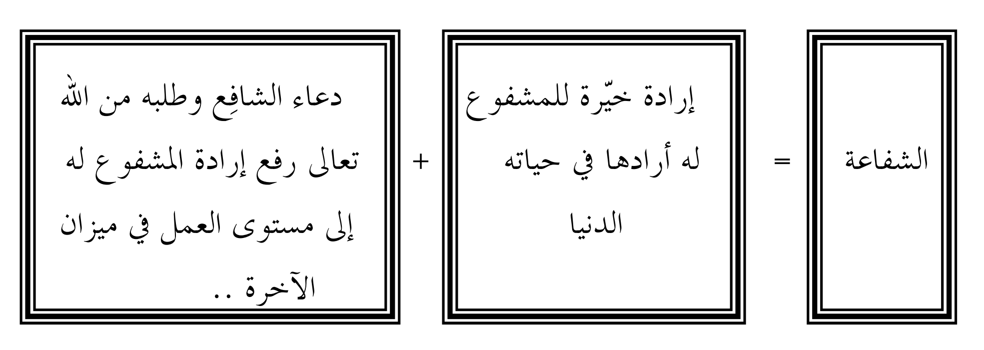
﴿ وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ٥١]

﴿ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ ﴾ [الأنعام : ٧٠]

﴿ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [السجدة : ٤]

﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ ﴾ [الزمر : ٤٤]

.. وهكذا نرى أنّ الشفاعة كما يصفها الله تعالى في كتابه الكريم – لا كما لُبِّس على الرسول ﷺ – هي مزاوجة الإرادة الخيّرة للمشفوع له (والتي أرادها في حياته الدنيا) ، مع دعاء الشافِع وطلبِه غفران الله تعالى للمشفوع له ، أي مع طلب رفع هذه الإرادة إلى مستوى المشيئة ... فصاحب هذه الإرادة عجز عن تحقيقها بالعمل وبالأخذ بالأسباب في حياته الدنيا ..



.. ومسألة الخروج من النار بعد انقضاء فترة من العذاب فيها ، بالنسبة لبعض الداخلين في النار ، هي مسألةٌ غير واردة في كتاب الله تعالى .. فبعد انتهاء الحساب وسوق أهل النار إلى النار وأهل الجنّة إلى الجنّة ، يدخل الجميع حياة خلودٍ لا تنتهي ، ولا تتبدّل بانتقالٍ من نارٍ إلى جنّة ، ولا من جنّة إلى نار ..

.. القرآن الكريم يؤكّد أنّ أهل النار – دون استثناء – لا يخرجون منها ..

﴿ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ١٦٧]

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٧]

.. ويوم القيامة ينقسم المكلّفون إلى فريقين .. فريقٌ تثقل موازينة ، وفريقٌ تخفّ موازينه .. والذين خفّت موازينهم نتيجة غلبة شقوتهم عليهم (تلك الشقوة التي أدّت

بهم في حياتهم الدنيا إلى الضلال) يطلبون الخروج من النار .. ويأتيهم الردّ من الله تعالى ، لا كما يريدون ..

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠١ – ١٠٨]

فأهل جهنّم سيخلدون(*) فيها مجرّد ما دخلوا أبوابها ، ولا يخرجون منها أبـــداً .. وكذلك الأمر بالنسبة لأهل الجنّة ..

(*) – **بيّنت في كتاب المعجزة الكُبرى (حوار أكثر من جريء) ، وحسب الأبجدية القرآنيّة المكتشفة في النظرية الخامسة : (إحدى الكُبَر) ، بيّنت كيف أنّ القيم العدديّة للعبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٤٨] التي تُصوّر عدم خروج أهل الجنّة من الجنّة ، تساوي القيمة العدديّة للعبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ [الانفطار : ١٦] ، والتي تُصوّرُ عدم غياب أهل النار عن النار ..**

﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ = ١٠٥

﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴾ = ١٠٥

.. وفي هذا بيانٌ رقمي (إضافة للبيان اللغوي) على توازن عدم خروج أهل الجنّة من الجنّة ، مع عدم خروج أهل النار من النار ..

﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل : ٢٩]

﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [غافر : ٧٦]

.. وفي سورة الزمر ينقسم الناس يوم القيامة إلى قسمين لا ثالث لهما ، قسمٌ يدخلُ جهنّم خالداً فيها ، وقسم يدخل الجنّة خالداً فيها ..

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ .... قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر : ٧١ – ٧٣]

.. وبالتالي فإنّ الصورة القرآنيّة ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ [النبأ : ٢١ – ٢٣] ، تعني أنّ أهل جهنّم تتابع علهم دورات العذاب وألوانه المختلفة ، كلّما مضى لونٌ من العذاب تبعه لونٌ آخر .. وهكذا بشكلٍ مستمرّ إلى الأبد ..

.. هذه الحقيقة نراها في الصورة القرآنيّة ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج : ٢٢] .. فأهل جهنّم حينما يقترب لونٌ من العذاب (حقب) من الانتهاء ، يتّجه قصدهم وغايتهم (إرادهم) باتّجاه الخروج من الغمِّ الذي هم فيه ، ولكنّهم يعودون فيدخلون لوناً جديداً من العذاب ، وحينما يقترب هذا اللون الجديد من العذاب من نهايته ، يتّجه قصدهم وغايتهم نحو الخروج من جهنّم ، ولكنّهم يعودون فيدخلون لوناً جديداً آخر من العذاب ، وهكذا إلى الأبد ، هذا ما تصوّره هذه الصورة القرآنيّة ، كتبيانٍ للصورة القرآنيّة ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ ..

وما نراه في الصورة القرآنيّة ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ ، أنَّ الجار والمجرور ﴿ فِيهَآ ﴾ قُدِّم على كلمة ﴿ أَحۡقَابٗا ﴾ ، وهذا ليس عبثاً ، فالعبارة ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ ﴾ تُبيِّن مسألةَ لبثهم ، والتي هي كما يؤكِّد القرآن الكريم في العديد من آياته خلودٌ لا خروج منه ، وتأتي كلمة ﴿ أَحۡقَابٗا ﴾ لتبيِّن لنا ماهيّة هذا اللبث بأنَّه – كما بيّنا – ألوان مختلفة من العذاب .. فالله تعالى لم يقل (لابثين أحقاباً فيها) إنّما يقول ﴿ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ﴾ ، بمعنى أنَّ لبثهم فيها (الذي لا يخروجون من حالته) ماهيّته أحقابٌ مختلفة من العذاب ..

.. والصورة القرآنيّة التالية تؤكّد هذه الحقيقة ..

﴿ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٖ مَّعۡدُودٖ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ﴾ [هود : ١٠٣ – ١٠٨]

.. إنّ المعني بالسماوات والأرض في العبارة القرآنيّة ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ ، هو سماوات الآخرة وأرضها ، بعد أن تُبدّلا عن سماوات الدنيا وأرضها ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] .. وهذه العبارة ﴿ مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ تعني الخلود – سواءٌ لأهل النار أم لأهل الجنّة – وهي متكاملة مع العبارة القرآنيّة التي تسبقها مباشرة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ ..

.. والمسألة التي حار بها الكثيرون ، هي إدراك دلالات العبارة القرآنيّة ﴿ **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ** ﴾ .. ولإدراك دلالاتها إدراكاً سليماً ، علينا أن نُبيّن النقاط التالية :

[١] – رأينا في تبيان القرآن الكريم أنّه لن يخرج أيٌّ من أهل النار ، من النار ، ولن يخرج أيٌّ من أهل الجنّة ، من الجنّة .. ولذلك فإنّ أيَّ تصوّرٍ لتأويل هذه العبارة ﴿ **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ** ﴾ بأنّها تعني خروج قسمٍ من أهل النار من النار ، هو تصوّرٌ غير سليم ، لأنّه يُناقض صريح القرآن الكريم ، ولأنّه سيعني بالضرورة خروج قسم من أهل الجنّة من الجنّة .. فالآية التي تتحدّث عن أهل النار تتلوها آيةٌ تتحدّث عن أهل الجنّة بصياغةٍ مشابهةٍ تماماً ، حيث ترد العبارة ﴿ **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ** ﴾ في الآيتين ..

﴿ **فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ** ﴾

﴿ **فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ** ﴾

[٢] – الأقوال والروايات التي تقول إنّ بعض الداخلين إلى النار سيخرجون منها ، ويدخلون الجنّة ، هي أقوال وروايات لا تُناقض صريح القرآن الكريم فحسب ، وإنّما ينقضها القرآن الكريم مبيّناً أنّها أقوالٌ ورواياتٌ تُماثل ما افتراه اليهود على الله تعالى ..

﴿ **وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ** ﴾ [البقرة : ٨٠ – ٨١] .. فكيف يكون افتراء اليهود على الله تعالى ، والذي يُبيّنُ القرآن الكريم فساده ، كيف يكون حقيقةً عندنا وجزءاً من عقيدتنا ؟!!!.. نترك الإجابة لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ..

والصورة القرآنيّة التالية تُؤكّدُ هذه الحقيقة لكلِّ من ينظر نظرة تدبّرٍ في دلالاتها ..

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ۝٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍۖ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٣ – ٢٤]

[٣] – إنّ الجزم بأنّ المقصود بالعبارة القرآنيّة ﴿ **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ** ﴾ هو خروج بعض أهل النار من النار ، يقتضي – لو كان سليماً ولو كان لا يُنافي صريح القرآن الكريم – ورود هذه العبارة القرآنيّة على الشكل (إلاّ مَن شاء ربّك) .. فالعاقلون – كأهل النار وأهل الجنّة – تُناسبهم كلمة (مَن) دون كلمة (ما) ، إضافة إلى أنّ هذا الجزم يقتضي خروج بعض أهل الجنّة من الجنّة .. وبالتالي لا يمكن الجزم بأنّ كلمة ﴿ **مَا** ﴾ تعني مجموعة من العاقلين الداخلين في النار ، أو في الجنّة ..

ولربّما يحلو لبعضهم أن يزعم بأنَّ كلمة ﴿ **مَا** ﴾ في هذه العبارة القرآنيّة ﴿ **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ** ﴾ هي بمعنى كلمة (مِن) ، وذلك هروباً من مواجهة حقيقة عدم خروج أيٍّ من أهل النار من النار .. نقول .. لو فرضنا جدلاً صحّةَ هذا الزعم ، فلماذا كلمة ﴿ **مَا** ﴾ في العبارة القرآنيّة المتعلّقة بالنار ﴿ **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ** ﴾ هي بمعنى (من) كما يحلو لهم ، وكلمة ﴿ **مَا** ﴾ في العبارة المتعلّقة بالجنّة ﴿ **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ** ﴾ ليست بمعنى (مِن) ؟!!! .. فهل أهل النار عقلاء وأهل الجنّة ليسوا عقلاء بمنظار المُعرضين عن دلالات كتاب الله تعالى ؟!!! .. طبعاً المسألة ليست كذلك ، فكلمة ﴿ **مَا** ﴾ في العبارتين هم بمعنا (ما) ولو كانتا بمعنى (مَن) لأتت في كتاب الله تعالى (مَن) ..

[٤] – لمّا كان ورود كلمة ﴿ **مَا** ﴾ دون كلمة (من) في العبارة القرآنيّة ﴿ **إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ** ﴾ لا يُفيد الجزم باستثناء بعض أهل النار – أو بعض أهل الجنّة –

كما رأينا .. فإنّ ذلك لا يقتضي ولا يفرض أنّ هذه العبارة القرآنيّة تعني استثناءً من زمن الخلود ، لأنّ ذلك سيؤدّي إلى أنّ الخلودَ التامَّ لا يُوجَد في النار ولا في الجنّة ، لجميع الداخلين في النار وفي الجنّة دون استثناء ، كون العبارة ذاتها ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ترد بالنسبة للنار والجنّة بذات الصياغة .. وهذا يُناقض صريح البيان القرآني في العديد من الآيات الكريمة ، والتي يُؤكّد اللهُ تعالى فيها الخلودَ بالنسبة لأهل الجنّة وأهل النار ..

[٥] – إنّ القول بأنّ العبارة القرآنيّة ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ تعني استثناء زمن وقوف أهل الموقف في الموقف ، أو زمن عمرهم في الدنيا ، أو في عالم البرزخ .. هذا القول يُناقض كون الصورة القرآنيّة السابقة لهذه العبارة القرآنيّة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ تعني المرحلة بعد دخول النار ، فالعبارة القرآنيّة ﴿ فَفِى ٱلنَّارِ ﴾ واضحة جليّة في تبيان أنّ الخلود المعني هو بعد دخول النار وليس قبل ذلك ﴿ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ .. وأيضاً العبارة ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ واضحة جليّة في تبيان أنّ هذا الخلود هو بعد دخول الجنّة وليس قبل ذلك ﴿ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ .. وكلّ ذلك (سواء لأهل الجنّة أم لأهل النار) هو بعد الموقف ، وبالتالي بعد الدنيا ، وبعد عالم البرزخ ..

[٦] – تأويل هذه الصورة القرآنيّة على أنّ الخارجين من النار بعد عذابهم لفترةٍ محدّدة ، والذين تعنيهم العبارة القرآنيّة ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ في الآية التي تتحدّث عن النار ، هم ذاتهم الذين تعنيهم العبارة ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ في الآية التي تتحدّث عن الجنّة .. أي أنّ الخارجين من النار اُستثني من خلودهم فيها زمنُ ما بعد هذا الخروج ، وهو ذاته زمن لبثهم في الجنّة التي دخلوها بعد خروجهم من النار ، وهؤلاء ذاتهم — بعد دخولهم الجنّة — اُستثني من خلودهم في الجنّة زمن وجودهم في النار ، قبل مجيئهم

إلى الجنّة ... هذا التأويل غير سليم ، لأنّ ابتداء الآية التي تتحدّث عن أهل النار بالعبارة ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ﴾ ، وابتداء الآية التي تتحدّث عن أهل الجنّة بالعبارة ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ﴾ ، يؤكّد لنا أنّنا أمام فريقين مختلفين ، ولسنا أمام فريقٍ واحد ..

[٧] – قوله تعالى ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ يصف لنا الشقاء والسعادة من منظار علم الله تعالى المطلق .. ومن حكم الله تعالى عليه بالشقاء فلن يكون سعيداً ، وستلازمه صفة الشقاء .. ولذلك فإنّ القول بأنّ بعض الذين شقوا سيخرجون من النار ويدخلون الجنّة ، هو – في النهاية – وصفٌ لهؤلاء بأنّهم من الذين سُعدوا ، وهذا يُنافي وصف الله تعالى لهم بالشقاء ..

[٨] – الخلود مسألةٌ تعني عدم الوصول إلى نهاية .. فهو يعني سرمديّة النهاية ، ولا يعني سرمديّة البداية ..

﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٤]

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢٩]

.. ولذلك فإنّ العبارة القرآنيّة ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ ﴾ لا يمكن أن تكون استثناءً من الخلود ، لأنّ دخول بعض المكلّفين إلى النار في البداية ثمّ خروجهم منها ودخولهم الجنّة ، يتنافى مع مفهوم الخلود الذي يعني استمراريّة الوجود للشيء – دون انقطاع – بلا نهاية .. وبالتالي فالذي دخل النار ثمّ خرج منها لا يمكن وصف وجوده فيها بالخلود ، أو اعتباره خلوداً تُستثنى منه مرحلة ما بعد الخروج .. وكذلك الأمر بالنسبة للذي تأخّر دخوله إلى الجنّة ، فلا يُمكن استثناء تأخّره من الخلود ، لأنّ هذا الاستثناء انقطاعٌ يُناقض مسألة الخلود من أساسها ..

[٩] – في الصورة القرآنيّة ﴿ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ ﴾ ، لو تمّ سحب العبارة القرآنيّة

﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ على الاستثناء الزمني للخلود ، لتنافى ذلك مع منطق الاستثناء ذاته .. فمن المعلوم أنّ المُستَثنى هو – بشكلٍ عامٍّ – الجزء الأقلّ من المُستثنى منه .. والمستثنى هنا هو الخلود بكامله ما عدا فترة اللبث المحدودة في النار (حسب تفسيرهم) ، وهذا يُكوِّن معظم المستثنى منه ، لأنّ الخلود لانهائيٌّ ، ومهما حُذف من اللانهائيّ يبقى لا نهائيّاً .. فهل يُعقل أن يكون المُستثنى لانهائيّاً ، في الوقت الذي يُفْتَرَض فيه أن يكون هو الجزء الأقلّ ، أو – على الأقلّ – الجزء المحدود ..

[١٠] – الآية الكريمة التالية ، تؤكّد حقيقة ما نذهب إليه ..

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٢٨]

.. فالعبارة القرآنيّة **﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ ﴾** تقع بين عبارتين ، تصوّر كلٌّ منهما خطاباً مباشراً .. العبارة السابقة لها **﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾** تصوّر خطاباً مباشراً في الموقف إلى الكافرين الذين يستحقّون الخلود في النار .. والعبارة التالية لها **﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾** ، تصوّر خطاباً مباشراً إلى الرسول ﷺ ولكلِّ مؤمنٍ مستمعٍ لآيات الله تعالى ..

.. وبالتالي فالعبارة القرآنيّة **﴿ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ ﴾** ، تتعلّق بالعبارة التي تسبقها تعلّق تبيانٍ لماهيّة الخلود في النار ، وتتعلّق بالعبارة التي تليها تعلّق النتيجة بمقدّمتها ، فمشيئة الله تعالى لهذا الخلود ، هي نتيجة إحاطة حكمة الله تعالى بجعل الكافرين خالدين في النار ، ونتيجة علمه جلّ وعلا بحقيقة استحقاق هؤلاء لهذا الخلود ..

[١١] – العبارة القرآنيّة **﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾** في الصورة القرآنيّة **﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ**

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ، هي تفصيلٌ وتبيانٌ للعبارة القرآنيّة التي تسبقها **﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ ﴾** ..

.. إنّ المشيئة **﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ ﴾** هي — كما رأينا — تسخير الأسباب المادّيّة (الفعل) لتحقيق المراد ، وهذا ما تنطق به العبارة القرآنيّة **﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾** .. وبالتالي فالعبارة القرآنيّة **﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ ﴾** تصوّر لنا حيثيّات دوام الخلود ، المرافق لدوام سماوات الآخرة وأرضها ، ولا تعني — أبداً — استثناء بعض الداخلين إلى النار ، ولا تعني — أبداً — استثناءً من زمن الخلود في النار .. وهذا ما رأيناه في النقاط السابقة ..

[١٢] — العبارة القرآنيّة **﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾** في نهاية الصورة القرآنيّة **﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾** ، تعني عطاءً غير منقطعٍ وغير منقوص .. وهي ترتبط بجميع عبارات الآية الكريمة التي تنتمي إليها .. فلا يستطيع أحدٌ أن يُبرهنَ بأنّها لا تتعلّق بالعبارة التي تسبقها **﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ ﴾** ..

وإذا نظرنا إلى العبارة القرآنيّة **﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾** من منظار العبارة القرآنيّة **﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ ﴾** .. فكيف يكون النقصان من الخلود والانقطاع عن جزءٍ منه (حسب تفسيرهم أنّ كلمة إلاّ استثناء) عطاءً غير منقطعٍ وغيرَ منقوصٍ ؟ !!! ..

..... وهكذا نرى أنّ العبارة القرآنيّة **﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾** ليست استثناءً ، لا من زمن الخلود ، ولا من أهل النار ، ولا من أهل الجنّة .. وإنّما تدلّ على أنّ الخلود — سواءٌ لأهل النار أم لأهل الجنّة أم لسماوات الآخرة وأرضها — لا يكون إلاّ بمشيئة الله تعالى ، وتحت قيّوميّته جلّ وعلا ..

.. إذاً تقدير الصورة القرآنيّة ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .. أنّ خلودَ أهل النار في النار ، هو خلودٌ دائمٌ ، لأنّ السماوات والأرض بعد أن تُبدّلا في الآخرة دائمتان لا تفنيان .. وهذا الدوام والخلود ما كان ليكون إلاّ بمشيئة الله تعالى ، فحيثيّات عدم الفناء ليست نابعةً من ذات الجنّة ، ولا من ذات النار ، ولا من ذات من فيهما ، إنّما هي نتيجة تسخير أسباب هذا الخلود لتحقيق مُراد الله تعالى بدوام هذا الخلود .. وكذلك الأمر في تقدير الصورة القرآنيّة ﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ..

.. وفي المقابلة بين العبارة القرآنيّة ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ وبين العبارة القرآنيّة ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ، بيانٌ إلهيٌّ يصوّر لنا الفارق بين مفهوم مشيئة الله تعالى في الدنيا ، وبينه في الآخرة ..

.. رأينا أنّ مشيئة الله تعالى في الدنيا هي تسخير الله تعالى للأسباب ، لتحقيق مُراد الله تعالى (الإرادة الكونيّة) ، ولتحقيق مُراد البشر .. وأنّ هذه الأسباب مسخّرةٌ للمؤمنين والكافرين على حدٍّ سواء ، وبالحيثيّات ذاتها .. بينما مشيئة الله تعالى في الآخرة تختلف بأن تكون مسخّرةً لإرادة الله تعالى الكونيّة بالنسبة لأهل النار ، دون أن ترتبط بإرادتهم أبداً ، ودون أن تفعل الأسبابُ بين أيديهم .. وقد رأينا كيف أنّ أهل النار لا يملكون سوى إرادة الخروج من النار ، ولا يملكون أيّ مشيئة ..

.. ولذلك فمشيئة الله تعالى – بالنسبة لأهل النار – تعني فعل الله تعالى وتسخيره للأسباب بحيث تُحقّق مُراد الله تعالى في عدم فناء النار ، وهذا ما تصوّره الصورة القرآنيّة ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ .. ولا تعني – أبداً – عطاءً من الله تعالى لأهل النار بأن يُسخّر الأسباب بين أيديهم ، كما كان الأمر في الحياة الدنيا ..

.. بينما مشيئة الله تعالى بالنسبة لأهل الجنّة ، إضافة إلى أنّها تعني تحقيق مُـــراد الله تعالى في عدم فناء نعيم الجنّة ، فإنّها تعني عطاءً من الله تعالى لأهل الجنّة بـــأن تُصـــبح إرادتهم مشيئة ، بحيث يزول الفاصل بين إرادتهم وما يشاؤون كما رأينا ..

.. هذه الحقيقة نراها في الارتباط بين العبارتين القرآنيّتين المتتـــاليتين في الصـــورة القرآنيّة ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ .. فمشيئة الدنيا – بالنسبة للإنسان – عطاءٌ منقوصٌ ، لأنّها تحتاج إلى العمل بالأسباب .. بينما مشيئة الآخرة بالنسبة لأهـــل الجنّة ، هي – ضمن إطار مشيئة الله تعالى – عطاءٌ غير منقوص ..

.. والقول بأنَّ جميع الداخلين إلى النار لا يخرجون منها ، لا يعني أنّهم متساوون في العذاب ، فالنار درجات ((والجنّة أيضاً درجات)) ، وكلٌّ مـــن أصـــحاب النـــار ((وكذلك أصحاب الجنّة)) يدخل الدرجة المتناسبة مع حصيلة عملـــه الـــذي عملـــه في حياته الدنيا .. ودخول النار ودخول الجنّة ، هو نتيجة حصيلة أعمال الإنسان في كامل حياته الدنيا ..

.. وحتى في الدرجة الواحدة من درجات النار ((وكذلك في الجنّة)) فإنَّ كلاً من أصحاب هذه الدرجة يحسُّ بالألم ((وباللذّة بالنسبة لأهل الجنّـــة)) حســـب الماهيّـــة الجسديّة التي خُلقَت – أصلاً – حسب معيارٍ يتعلّقُ بنتيجة أعمال الإنســـان في حياتـــه الدنيا ..

.. من هنا نرى أنّ أصحابَ النار ((وكذلك أصـــحاب الجنّـــة)) لِكـــلٍّ منـــهم خصوصيّته التي التي تميّزه عن غيره في الإحساس بعذاب النـــار ((وبلـــذّة الجنّـــة)) ، فالُمجازي هو الله تعالى ، وهو العالم علماً مطلقاً بحقيقة الأمور والأشياء ..

.. وفي هذا السياق من البحث ألقينا الضوء – بشكلٍ مركّز – علـــى العبـــارتين القـــــرآنيّتين : ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ ، ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ ، واكتفينا – هنا – بذلك ، كتفسيرٍ لُغـــويٍّ لهـــاتين العبـــارتين القرآنيّتين .. بينما مسألةُ عدم الخروج من النار هي مسألة تمّ شرحها – بشكلٍ مفصّل ،

ومن خلال معجزة إحدى الكُبَر (العدديّة) — في كتاب المعجزة الكُبرى (حوار أكثر من جريء) ..



الخاتمة

.. لقد تناولنا في هذا البحث مسائل تُعدُّ من أساسيّات بناء الفكر الإسلامي ، كفلسفة إسلاميّة مستمدّة من كتاب الله تعالى ، عبر منهجٍ معياره القرآن الكريم ..

.. وفي منهجنا التفسيري لهذه المسائل دليلٌ – لمن أراد معرفة الحقيقة – على أنّ الفكر الإسلامي الذي معياره القرآن الكريم ، هو معيار الوحدة الفكريّة لكلِّ مذاهب الأمّة ..

فقد رأينا كيف ترتبط هذه المسائل مع بعضها بعضاً ، برابطٍ روحيٍّ ، يجعل من كلِّ مسألةٍ مقدّمةً لغيرها .. وهذا ما كان ليكون لولا كون القرآن الكريم حقّاً من عند الله تعالى ، ولولا المنهج التفسيري الذي يعتمد القرآن الكريم معيار كلِّ تصوّرٍ ..

إنّ المعيار التاريخي في تفسير آيات كتاب الله تعالى التي تتناول مسائل هذا البحث ، يُماثل – من حيث القفز فوق ما يحمله كتاب الله تعالى – المعيارَ الذي اتّبعه مثيروا الشبهات حول عالم الجنّ كما رأينا في الفصل الثالث من هذا البحث .. فكلُّ المعايير التي لا تعتمد القرآن الكريم معيارها ، هي في النهاية معايير تاريخيّة وضعيّة ، تبتعد عن الحقّ بمقدار ابتعادها عن حقيقة دلالات كتاب الله تعالى ..

فإن لم يكن كتاب الله تعالى معياراً لمعرفة الحقّ من الباطل ، في تصوّراتنا التفسيريّة والفلسفيّة .. فما هو المعيار الذي من الممكن أن تُجمع عليه الأمّة ؟!!! ..

إنّنا نقول للكثيرين الذين يتصوّرون التاريخ معياراً فكريّاً ، ومنظاراً حتى لمعرفة دلالات كتاب الله تعالى .. لماذا لم تتّعظوا ممّا حصل فيه ؟ .. فكم من عالمٍ غيّر رأيه – بل فكره – في العديد من المسائل ، بعد أن أيقن أموراً لم يكن يعلمها من قبل ؟ .. وكم

من خلافٍ بين أعمدة الفكر التاريخي أدّى إلى قطع الأعناق بين أبناء الـــدين الواحـــد ، على الرغم من تحذير القرآن الكريم من قتل النفس ؟ .. وكم وكم .. ؟ ..

.. إن كنّا لا نتّعظ حتى من تاريخنا ، فكيف سنخرُج من الحلقة المفرغة التي مازلنا ندور فيها قروناً عديدة ؟ .. أليس جَعْلُ التاريخ معياراً لفكرنا جعلنا نغرق في معارك داخليّة ، تزيد — مع الزمن — من تمزّقنا ، ومن فشلنا في صنع شيءٍ يليق بعظمة المنهج الذي نستمدّه من كتاب الله تعالى ؟ ..

.. فمتى سنقرأ التاريخ قراءةً مجرّدة ، لنكتشف قوانينه الحركيّة ، وسننَ الانبعاث الحضاري العاملة فيه ، لنخرُج من سجنه كتقليدٍ أعمى للقال والقيل .. وذلك بوضع هذا التاريخ في معيار كتاب الله تعالى ..

.. إنّني أتوجّه إلى كلِّ الحريصين على وحدة هذه الأمّة عقيدةً وفكراً وهدفاً ، أن يكون القرآن الكريم معيار فكرهم ، ومعيار تصوّراتهم ، ومعيار معرفة قربهم وبعدهم عن الحقّ .. حتى نكون أمّةً تفعل ما تقول ، وحتى نخرُج جميعاً من الحلقة المفرغة ، التي رسمتها لنا العصبيّات المذهبيّة عبر التاريخ ..

.. والله تعالى وليُّ التوفيق ..

المهندس عدنان الرفاعي

تمّ بعونه تعالى في :

٦ جمادى الآخرة عام ١٤٢٢ هجري

الموافق : ٢٥ آب عام ٢٠٠١ ميلادي

الفهرس

مركز الذِّكْر

للدراسات الإسلاميّة

موقع :

الكاتب والمفكِّر الإسلامي

المهندس عدنان الرفاعي

www.thekr.net

adnan@thekr.net